العرب

تأليف

الدكتور فيليب حتي

الناشر: دار العلم للملايين

العرب

تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

استاذ آداب اللغات السامية
ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون

الناشر : دار العلم للملايين

بيروت ١٩٤٦

طبع من هذا الكتاب
خمسة آلاف نسخة على ورق هولزفراي

فاتحة

إن ما لاقاه كتابي المطوَّل الموسوم بـ « هِستوري أوف ذي أرَبز History of the Arabs (مكملان، لندن ١٩٣٧ و١٩٤٠ و١٩٤٣) حدا مطبعة جامعة برنستون إلى ان تقترح عليَّ وضع مُوجَز في تاريخ العرَب بالانكليزية . وما لبث أن ظهر هذا المُوجَز بعنوان « ذي أرَبز: اي شورت هِستوري The Arabs-a Short History » (برنستون ١٩٤٣ و١٩٤٤) حتى أقبل عليهِ القرّاء إقبالاً اقتضى إعادة طبعهِ أربع مرّات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركية المسلحة . فانتشرت منه عشرات الآلاف من

النُسخ . ولقد تمت ترجمتهُ الى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقلهِ الى البرتغالية وغيرها من اللُغات .

وقد استعنتُ بثلاثة من رفاقي الذين ساهموا معي في منهاج التدريس الخاصَ بالجيش الاميركيّ في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المُختصَر الى العربية . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوَّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العَرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلَّفتُ زميلي الدكتور نبيه امين فارس ان يتعهد مخطوطة هذا المُوجَز بعنايتهِ ويُشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها . فاستحقوا جميعاً خالص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ آب سنة ١٩٤٥

فيلبب حتي

مكانة العرب في التاريخ

لم تمض على وفاة النبي محمد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزّها، دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً الى حدود الصين شرقاً ومن جبال اورال شمالاً الى حدود السودان جنوباً . وردّد المؤمنون في كلمتَي الشهادة اسمَ الجلالة والرسول من رؤوس المآذن في جنوبي اوربا وشمالي أفريقيا وأواسط اسيا ، فرجّعت جبالُ الاندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى أصداءَها . ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهدهُ التاريخ من قبل ، حتى في أخبار اليونان والرومان .

ولقد دوّن لنا التاريخ أخبار البابليين والاشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد الجزيرة العربية ثم

نزحوا عنها الى البلدان المجاورة حيث شادوا دُولاً عظيمة ما لبث ان اتى الدهر عليها فعفت آثارها واندرست . أما العرب فكانوا ولا يزالون منتشرين في مركز من أهمّ المراكز الجغرافية تخترقهُ طرق هي بمثابة حبل الوريد من جسم التجارة العالمية .

ومنذ وضعتِ الحربُ العالمية الأولى أوزارَها أخـذ انتباه العرب الى ما في ثقافتهم مـن ثروة يتزايد ، وأخذ شعورهم الوطني ينمو ويستعر . فهذه مصر تنشد استقلالهـا الناجز وتثبّت أركانه ، وهذا العراق ، بلاد الرافدَين ، ينادي بفيصل مليكاً في عاصمة العباسيين ، وهذا ابن سعود ، عاهل الجزيرة ، يبسط سلطانه على أواسط الجزيرة وشماليها الغربي ويشيد ملكاً راسخ البنيان ، وهوذا لبنان يؤسس اوّل جمهورية في الأقطار العربية وينال قَصَبَ السّبْق في ممارسة هذا النوع من الحكم الشعبي — حكم العامة لا الخاصة .

فمن وسط الرماد الهامد انبعثت اليوم العنقاءُ حيّةً — والعنقاء من طيور الجزيرة — قويةَ الجناحـين . فالأسلام ، دين الجزيرة ، منتشرٌ اليومَ في أنحاء العالم بأسره . وعـدد المؤمنين يبلغ مئتين وسبعين مليوناً ونيّفاً . وأصوات المؤذّنين ترتفع من عـلى رؤوس المآذن في جميع أنحاء العالم في كلّ ساعـة من ساعات الليل والنهار فتملأ الفلك المحيط بالكرة الأرضية ، وتتصاعد الى السماء .

ولم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور على انشاء دولة بل تعدّى ذلك الى الثقافة والعمران . فلقد ورث العربُ المدنياتِ القديمةَ التي ارتفعت معالمها على شواطيء الرافدَين وعـلى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية وفي وادي النيل . واقتبسوا عن الاغريق

والرومان القيم من مآثرهم ، ثم أضافوا اليه كثيراً مما ابتدعوه، ومن ثم نقلوه الى اوربا في عصورها المظلمة ونشروه فيها . فكان من جراء ذلك ان بزغ في اوربا فجر تلك اليقظة العلميـــة التي لم يزل العالم الغربي ، ومنه اميركا ، يتمتع حتى اليوم بحسناتها .

وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدّم البشرية . (ونحن هنا لا نطلق كلمة عرب على ابناء الجزيرة فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً .) فبينما كان فلاسفة العرب مكبّين على دراسة تآليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم . وبينما كان علماء العرب في قرطبة يتردّدون عـــلى خزائن كتبها السبع عشرة (ومنها خزانة حوَت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد) ويعودون الى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافـــة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها .

ولتاريخ العرب أهمية أخرى عندنا لأنه يدور على محورِ ثالثِ الأديان الموحّدة وآخرِها من حيث الزمن . ذلك هو الدين الحنيف الذي يمتّ بنسب الى اليهودية والنصرانية . فقد نشأت هذه الأديان الثلاثة في بيئة روحية واحدة – في أحضان الروح الساميّة . فالمسلم يعترف بأكثر العقائد اليهودية والنصرانية ، والعكس بالعكس .

ولقـد عرف العرب في تاريخهم معنى النصر والهزيمة ، غير ان الفكرةَ التي دعا اليها النبي محمد ،فكرةَ التوحيد ،هي التي لازمها النصر فتغلبت على مختلف الشعوب على الرغم من تغلّب بعض هذه

على العرب في ميادين القتال كالأتراك والمغول مثلاً . ومن أهمّ حقائق التاريخ الراهنة في عصرنا هذا ان الاسلام لا يزال قوّة فعالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى الهند الصينية شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به نحو ثمن البشرية جمعاء .

أما اللغة العربية فهي اليوم وسيلة للتعارف والتفاهم بين خمسين مليوناً من الناس . ولقد كانت في أثناء بعض القرون الوسطى لغة العلم والثقافة والتقدّم والعمران في العالم قاطبة . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كُتبت بها في خلال المدّة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظمَ مما كُتب بايّ لغة أخرى . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات الغرب التي استعارت منها مفردات علمية وفنية جمّة . ولا تزال حروفها أوسع الحروف انتشاراً بعد اللاتينية .

وعربُ اليوم أبعدُ عراقة في السلالة الساميّة وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من أبنائها . فقد حافظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية . وعلى الرغم من ان اللغة العربية هي احدث اللغات السامية من حيث الأدب المدوّن فقد حافظت اكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعاً على خصائص اللغة السامية الأم .

والأسلام هو غاية الكمال ديناً في مطابقة العقلية الساميّة . على ان لفظة « ساميّ » اتخذت في اوربا واميركا معنى غير معناها الصحيح ، واقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من

الشعوب السامية . ولا مبرّر لهذا الخطأ سوى الجهل . فما يحسبهُ الاوربيون والأميركيون من « الملامح السامية » — كالانف اليهودي مثلاً — ليس هو بالسامي على الاطلاق . بل هو ما يميز اليهودي من غيره من الساميين . وقد ورثهُ اليهود عن الحثيين والحُوريين لما اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزاوج .

وتنحصر الأسباب التي تجعل العربي — وعلى الاخصّ البدوي — أفضلَ ممثل للأرومة السامية ، بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً ولغوياً ، في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وعدم تبدّل وسائل الحياة فيها وبقاء طرق العيش على ما كانت عليه منذ البدء . وما أصالة النسب وتجرّد السلالة عن الهُجَانة والاختلاط إلا نتيجةُ العزلة والانقطاع في وسط بيئة منزوية وعيش ضيّق كما هي الحال في أواسط الجزيرة . ولدينا في جزيرة العرب ، مثال فريد للبداوة ولطريقة تكيّف الأنسان بحسب مقتضيات الاقليم الذي يعيش فيه والتربة التي يدرج عليها . فالتاريخ لم يدوّن لنا أخبار شعوب هاجرت الى جزيرة العرب واستوطنت أنجادها وواحاتِها واختلطت بسكانها الأصليين كما هاجرت شعوبٌ مختلفة الى بلاد الهند مثلاً واليونان وايطاليا وبلاد الانكليز والولايات المتحدة واقامت بين ظهراني السكان الاصليين واختلطت بهم . ولم يذكر لنا التاريخ أخبار فتح حَمَلت فيه شعوبٌ ما على الجزيرة وتغلّبت على حصونها الرملية ثم استقرّت فيها . فسكان الجزيرة — وعلى الاخص البدو — بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ . وفي جزيرة العرب نشأ

أوّلاً أحفاد الشعوب السامية من بابليين وآشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وهم عاشوا ردحاً من الزمن قبل ان رحلوا عنه وصاروا الى ما صاروا اليه .

العرب الأصليون : البدو

يتناول موضوع هذا الكتاب جميع الشعوب الناطقة بالضاد في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق وفي ايران ايضاً وتركيا في الحقب المعروفة . وفي مصر وبرقة وتونس والمغرب الأقصى وفي صقلية والأندلس في أيام ازدهار الحضارة العربية فيها . ولا بد لنا أولاً من الوقوف هنيهة لندرس أحوال العرب الأصليين ، وهم البدو .

ليس البدوي رحالة أو غجرياً يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد . إن البدوي أفضل من تكيف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء القاسية ، وحيث يندر المرعى والكلأ ، وحيث تندر مؤن الحياة وركنها . والبداوة في الصحراء فن من علمه لا يعلم شيئاً ، في وضعه وعظمته ، عن فوائد الحياة الصناعية في حواضر

المدن . وهي ضرب من المعيشة حقّ زاهد يحوي بيئةً عسيرة مُقفِلة . فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح إلا في قطع من أطرافها مجاورة للبحور المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » . وهي كالجزيرة حقاً إذ تحيط بها البحور من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد فهي أكبر شبه جزيرة في العالم ، فلا يزيد عدد سكانها على سبعة ملايين . ويقول علماء طبقات الأرض إن الجزيرة كانت في عصر من العصور متصلة بالصحراء الكبرى الافريقية ومستطيلة كرملة ممتدة في عرض آسيا من أواسط إيران حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف أرضي لا تزال آثاره ظاهرة في وادي النيل والبحر الأحمر وخليج فارس . وبلاد العرب أشدّ بلاد العالم حرارة ، وقلّما تمطر على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الأحمر وخليج فارس ، وذلك لأن هذين البحرين ضيّقان ولا يؤثران في تعديل الاقليم والأجواء الحارة المطلة على الأراضي المجاورة في القارتين الافريقية والاسيوية .

وقد يجود نسيم المحيط الهندي في الجنوب ببعض الغيث على الجزيرة . إلا أن ريح السموم التي تلفح البلاد كلّ عام لا تترك وراءها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب بعد إذا تغنّى شعراء العرب بنسيم الشمال وهبّاته الشرقية اللطيفة ، وهي المعروفة عندهم بريح الصبا .

ولا يزال البدويّ يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من

منه ، ويتجه بمواشيه الراعي الى المخصب اسلافه منذ بدء عهدهم . وهو يتعهد تربية الحيوان من الغنم والابل والخيل ، ويتعاطى القنص والغزو ولا يحترف سوى ذلك لان هذه وحدها هي التي تليق به ، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف انواعها هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والجزيرة الزراعية التي تصلح للفلاحة من ارض الجزيرة قليل ، وان الحنطة تكاد لا تزرع فيها . ومن هنا عدّ البدوي الخبز من كماليات الغذاء .

وقد نبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرم . والبن الذي جلبه المسلمون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر اصبح وغيرها . وينمو في الواحات الموز وقصب السكر والقمح . ولا يزال التمر واللبن والسمن الغذاء كما كانا من قبل في غرب الجنوب معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة قاري ، وهواؤها جاف ، وتربتها قليلة الخصوبة . وليس في طول البلاد وعرضها نهر جار في البحر صالحة للملاحة . وليس فيها من موانئ صالحة للملاحة فكل ما هنالك ودية متشعبة تتدفق فيها السيول عند هطول الامطار وهذه الاودية ضيقة اخرى اذ تسير فيها القوافل وسلك طريق الحج ولا يزال الحج بعد فجر الاسلام حلقة الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد رغب في اختلاط الحضر الذي كشف الجزيرة من الشمال دون ان يتمكن البدوي من تغيير وبقي على ما كان عليه منذ القدم ، واستمر مع شريكتيه الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم الصحراء المطلق وواحداً من ثالوث القديم ولا يشك هذا الثالوث

في أمر الجزيرة سوى زمن ... وبعض ما للبدوي من شدة المراس والصبر على الشدائد استطاع أن يشق حياته بكد لا تقوى سواه على احتماله. وقد جاءت رتابة البادية ... ومن ضروراته رحلات ... وعلى قومه. وحتى ما وجب له في خلافه بمصلحة العامة ثم يتجاوز ما يعنى بقسمه من الأمور أما التعمق ... شرائع وطاعة والخضوع لسلطة ... من سعده.

وكانت ديانة البدوي السمحة في أول الأمر ...

وقد قامت على ... عبادة ... من الحجر الأسود ... في الإسلام ... في أعماقه من الموت ... الشعور الديني في قلب البدوي ضعيفاً، ولم يعف القرآن الكريم ذلك فقد جاء فيه قوله: «الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً» (سورة التوبة) ولا يزال الأمر كذلك حتى يومنا هذا فليس يتعدى ... البدوي ... الاعتراف المطلق.

وتظهر في عقلية البدوي ... صحراء القاحلة وحياة الصحراء المجدبة التي ... عظم وعصب وتطلعه مقصورة على التمر ولحم الإبل في حياته ... الرئيسي له الموت. وهو ... من عصير التمر ... سوى التمر محروساً. ... الأسودين أي التمر والماء.

«الأسودان أرواحنا ... والتمر دواء ...»

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته. وهو لا يتعدى قميصاً طويلاً وعقالاً يشده على ... وكوفية وعقالا

على أنه ... السروات ... البدوي لا يعرف ... الاحتياج
... أو وجود قلة الاستعمال .

واهم حيوانات جزيرة العرب الإبل والخيل . وقد يصعب على العقل أن يتصور الصحراء صالحة للعيش بدون الإبل ، فهي قوام عيش البداوة ، ومطية تنقلهم ، ووسيلة مواصلاتهم ، ومعيار الثروة ، ودية القتيل ، ومهر العروس ، وثروة تشجع ... كل اولئك تجعل ... الإبل ... والإبل هي رفيقة البدوي التي لا يعرفه وحدة ... ويشرب لبنها بدلا من الماء الذي يحرمه نفسه ويؤثر به ماشيته ، ويأكل ... ويصنع خيمته من وبرها ، ويستوقد بعرها ويتخذ ... ويحمي وجهه ... من الحشرات . والإبل أحق للبدوي ... الصحراء فحسب ... من ... ومن ...

وفي يومنا هذا يسمي البدو ... بدعوة أهل ... أهل الوبر ... الحضر ... من أهل الوبر و... المدر .
وذكر ... الرحالة ... المشهور في ... عن ... لا يكاد يوجد فرد من أفرادهم شرب مرة ماء من كرش الجمل . فعند الحاجة ... يدفع عصا في حلقه حتى ... الماء ... ويستخرج ... وقد يصبح هذا الماء شراباً ... على ... له يوم أو يومان .

وقد كانت بلاد العرب مركز تربية الإبل الرئيسي في العالم ... الإبل أهم مواردها . ويدلنا على مكانة الإبل في حياة البدو ومعاملاتهم ... في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقرب من ... اسم

للابل بأنواعها المختلفة ونسلها وحلائبها وأصوافها ووبرها. وهو عدد لا يجاريه سوى عدد جمال الصومال. ويقول علماء الجيولوجيا ان موطن الجمل الاصلي هو البلاد الاميركية، ومنها تسرب في العصور السابقة للتاريخ الى آسيا الشرقية، فأفريقيا، فبلاد العرب. ودون ذكر للجمل في التاريخ يرقى الى القرن الحادي عشر قبل المسيح عندما غزا المديانيون فلسطين ودخلوها بالجمال، على ما ورد في سفر القضاة ٦ : ٥ .

أما الخيل، وأصلها أيضاً أميركي، فليست من ضروريات الحياة في الصحراء، ومن هنا لم يتمكن منها غير ذوي اليسار. وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب وظهورها في الحروب والمفاخر، فقد جلبت الى البلاد من طريق سورية الى كنعان ملوك ارامية قد ادخلوها اليها الحثيون في القرن الثامن عشر قبل المسيح. وتوفرت للخيل في جزيرة العرب الاحوال لاحتفاظها بنسب صاف بعيد عن الاختلاط. وقد اشتهرت الخيل العربية بجمالها وقوتها على تحمل الشدائد وذكائها وعطفها على صاحبها وإخلاصها له. والخيل العربية الاصيلة هي مثل ما يحسبه الغربيون افضل صفات الخيل. وقد ادخل العرب الخيل الاصيلة الى الاندلس في القرن الثامن للميلاد، ولا تزال حتى الآن ظاهرة في الخيول الاندلسية والمغربية حتى يومنا هذا. حتى اذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة.

واهم ما يطلبه العربي من الخيل سرعتها في الغزو لا تصبح عرق وهي تستخدم ايضاً في السباق والقنص واذا عز الماء في

يحم احـــدى القبائل وصبغ الاصل وثقلا عن ذويهم من العطش لم
يكترث رب البيت بهم بل أصرّ على تقديم ماءه للضيف ، ولا ، ودوا
بقي منه شيء دفعه الى الحاشية .

ويبقى المرو ضربٌ من ضروب اللصوصيـــة ، وان شئتم .
ولكنه تحكم عوامل عدة : البداوة الاقتصادية والاجتماعية وتدفع من
وضعهم وركن من اركان ... في الصحراء ، حيث القسوة غريزة
ملازمة للطبيعـــة البدوية ، فتجيء المروءة حقاً بالرجل وسجية من
سجايا الرجولة ولم تقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب
جميعاً من نصارى وغيرهم .

والمروءة عند العرب ناحية من نواحي الهوى البدوي والعرف
الشائع بصحيان لا ... لا ... وقد
... على ... تحب ان ... غير انه
لا ... في البلاد من الاموات ، وكثير ما ...
المسائل ... او الاقوام ... في الحدود ... المسائل
المروءة ... في ...

على ان ... من مستوى المروءة فيها تدوى
بدوي في ... والمدوات ... كرب جواد ...
على الحوار ... وقد ... شعراء ... الصدقة
والقرى وحسن ... هذه الظاهرة ... الا ... لا
تشترك في ذلك سوى خمسة والمروءة فتتجه البدوي ... الى
... والرمي وهو اهم دواعي ... من سكان البادية ، ...
الى ... في سبيل الاستيلاء عليها ، فتحجزه ... الوعي ...

الفرد . غير ان عجز الانسان تجاه قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الصداقة فيحب واجباً مقدساً . واذا ابى البدوي ان يحفظ صداقة العربي أو رده حنث أو اخل به فذلك عند ابناء قومه يعد شيئاً يسيء الى العرف الشائع واي شرف يحسب لمن ينسى ان له نعمة .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة افراد يجمعهم دم واحد ويضمهم بيوت من الشعر تحتل كل عائلة واحداً منها . وتكون العشائر المتقاربة النسب قبيلة واحدة . ويعتبر افراد العشيرة انفسهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ وحكمه . وهو اكبر رجال العشيرة سناً . وفي القديم هذه الفكرة جسمي وعصبي اجتماعي ويمكن ان تعني ان تحمل على القبيلة شيئاً من دم احد افرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا تملك الافراد الا بيوت الشعر ومحتوياتها . غير ان الماء والمرعى والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للعشيرة اجمع .

واذا قتل البدوي آخر من عشيرته لا يجري الدفاع عنه احد فاذا هرب اصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . واما اذا قتل احداً من عشيرة ثانية تحكم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفي الواحدة ثأرها من الاخرى بقتل احد افرادها .

والدم في عرف الصحراء لا يعوض عنه الا بالدم ، ولا جزاء لمقترفه غير القتل . والتبعة الاولى تقع على عاتق الاقرب . وقد يتطاول الثأر حتى يستغرق اربعين سنة . ويجدر بالذكر هنا ان

الأثر كان سببا هاما في الحروب القائمة في الجاهلية المعروفة بأيام العرب وهو يضاف الى العوامل الاقتصادية في ذلك . والعصبية تمكن ان نعتبر للبدوي انها هي حصن له يحمي نفسه وخروجه عن عصبيته يجعله شريدا طريدا لا حامي له ولا مجير

والعصبية القبلية تنتج ولاء مطلقا لأفراد القبيلة كلها . وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبرة بحيث يشمل سائر افراد العشيرة فيشعر الفرد بان نفسه جزء من عصبة وانه وحدة لا تتجزأ . ولا يرى مانعا يردعه عن الاعتداء على غيره من القبائل وسلب وقتل افرادها . وقد استغل الاسلام هذا النظام القبلي في الفتوحات المتعددة . فقسم الجيش الى وحدات على اساس قبلي واستوطنت بعض القبائل البلدان المفتوحة على هذا الاساس نفسه ، وخلق المسلمون على غرار ... من الشعوب المقهورة فدعوا الموالي . والمولى في الاصل هو من يلحق باحدى القبائل عن رغبة في عصبة أحد افرادها . وبقيت هذه المميزات غير المستحبة ... اي مميزات الفردية ... و العصبية القبلية ... الخلق العربي حتى بعد الاسلام فكانت من اهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة .

وتمثل شيخ القبيلة في جميع شؤونها ، وشأنه ... في المجلس القبلي ، وبكرمه وشجاعته ... في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة ،

بل عليه ان ينتظر [illegible] مع [illegible] العائلة [illegible] في [illegible] على
ويبقى الشيخ [illegible] دائم [illegible] على [illegible] نفسه ، ولا يفقد
مركزه .

[illegible] العربي [illegible] والبدوي [illegible] ديمقراطي [illegible] والنزعة
فهو [illegible] وان الشيخ للعائلة ، وهو [illegible] الامور [illegible]
[illegible] إلا اذا اشار الى الملوك
الاجانب . غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي [illegible] الى
[illegible] الامة العربية اشرف [illegible] الرجل
المتمدن دونه قيمة وسعادة . وهو [illegible] وشعره
[illegible] احداده . [illegible]
إرجاع نسبه الى آدم .

ان المرأة البدوية سواء كانت اسلامية ام [illegible] ، فقد كان
[illegible] واذا
كانت قد عاشت [illegible] في [illegible] الزوجات وكانت
الرجل [illegible] في [illegible] زوجها وفي [illegible]
[illegible] حق [illegible] الشخصي

ومن [illegible] البدو مقدرتهم على [illegible] الاخرى [illegible]
[illegible] القوى العقلية التي كانت [illegible]
قوى [illegible] وقد [illegible]
[illegible] في [illegible] وموسى
في [illegible] في مصر [illegible] في [illegible]

الرشيد في بغداد ، وبنت اهرامها ، كمصر وسمرقند ، التي لا تزال
آثارها تدهش العالم باجمعه . ومما لا شك فيه ان ازدهار الدولة
الاسلامية في اوائل عهدها يرجع بعض اسبابه الى تلك القوى
الكامنة في نفوس المؤمنين ، كما هو معروف للجميع ، واخص بالذكر
وحدة الاسلام .

قبل فجر الاسلام

مع ان النصر ... تكشف حروب العرب من ... صلات في حتى تكشف لنا من الوثائق ما يكشف عن اتصالهم الخارجي وشيئاً من اهتماماتهم، وان اشارة تحققنا عن العرب وردت في رقيم شلمنصر الآشوري الذي قاد سنة ٨٥٤ ق.م حملة على ممالك دمشق وحلفائها. وكان بين هؤلاء الحلفاء شيخ عربي. ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمنصر «هزمت مدينة ممالك دمشق وهدمت واحرقت، اسرت ١٢٠٠ عربة و١٢٠٠ فارس و٢٠٬٠٠٠ جندي من هدد عزر امير (دمشق) ..... ١٠٠٠ جمل لجندب العربي». وجدير بالاعتبار هنا ان اول ذكر عربي في التاريخ المدون جاء مصحوباً بذكر الجمل. وكان موقع قرقر بجوار حماه في شمال سورية.

قد ضعف بعضه العربي ، فما يبق على جميع سكان الجزيرة من الآن فيجب ان نميز بين عرب الشمال : فهم عرب نجد ، وبين عرب الجنوب . فكما ان الجزيرة مقسمة الى قسمين جغرافيين تتوسطهما صحراء بينهما ، كذلك سكانها مقسمون الى شماليين وجنوبيين . وينتسب عرب الشمال الى البحر المتوسط اما عرب الجنوب فينتسبون للحبش والآن ، اسمى ايضاً الارمي او الحثي او العبري . ومن مميزاته البنت العربي ، والالف لاولى ، واتخذ المسند ، وشعر بكسف وقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال في انشاء حضارة خاصة ، ثم ظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حين بزوغ الاسلام في العصور الوسطى . ولا بد من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب . والاختلاف بينهم لا يزال على الرغم من محاولة الاسلام توحيد الامة العربية . وقد كان لهذه الاختلافات شأن كبير في اضعاف مقومات الدولة العربية

وقد كانت الجزيرة ممراً ومأوى للحضارة الاولى لاغتراب بينهم ، فلاحقت طرف عنه شبه جزيرة سيناء موقع العبور المشهور - في الشمال . وانحدرت طرق من هنالك الى الجزيرة الى مصر الى اسيا الغربية عن طريق البحر ، ومن ثم انتقلت عند ظلمه واسع في البحر الاحمر . وفي ايام الاسلام الفرعونية الثانية عشرة حوالي ٢٠٠٠ ق م ، وحفرت قناة اصطناعية فرع النيل الشرقي بين البحر الاحمر ومن ثم غطى عليها الرمل حتى عاد فتحها سنة ... ، واندثرت هذه ومن بعدها الخليفة العرب . وبقيت مسدودة حتى اكتشف الطريق البحري لفتح حول

رأس الوجه الصالح سنة ١٤٩٧ أما في الجنوب فتفصل الجزيرة عن افريقيا مضيق باب المندب وعرضه خمسة عشر ميلا .

ولم تكن العرب قبل الإسلام أهل حرب وشدة بل أهل تجارة وأسفار . فكانت الجزيرة في الجنوب كانت حلقة الوصل بين الهند وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت بها مدينتان عظيمتان كانتا تقومان على طرق القوافل وهما مدائن (البتراء) و(تدمر) التي لا تزال [illegible] ولا تزال خرائبهما عجيبة تجذب السياح من أقطار الأرض . وكانت مدينة البتراء التي يطلق عليها العرب (وادي موسى) عاصمة الأنباط منحوتة في الصخر الملون الأحمر [illegible] مصر وموقعها في الصحراء السورية بين امبراطوريتي الرومان والبارتيين الفرس [illegible] مملكة من [illegible] ذات الغنى والعمران التي اتخذت لنفسها [illegible] ملكة الشرق ، ووضعت ملكها على عرش الامبراطورية الرومانية ، فحكمت مصر وسوريا وكثيرا من آسيا الصغرى . ولما تغلب الامبراطور اورليان على قوادها في معركة قرب حمص سنة ٢٧٢م عادت مصر وبلاد الصحراء على حالتها [illegible] . غير أنه أسرت وسيقت أمام عربته [illegible] عند دخوله روما منتصرا [illegible] بسلاسل ذهبية حسب عادات ذلك الزمن

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الجزيرة [illegible] [illegible] الفراعنة طوال أربعين سنة في [illegible] اليهود في خروجهم من مصر إلى فلسطين حوالي سنة ١٢٢٥ ق . م [illegible] مديان وهي القسم الجنوبي من سيناء والأراضي الواقعة شرقيه [illegible]

[illegible] اسرائيل وبعد ذلك تزوج [illegible] موسى من [illegible] عربية
كانت ابنة كاهن مديان (خروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ – ١٢) . وقد
كان هذا الزواج من اهم حوادث التاريخ . كانت زوجة موسى
[illegible] يهوه ، وهو الذي صار يعرف [illegible] في عهد
وكان يهوه اله للصحراء [illegible] وحيدا في الوقت عينه . فسكنه
[illegible] لا تتعدى [illegible] الصحراوية
[illegible] موسى [illegible] هذا [illegible]
[illegible] من [illegible]

ويذكر الادباء في عهد [illegible] ان اصل [illegible] من
الصحراء [illegible] في [illegible] التي
كانوا [illegible] في [illegible] الجزيرة او الصحراء السورية ، وشوهت الى
[illegible] على الرغم [illegible]
من [illegible] في [illegible] في [illegible] السامي
[illegible] من [illegible] من
المشرق [illegible] من فارس
على [illegible] من [illegible] من صحراء [illegible]
متابعة هذه الاحداث في العهد [illegible] كانت
[illegible] العرب [illegible] الاقوام [illegible]

[illegible] فوق كل شيء هو ظهور الاسلام ، دين
الاسلام [illegible] والعرب [illegible]
[illegible] العرب [illegible] وسادت
[illegible] الشمس كما [illegible]

قوم رعاة يقضون نهارهم حره ويستمتعون ببرودة الليل من لوعة قيظهم، في حين يستنكرون حرارة الشمس. والشمس لا تدخل في صفوف آلهتهم الا عند دخولهم في طور الزراعة وادراكهم فاعلية الشمس فيها. واخيراً بعد عبادة الاجرام في طول الجزيرة وعرضها درجة اسمى من ذلك تحدث القوة الروحية وكانت قد ظهرت آراء دينية توحيدية ... وعبادات في شكل طقوس دينية، واحدثت بعض المؤثرات المسيحية تحمل مفهوم ولكن الفكرة استحكمت ... العرب قديماً. فجاء الاسلام ودعا الى ... لظهور دعوة دين توحيدي عظيم.

وسمّي المسلمون العهد ... الجمهور الى ... غير ان هذه التسمية لا تنطبق تماماً على الواقع اذ احدث بعض الاعمار حضارة جنوب الجزيرة على ... عرب الشمال فاستعملوا طريقة الكتابة حتى قبل الاسلام وخصوصاً في عصر ... لكن فيه شعر او كتب ...

والعرب ... شعوب الارض ... الغناء ... وقد لا يكون ... في ... مكانه في مجالس بغداد ودمشق والقاهرة اليوم ... حفلات ... شديدة ... او ... عربية ... والتغني ... والموسيقى ... في النفس شعور ... السحر الحلال.

والعرب كثير السماع ... فاستعملوا ... ل

أخضعوا لطبيعتهم لغة العرب في مجرى واحد ، هو من الكلام
قد كان البوني بتأمله وبحسه كان العربي بقصيده ولعراقي
موروثه ، ووحدا فهو طريقة أحمى بتعبير أعمى وفي مثل
العرب « خل امرء في فصاحة ... » وزعمه بمعوا ، اشتهر
أسلوب بحكمه ، وأهل نجد جمعه ، والأعراب ببلاغة
المنطق ، وقد عدّ عرب حضرمة للفصاحة وأرضه وعروضه
... وأرض كامل بلاد ، بالعربية فصل تركيبها كان فيه
الأيمن وكثير الأقدمين على ذلك ، سامع قبيل الإسلام هذه
الميزة اللغوية كما يفصل مبون ... قد كان معجزة في
أسلوبه وتركيبه وبلاغته ... الأعجاز ، فهو أسطع برهان
على صحة دينه ، وإن فقد كان نور الإسلام ... حدثاً
بل هو نور كتاب .

ولم يعرف عرب الشمال في أحقابه الأولى الشعر وما يهم إليه كان
ميزتهم الفصاحة وحدها ، فقد كان شعرهم أدنى عدمة هامة في
حياتهم الاجتماعية ، فإذا اشتبكت قومه في معركة كان به فعالا
كتشجيعهم ، أما في السلم فقد يدعو حتمه الدوية في الاضطراب
والإشفاق ، وقد يثير قصيدة أمسية كما يثير حفلة أميح الناس
في الحفلات ... والأحزانية في عهد اليوم ولما كان الشاعر
صحفي يومه فقد اعدق عليه الأمراء هداياهم الثمينة كما عطفه .
فشعره الذي حفظه الناس وسمعته الأسن كان أداة فعالة بدعوة ،
وخير مكونة لذوي همم ، وأقصى ممثل له ، وكان يغدق العطاء
على الشعر كل سبب ... فصح الناس .

ولم يكن شعر العرب وجداناً وعاطفة وتمثيلاً للحياة فحسب ،
بل كان سلاحاً ومؤرخاً أيضاً . وكان الشاعر مقدساً لدى كافة قبيلته
البدو على حدّ سواء أحدهم . ومن هنا جرى في ذهن ... في
عامر بن صعصعة قوماً وشعراء وعدداً وفعلاً . والقصيدة
كانت تتوقف على أحسب حوادث الخيبة وذكاء أفرادها وعددهم
والشعر العربي دون غرابته وروعته في أخلاقه المحببة وتحليلها
إذ يحتوي على الكثير من المعلومات عن حياة العرب التي عاشوها
ويكاد يكون المرجع الوحيد لمعرفة أخبارهم وأخلاقهم في جميع أدوارهم
وأطوارهم . حتى قيل إن الشعر ديوان العرب .

ولم يكن للدين في نفس البدوي قبل فجر الإسلام أثر ظاهر
من شعره ، غير أثر ضئيل . وإذا كانت هناك من بعض النصوص
المستفادة من دلالة من بينها شيء من احترام المعرف و ...
فإنك لا تكاد تجد مثالاً واحداً ... يدل على خشوع أمام
ديني . واعتقد البدوي أن الصحراء ملأى بالجن ...
عن الآلهة في ... وكانت علاقة
الآلهة في ... علاقة الجن ... عند التحقيق لا
تشخيص لعوادي الصحراء القاسية وحيواناتها الضارية ...
الجن حتى بعد الإسلام ، ... الآلهة الوثنية
منزلة الجن

وفي مدينة مكة من ... الحجر الذي ... حجر ...
... كان واحداً من الآلهة المعبودة
يدعى ... ، وهو ... أهل مكة ... أوراق

والتجأوا اليه في أحرج مواقفهم . حتى اذا هتف رجل منهم بكلمة في كلام أصبح منذ اليوم في العربية « لا إله إلا الله » دوّى صدى هتافه في الحرم المعمور ، ودفع بأهل الصحراء الى أطراف العالم الاوسع ملبين عالمين .

محمد رسول الله

يجمع المؤرخون أن محمداً ولد عام ٥٧١ م ، وهو المعروف بعام الفيل . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ليفقد بعدئذ والدته قبل أن يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته أمه باسم قد يظل مجهولاً إلا أن الاسم الذي عُرف به في القرآن فهو محمد . وأُشير إليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أضفى عليه قومه لقب « الأمين » قومه . وكثر تداول هذا الاسم « محمد » إلى أن أصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمّى باسم آخر . وينتسب محمد إلى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى عائلات الجزيرة مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة (١) في مكة . وكانت الكعبة تضم بين جدرانها أصناماً كثيرة ، وحولها أنصاب عديدة ، وهي مَحَجّة أقطار العرب

(١) سدانة الكعبة : خدمتها .

الحجر في عقائدهم ، حيث الحجيج يؤدوا فيها فرائضهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور المؤرخة فاننا لا نعرف إلا اليسير عن حداثته . وليس لدينا الكثير من المعلومات الموثوق بها عن كيفية تمضية عيشه ، وجهوده لتحسين شؤونه ، والآلام التي عاناها في إعداد نفسه للمهمة الكبرى التي كانت تنتظره .

ومن هذا القصص الواضح من حداثة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين . وكانت خديجة ارملة قرشية تاجرة ذات ثروة ولها تجارة منتظمة وتستأجر الرجال ، وكان من مستخدميها الشاب محمد حيث توسمت فيه من الامانة . اما محمد فكان محروماً ومن ثم لم يفكر في الزواج من امرأة ثانية طالما خديجة ذات الشخصية البارزة والصفات الممتازة في قيد الحياة .

ولكن لما وجد محمد في زواج خديجة فرجة الى متع الدنيا فاتسع له اشباع نفسه روحياً ، فقد كان يختلي بنفسه في غار حراء خارج مكة ، يمعن في التأمل والعبادة ويفكر في ذلك الخلق . وبينما هو ذات يوم في الغار سمع صوتاً يأمره قائلاً : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ... الخ . (سورة العلق) فكان هذا اول عهده بالوحي ، ومكث برهة اعترته فيها رعدة الخوف ، فأسرع الى بيته وهو في أشد حالات الاضطراب العصبي ، وسأل خديجة ان تزمله ، فزملته وهو يرتعش فجاءه الوحي ثانية : (يا ايها المدثر قم فانذر ... الخ (سورة المدثر) واختلفت عليه الاصوات ، واشتكى بعد ذلك ،

وحدث احياناً كأنه صلصلة الاجراس ، غير انه وحدث اخيراً ووضحت ، واذا به يتحقق ان هذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتشبه رسالة النبي العربي محمد رسالات الانبياء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخص دعوته في ان الله واحد ، لا اله الا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير . وان هنالك يوم دين ، وان الناس يجزون باعمالهم فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل شراً فله نار الجحيم .

أيقن محمد بعد ذلك ان الله اختاره رسولاً ليؤدي رسالة الحق ، فوثق من نفسه ، واخذ يخرج الى قومه مبشراً هادياً يدعو الى الحق وينهى عن الباطل . واخذ قومه يستخفون به ويسخرون من رسالته ، غير ان ذلك لم يكن ليفت في عضده ، بل استمر يعظ الناس محذراً منذراً ، ويجد في تحقيق المهمة التي اختاره الله لها . فكان يعظ ويشرح للناس ملاحظاته وتعاليمه واقواله حتى يدركوا معناها ويحفظوه لا يعوزهم شيء . وكثيراً ما هدد ... يوم الدين المخيف ، وبرغم هذا لم يؤمن برسالته الا نفر قليل . وكان اول من آمن به زوجه خديجة ثم تلاها ابن عمه علي ، وصديقه ابو بكر . اما الطبقة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فقد كانت منكرة تقاومه مقاومة شديدة وتضيق عليه بلا هوادة . ولما اخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر رسالته على مصالحهم الدنيوية والاجتماعية . وتبين لهم ان الهجرة في حروبهم لم تكن عقبة كما أملوا فلحقوا

الى اضطهاده والتنكيل به وبأتباعه . فكان من جراء ذلك أن
نزحت احدى عشرة اسرة مكية مؤمنة الى بلاد الحبشة .
وتبعها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة اخرى . ووجد هؤلاء
المسلمون في جوار النجاشي النصراني امناً وراحة . وابى هذا
تسليمهم الى خصومهم . ولما كانت هجرة محمد هؤلاء الاتباع في تلك
الايام العصيبة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد الشديد لم تضعف من
عزيمته فاستمر يبث دعوته ويدعو الناس الى عبادة اله واحد هو
الاله الحق . وظل الوحي يحثه والآيات تنزل عليه . وود لو ان
قومه كانوا كالذين في هدي اليهود والنصارى بفضل الكتاب الذي
أثر في نفسه لا شك

ولم تمض سنين حتى انتهى عصر الاضطهاد ، فوجد الاسلام
منعته ، ولقد قدّر للمدينة ان تلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة
الاسلامية الفتية كما سنرى بعد . وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج .
وتفصيل ذلك انه اسري بمحمد ليلا من مكة الى بيت المقدس ، وهو
المعبد الذي قدسه اليهود والنصارى ومن هناك استأنف محمد رحلته
الى السماء السابعة على دابته العجيبة البراق . وبذلك أصبح
بيت المقدس ثالث مدن بعد مكة والمدينة في نظر العالم
الاسلامي . وقد اصبحت قصة الاسراء الواناً زاهية رائعة على مرور
الاجيال . ولا تزال حادثة المعراج في ايران وتركيا [illegible]
لحدث الاسراء وزن كبير . ويعتقد بعض الباحثين ان الاسراء
والمعراج مصدر « الكوميديا الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي
الخالد دانتي . ومما يدل على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما

حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من حوادث حائط المبكى، عند اليهود ، في بيت المقدس ، وهو الذي يعدّه المسلمون الموضع الذي ربط عنده محمدٌ البراق في طريقه الى السماء . وبعد قليل من الاسراء ، جاء محمداً من يثرب ، بضعة نفر من اهله ، وفدٌ مؤلف من خمسة وسبعين رجلاً ، فبايعوه ودعوه الى اتخاذ يثرب مسكناً . وقد كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد انتهوا الى ان يكونوا اكثر استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من اهل مكة . وزاد هذا في حنق قريش وامعانهم في اضطهاد المسلمين . فأوعز محمد الى معظم من اتبعه ان يسبقوه مهاجرين الى المدينة بعيداً عن فتنة قريش ولحقهم هو بنفسه فوصل في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢ . وهكذا كانت الهجرة التي لم تكن فراراً فحسب بل خطة مدبرة من قبل عميق . واصبحت السنة التي هاجر فيها الرسول الى يثرب ، ابتداءً من ١٦ تموز ، بدء التقويم الاسلامي القمري كما اقرّه الخليفة عمر بعد سبعة عشر عاماً من الهجرة . وعُرفت يثرب من بعد ذلك بالمدينة ، أي مدينة النبي

هدأت العاصفة الآن بعض الشيء ، واطمأن محمد بنجاح المسلمين في المدينة ، وبدأ دور جديد من ادوار حياته ، هو الدور السياسي الذي اخذ يعنى فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين وأنصار . ولما وثق من استقرار الامور انتهز فرصة الاشهر الحُرُم وخرج على رأس فئة من اتباعه يعترض قافلة قرشية قادمة من الشام الى مكة واحسّ زعيم القافلة بالخطر فطلب نجدةً من مكة . ولكن هذه المعركة التي عُرفت بوقعة بدر اسفرت عن انتصار ثلاثمئة من المسلمين

على اكثر من الف من المكيين . وعلى الرغم من ان هذه الموقعة كانت وقعة حربية بسيطة فقد كانت حجر الزاوية في تأسيس سلطة محمد الزمنية . وقد اعتبر الناس هذا النصر العظيم بانه معجزة تدل على تأييد الله للايمان الجديد

وتجلى في المسلمين في معركتهم الاولى روح التضامن والشجاعة والازدراء بالموت ، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى ابان عصر الفتوحات . ومع ان المكيين اخذوا بثأرهم في العام التالي وجرحوا النبي ، فان انتصارهم لم يكن حاسما ، اذ استرد المسلمون حيويتهم واستقبلوا من دون اندفاع الى دور الهجوم . وبعد ذلك بثمان وعشر سنين ... وقد كان حتى ذلك الوقت عدوة على دين مجتمع الجديد حاجة للسياسة المحضة . اما الآن فقد اصبح لا دين دولة فحسب بل الدولة نفسها . ومنذ ذلك الحين صار الاسلام ولا يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حربا على اليهود من لاجئيه اعدائه و قريش عليه فقتل منهم ستمائة رجل من بني قريظة اى اهم القبائل اليهودية ، ونفى البقية منهم ، واسكن المهاجرين في مواقعهم . ولم تكن هذه القبائل هي الوحيدة في تحدي الاسلام ، كما كانت اخر القبائل التي خيرها النبي بين الاستسلام والموت

وفي هذه الحقبة من حياة النبي في المدينة صار سلم الاسلام وحدة عربية قومية . وانفصلت صلة الاسلام بديانتي اليهودية والنصرانية . وحل يوم الجمعة للصلاة الاسبوعية . وقام الأذان مقام النواقيس والابواق واختير رمضان شهر للصوم ، وتحولت

الفي من بيت المقدس الى مكة . وأجبر الحجّ الى مكة وتقبيل الحجر الاسود ، وهو من فروض الدين المرعية في الجاهلية

وفي عام ٦٢٨ حجّ محمد على رأس الف واربعمائة مؤمن الى مكة ، مسقط رأسه ، وارغم قريشا على توقيع معاهدة تسوي فيها حقوق المكيين والمسلمين . فقضى بذلك النزاع الذي استفحل بينه وبين اهله القرشيين ، ولو الى حين . وفي خلال هذه الفترة من الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية رجلين من قريش مشهورين ، ثم أصبحا فيما بعد … ان يرفعا لواء الاسلام عاليا ويصبحا سيفه الحاذق . وتم احتلال مكة احتلالا كاملا في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ ، ٨ هـ . [illegible] محمد الكعبة فحطّم الاصنام التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمائة وستين ونادى قائلا : جاء الحقّ وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا . ولأن محمداً حطّم الاصنام وعاملهم معاملة لينة ، وعفا عن مقاومته ودفع الناس بذلك الى حبه . وقد كان محمد في التاريخ مثلا للعفو عند المقدرة يحتذى هذا المثل

وقد جعل محمد في هذه الحقبة الكعبة وما يحيط بها مسجدا حراما لا يجوز للمشركين الاقتراب منه وزوال الآية التي ذهب المفسرون الى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلمين الاقتراب من الكعبة وربما كان يقصد من هذه الآية منع المشركين من الحج الى الكعبة في موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال موضع شك . ولا يزيد عدد النصارى الاوروبيين الذين وفدوا الى زيارة الحرمين الشريفين وتجوّلوا في نواحيهم على خمسة عشر رجلا اوهم يتنكرون في ثياب

من اهلي بولونيه في عام ١٥٠٣ وآخرهم الدون بورو الانكليزي .
اما الذي كتب اتم وصف لزيارته فكان اللوتنانت السر ريتشرد
برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهدات حسن جوار
مع صاحب عقبة نصراني في شمال ، ومع قبائل يهود المقيمة في
واحات مقنا واذرح والجرباء على الحدود . وبحسب معاهدات
اليهود والنصارى في حمى الاسلام وتعهدهم بدفع الجزية والخراج
وصارت هذه الجزية قاعدة [illegible] سياسة الاسلامية
فيما بعد .

وتعرف هذه السنة التاسعة من الهجرة ٦٣٠ – ٣١ بعام
الوفود ، اذ فيه جاءت وفود من كل حدب وصوب معلنة الطاعة
والولاء للنبي الأمير من جهات اليمامة ومن حضرموت واليمن . اما
العشائر الكبيرة فكثيرة ما بين الوفود . ولقد اعتنق كثير من
هذه قبائل الاسلام عن مصلحة شخصية اكثر مما اعتنقه عن
اقتناع روحي . [illegible] الاسلام [illegible] شهادة المسلم مع اداء
الزكاة . وهكذا خضعت الجزيرة العربية التي لم تخضع قط في
[illegible] لامام وحدها تحت سلطة محمد وتعاليم اتباعه .
وشرعت عشائرها عن على الانخراط في نظام الجديد وتقرَّبتْ
شيئاً فشيئاً من الوحدة
وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمة المدينة مكة على
رأس جماعة من الحجاج . فكانت هذه آخر زيارات النبي
مكة وسميت حجة الوداع . وتوفي بعد ثلاثة اشهر من رجوعه

أصيب في المدينة بمرض وشكا صداعاً في الرأس شديداً توفي على أثره في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي العهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة . وكانت فيها فصلا عن الشرائع الدينية وفروض الصوم والصلاة وواجبات الجماعة الإسلامية تبحث مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد وأسرى الحرب والأعداء . وقد أوصى القرآن بالصدق والسلم وبالمساكين والبائس والمحروم . أليس محمد إذاً الرسول الذي يقدم الدواء ؟

وعاش محمد حتى في أيام عزته ومجده حياة بسيطة عادية لا تكلف فيها ولا تفاخر . كان طوال حياته شديد الزهد في اللذة ، فسكن بيتاً من الطوب حقيراً لا يختلف عن بيوت الفقراء التي يشهدها المرء في الجزيرة وسوريا ، وأمامه صحن عربي وليس له إلا مدخل واحد من صحن الدار يفضي إلى الغرفة . وكثيراً ما شهده الناس يرقع ثيابه بيديه ويرقع نعله . وكان يشاطر الناس حياتهم العامة ولا يرد أحداً من أصحابه صغيراً كان أم كبيراً . ويقول أحد المستشرقين الإنكليز إن أعمال محمد اليومية صغيرة كانت أم كبيرة تركت أبعد الأثر في النفوس حتى أصبحت قدوة يقتدي بها المسلمون إلى يومنا الحاضر . ولم يقم في التاريخ البشري فرد عمّر قومه . تتوجه الأسباب التي فقدوا محمداً بسببها التي قدمها لهم ترع محمد محمداً .

ولم يترك محمد إلا ثروة زهيدة عادت إلى بيت المال . ولقد تزوج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجهن بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منها بدافع سياسي أو اجتماعي . وكان منه

أي عائشة بنت أبي بكر [illegible] في أزواجه وقد ولدت له
خديجة عدة بنين وبنات [illegible] ولم يبق من [illegible] إلا [illegible]
زوج علي [illegible] موت ابنه إبراهيم من مارية القبطية فقد ترك
لوعة أليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من [illegible] أمة
الإسلام [illegible] وكانت هذه الجماعة [illegible]
في [illegible] دولة الإسلام الواسعة وفي الواقع كانت هذه أول محاولة
في تاريخ الجزيرة [illegible] على رابطة الدين [illegible]
الاجتماعية لا [illegible] العصبية [illegible] كما كانت الحال في
الماضي [illegible]
[illegible] على [illegible] الأرض [illegible] في
[illegible] الأخير في [illegible]
[illegible]
[illegible] من الحكم كما [illegible]
[illegible] في [illegible] وعلى هذا [illegible] في [illegible]
[illegible] وكان [illegible] هذا
[illegible] . وقد أكدت [illegible] التي في [illegible]
[illegible] في [illegible] و [illegible]
أن كل [illegible] ولا [illegible]
من [illegible] إلا [illegible] ولا [illegible] »

وهكذا [illegible] الإسلام [illegible] واحدة على رابطة العصبية القوية
في [illegible] رابطة جديدة هي رابطة [illegible]

الجامعة الإسلامية ولا تكون [illegible] دينية ذات [illegible]
وأرستقراطية [illegible]. وأصبح المسجد فضلاً عن كونه بيت العبادة
منتدى المؤمنين ودار ندوتهم تلقى فيه الخطب وتجري البحوث
والمباحثات وساحة للتدريب العسكري. وصار الإمام يقود
المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمهم في الصلاة. وفرض على
المسلمين [illegible] والأخذ بشرعة العلم [illegible] الحرب [illegible]
الأخلاق الحميدة [illegible] الجامعة الروحية [illegible] الإسلام ما
قبله. وفي [illegible] وحدة جزيرة العرب [illegible] وكان [illegible]
السماء [illegible] على [illegible] العربي. وكذلك [illegible] الإسلام
[illegible] الذي كانت [illegible] الجزيرة [illegible]

ومن [illegible] حكم الإسلامي في كافة أطراف الجزيرة
ليشمل [illegible] العربية و [illegible] الشمالية [illegible]
[illegible] في [illegible] مثلاً مصر [illegible] الجامعة الإسلامية
معاً. ولقد [illegible] لمحمد في [illegible] عشر [illegible]
[illegible] في [illegible] من [illegible] في
بلاد لم يكن [illegible] إلا [illegible]
فانتشرت [illegible] أقطار [illegible] كل [illegible] اليهودية
والنصرانية. وفضلاً عن ذلك فقد [illegible] وضع محمد حجر الأساس
لإمبراطورية [illegible] فصلى [illegible]
يومئذ. واليوم يدين جزء كبير من [illegible] بالإسلام [illegible] معالم
هذا الرجل الأمي الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال
[illegible] العصور [illegible] في علم والحكمة والدين.

القرآن والإيمان

ليس غريباً أن ترى في [illegible] مصحفاً ورقة من الارض فيودعونه [illegible] مكاناً في [illegible] خشية ان يكون في [illegible] ذكر الله او آية من القرآن فيدوسها [illegible] واسم [illegible] القرآن كتاب الله [illegible] مشرفاً وتقديساً [illegible] لكونه انه الى املاها [illegible] على محمد [illegible] (لا يمسه الا المطهرون [illegible] سورة الواقعة)

ومع ان في [illegible] من [illegible] في عدد [illegible] القول بأن القرآن هو الكتاب الذي قرأه الناس [illegible] فانه ليس كتاباً [illegible] هو كتاب درس واطلاع [illegible] كل مسلم [illegible] في علم اللغة العربية وليس للقرآن ترجمة [illegible] في لغة حسنة [illegible] الترجمة التركية ولكنه [illegible] واول ترجمة للقرآن الى

لغة اجنبية كانت في اللغة اللاتينية، وقام بها في القرن الثاني عشر بطرس كلوني الملقب بالمبجل. وقد رمى بهذه الترجمة الى دحض العقائد الاسلامية وتكذيب الرسول. أما أول ترجمة انكليزية فقد ظهرت عام ١٦٤٩، وقام بها الكسندر روس معتمدا على النسخة الفرنسية ووضع لها الاسم (قرآن محمد). وهي ترجمة انكليزية حديثة وضعت ارضاء لرغبات من يريد الاطلاع على نصوص [illegible].

وليس تجد في القرآن [illegible] كثيرة ونقاط الاختلاف في القراءة كما هي الحال في بعض التوراة الانجيلية. ولقد كان المسلمون في البدء يحفظون سوره وآياته عن ظهر قلب، حتى اذا خشي القراء الحفاظ ضياع الحروف شيئا فشيئا. وقد [illegible] جمع المصحف من قطع الجلد [illegible] جمع عثمان وهو خير نسخة (الصحف) والواح اللخاف [illegible] الرقعة ومن صدور الرجال. فجمع نسخة [illegible] وقوبلت [illegible] نسخة [illegible] اصل القرآن الرسمي كاملا. وكان ذلك في زمن عثمان بعد موت النبي بخمسة عشر عاما. وما زالت هذه النسخة هي النسخة [illegible] فلا يجوز الحذف منه ولا الزيادة فيه [illegible] حرف [illegible] [illegible].

ولقد احصيت آيات القرآن فكانت ٦،٢٣٦ آية، واحصيت كلماته فكانت ٧٧،٩٣٤ كلمة، واحصيت كذلك حروفه فكانت ٣٢٣،٦٢١ حرفا. والقرآن هو اساس الاسلام والهادي الى احكامه، وهو فضلا عن ذلك موجز علمي ومبحث [illegible] [illegible] مجموعة قوانين وشرائع تدبير شؤون مملكة على هذه الارض.

ومن يتصفح القرآن يجد معظم ما تحتويه التوراة من حوادث مرتبة امثلة توريه في السور. ومن رجال العهد القديم الذين ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم (وورد ذكره سبعين مرة) واسماعيل ولوط ويوسف وموسى (وورد ذكره في ٣٤ سورة) وشاؤول وداود وسليمان وايليا وايوب ويونس ويونس. وقد ورد ذكر قصة خليقة وسقوط آدم خمس مرات وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات، وقلب قصة سدوم. والقرآن لا يذكر شيئاً من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى يوحنا المعمدان وعيسى ومريم. والآيات التي وردت فيها عبارات كهذه «والعين بالعين» و«الحق في ذمة الخطأة» و«الأمس ليس ... على حرف هاري» و«كل نفس ذائقة الموت» فلعلها من الامثال السائرة قديماً او اقوال مشتركة بين العبرانيين والعرب فهي واردة في العهدين القديم والجديد. اما القصص التي تنسب في القرآن الى عيسى كالعجائب التي اتاها وكلامه الناس في المهد (آل عمران، والمائدة، ومريم) وعن القصة كهنة الطير (آل عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرها فقط في الانجيل الابوكريفي غير معترف به كانجيل الطفولة.

والدين الاسلامي اقرب في الموعظة الشفهية على العهد القديم منه الى النصرانية والعهد الجديد. ومع ذلك فعدوه من النصرانية كان شديداً بحيث جعله الدين في اول عهده بدعة نصرانية جديدة لا ديناً مستقلاً ومن هؤلاء دانتي في روايته «الكوميديا الالهية».

ومن ينظر في القرآن يجد ان ترتيب سوره جرى على أساس

الطول والقصر . فسور المكية وهي نحو سبعين ترجع الى عهد الجهاد في حياة النبي . وهي سور ذات فقرات قصيرة موجزة جامعة ذات اسلوب ثوري ، مفعمة بحماسة النبوة ، ومحورها الدلالة على وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبية والحساب الاخير .

اما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد النصر فهي اربع وعشرون وتبلغ نحو ثلث مجموعات القرآن . وهي تتوسع مفصلة عملية تدوين الشريعة ، وفيها وردت العقائد الدينية واحكام الصلاة والصوم والحج والاشهر الحرم . وفيها الشرائع بتحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر واحكام سفر الدين والحرب وفروض الزكاة والجهاد وقوانين مدنية وجزائية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنى والميراث وتحرير العبيد . اما احكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها في الغرب فهي في الواقع محدِّدة عدد الزوجات ومقيدة ما كان قبله . وبعقيدة الغربيين يحسبون احكام الطلاق اشد الاحكام استنكاراً ، والشرائع التي تحمي الضعيف كالعبد واليتيم والغريب اكثرها رفقاً ورأفة . ولقد علّم القرآن ان عتق العبد عملاً يرضي الله من الانسان كفّارة عن ذنوبه .

والقرآن كتاب حي فعال له تأثير عميق في النفوس وخصوصاً اذا تلي بترتيل بلغته الاصلية . وبعض تأثيره في النفس راجع الى ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والانغام . ومن العسير أو المستحيل ان يستطيع مترجم نقل هذه المميزات في اسلوب انشائي رائع الى لغة اجنبية . وليس

القرآن كتاباً صحيح فصوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهد الجديد باللغة العربية . اما تأثير القرآن الادبي في الاسلام وسلطته الحازمة في الشؤون الروحية والادبيـــة فناحية أخرى من نواحي عظمته . والمسلمون الذين يبحثـــون عن الدين والفقه والعلوم الاخرى وجوه معرفة لموضوع واحد يجدون القرآن واجب تحديثهم من كافة النواحي ومن هنا كان عندهم كتاباً مدرسياً يجد من واجبه كل طالب للعلم الحر . وما يزال القرآن في الأزهر ، وهو اعظم جامعة اسلاميـــة في العالم ، اساس منهج الدراسة والتعليم . وللقرآن فضل كبير على الادب في صيانة اللغة العربية ، فلولاه لأصبحت لهجات متعددة لغات مستقلة كما جرى للغات الرومانية التي كانت في اول عهدها لهجات من اللغـــة اللاتينية ، فبينما يلقى العراقي اليوم صعوبة في فهم لغـــة المراكشي العامية فإنه لا يعاني جهداً في ادراك لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة العربية المكتوبة سواء كانت في العراق ام مراكش ام سوريا والجزيرة ومصر ام في غيرها من الاقطار العربية الاخرى هي لغة نسجت على منوال القرآن النموذج سبح عليه الكتاب . ولم يكن في اللغـــة العربية من قبله كتاب نثري على الاطلاق . ومن هنا كان القرآن في السابق ، ولا يزال الى يومنا هذا ، المثل الاعلى للاسلوب النثري الرشيق . وليس من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنها غيـــر شعرية والكتاب المخصوصون يجدون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

ونثير لغة ، في اصول الدين الاسلامي بين الالهيات والعبادات .

أما الإيمان فهو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأول عقائد الإيمان والإسلام أنه لا إله إلا الله، وأنه هو المهيمن على كل شيء. والواقع أن محور البحث في أمثلة من أصول الدين الإسلامي يدور حول فكرة واحدة، فهو الإله الحق والحقيقة السامية، الكائن منذ الأزل والخالق العليم القدير والحي القيوم. وله من الأسماء الحسنى تسعة وتسعون وما شابه هذا العدد من الصفات. وليس هذا هو السبب في أن صفاته أسمى مما عرف من سبع وسعة جبروته. وتغلب صفات العزة والجلال في الله على صفات الرحمة [illegible] والإسلام [illegible] كانت كلمة [illegible] التي حدثت في دعوة ابراهيم، حتى أن [illegible] هي الأصل في تسمية هذا الدين بالإسلام. ويقوى ما في الإسلام من [illegible] من سلطة الإله واتساع سلطته أنه الحق، هو فكرة التوحيد الجوهرية. وهذا نرى الشيعة يسمون شيعتهم والإسلام لا يميل بهم إلى اتباع الأديان الأخرى. ويسمى هذا بعدم الاستعداد عندهم.

والعقيدة الثانية في الإيمان هي أن محمداً رسول الله وعبده، ومدير قومه، وخاتم سلسلة طويلة من الأنبياء، وهذا فهو أعظمهم وليس محمد إلا بشراً في نظر الإثبات القرآني. والمعجزة الوحيدة التي جاءت عن محمد كانت إعجاز القرآن. إلا أن العقائد والأساطير التي راجت بين العامة قدمت الرسول هالة من نور الإلهي. والدين الإسلامي دين عملي ليس فيه ما يصعب إدراكه، ويكاد يكون خلواً من التعقيد والالتباس وليس فيه شيء مما

قبل الاسرار وغيره مقدسة ، والرتب الكهونية ، او فروض العماد والمسح والتكريس ، و « خلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » ، وكل اقتباس منه نسبي « قبل عدى » . وكل ما فيه من تركيب لفظي او معنوي نسخة طبق الاصل عن ام الكتاب اي اللوح المحفوظ في السماء السابعة . ولما كانت هناك معجزات فالقرآن اعظمها ، ولو ان الانس والجن اجتمعوا لما استطاعوا ان يأتوا بمثله .

ويجمع الدين الاسلامي جبريل في مقدمة ملائكته فهو حامل الوحي ، والروح القدس ، والروح الامين .

والخمسة اركانه او فرائضه . واولها التوحيد الذي لا يغفر الله من خطيئة شرك ، « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك » سورة النساء . والمرجح ان ما كان يعنيه محمد هو ان يجعلوا لله شركاء ، وهكذا ولت السور المقدسة وهي ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بسوء المنقلب . والراجح ان محمداً لم يشمل اهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع ان بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد اقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تعنى عناية خاصة بموضوع حقيقة الآخرة ، ففيه اشارات متتالية الى « يوم الدين » و « يوم البعث » و « القيامة » و « الساعة » و « الحاقة » . والآخرة التي صورها القرآن بما فيها من عذاب وملذات جسدية تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

أما العبادات في الإسلام فتقوم على خمسة أركان : أولها الشهادة وتتلخص في العبارة الموجزة التالية : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وهذه أول عبارة تطرق أذن الطفل المولود في حضن الإسلام ، وهي آخر ما تقال على الجسد . والمسلم لا يسمع بين مرحلتي الولادة والموت عبارة تتكرر أكثر من هذه . وهي تردد في دعوة المؤذن للصلاة فتدوي خمس مرات كل يوم من على رؤوس المآذن . وقد اكتفى الإسلام ، على العموم ، بهذه الشهادة البسيطة ، فهي لب [illegible] .

ويأتي بعد هذه الأركان الصلاة التي يجب على المسلم الحق أن يؤديها خمس مرات في اليوم ، موليًا وجهه شطر مكة ، وذلك عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والحق أن العالم الإسلامي في ساعات الصلاة تربطه حلقات من الصفوف الواحدة ضمن الأخرى ، وكلها مركز حول نقطة واحدة هي الكعبة . وآخر هذه الحلقات تمتد من سيرا ليوني في الغرب الى كانتون في الشرق ، ومن توبولسك في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

والصلاة المفروضة كما يحددها الشرع يجب أن تؤدى باتجاه نحو القبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى العابد أن يقوم بها وهو في حالة طهارة ، وأن يؤديها باللغة العربية مهما كانت لغته القومية . وهذه الصلاة شكلية ذات صفة [illegible] ، وهي تقوم على الأكثر من ذكر عبارات كثيرة تقوم على التوسّل والتضرّع . والفاتحة على نحو خاص بليغة المعنى ، ويشبّهها بعضهم بالصلاة الربانية

عند العسكري، والمسلم يردده نحو عشرين مرة في اليوم. فهي أكثر الصلوات المعروفة في الدنيا ترديداً. أما الصلاة التي يقوم بها العبد احتراماً لله القادر المجيد، فهي في نظر الله تعالى تستحق التقدير المزدوج.

وصلاة الظهر من كل يوم جمعة هي صلاة الوحدة العمومية وواجبة على كل ذكر بالغ عاقل. وبعض الجوامع تضيق حتى تضيق بمصليها. وفي صلاة الجمعة يدعو الإمام للخليفة ويرشد الأمة. وليس من شكل للصلاة العمومية يفوق صلاة الجمعة جلالاً وبساطة وخشوعاً. ومن غير الممكن عندما ترى العابدين مصطفين في المسجد أثناء الصلاة في صفوف منتظمة يسجدون خلف الإمام بهدوء وخشوع، ومما لا ريب فيه أن هذه الصلاة العمومية كانت أكبر عامل ديني في توحيد صفوف المسلمين من حيث التأثير في النفوس المتكبرة لأنها تشيع روح الأخوة. وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية وسمو الوحدة وقوت فيهم الحس الديني الذي بشر به محمد، وأصبح المؤمنون كتلاً من رجال يشد بعضهم بعضاً بالعمومية. وهكذا أصبحت فريضة الصلاة بمثابة أولى في التدريب العسكري.

وثالث هذه الأركان الزكاة. وقد كانت في الأصل عملاً اختيارياً تقتضيه مبادئ الخير والإحسان إلى ذوي الحاجة لكنها ما عتمت أن أصبحت فرضاً على المقتدرين فيه المال والقمح والحبوب والأثمار والماشية. وقد عهدت الدولة الإسلامية الفتية جباية الزكاة إلى عمال في مختلف الولايات وتولى بيت المال

إدارتها منذ نظّمت الدولة وظيفة العشّار وجباة الخراج ، ومنذ الذي تقوم عليه الزكاة تقرب من مبدأ العشر الذي كان العرب الجنوبيون يؤدّونه لآلهتهم قبل أن تجمع لهم مع أصنامهم . ولقد اختلف مقدار الزكاة على مرّ الأيام ، ولكنه كان على وجه العموم الذي وضع في نشأته ، ولم تخل من هذا روح القواعد في الجملة . وبعد تفكك الدولة الإسلامية رجعت الزكاة إلى مبدئها الأصلي لتترك على الوجدان .

ورابع هذه الأركان صوم رمضان . ومع أن كلمة الصوم قد وردت في القرآن عدة مرات فصوم رمضان لم تأت ذكره إلا مرة واحدة . ويحتّم الامتناع فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس . وقد عرفت حوادث استثنائية فيها الحكومات واضطرت في بلاد الإسلامية العنف مع المسلم غير الصائم . وليس المعتقد أن العرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم ، إلا أن هذه العادة كانت مزعمة عند اليهود والنصارى في أوائل عهدهم .

أما الحجّ فهو الركن الخامس والأخير ، وهو فرض موجب على كلّ مسلم ومسلمة زيارة البيت الحرام مرة واحدة في العمر في وقت معين من السنة ، إذا استطاعا إلى ذلك سبيلا . وعلى الحاج أن يكون في حالة الطهارة الرمزية أي يلبس إزارا ، وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط ، وأن يراعي علاوة على المحظورات المفروضة في صوم رمضان ، كعدم الخدع (أنظمة خاصة تحرّم إهراق الدماء والصيد وقلع النباتات . والحج إلى الأماكن المقدسة

كان لهذه السمة قديمة ظاهرة آثارها في التوراة

وجماعات الحجاج من الشمال والجنوب والغرب تزداد عدداً بمواصلة الرحلة وهي تجتاز أواسط افريقيا متجهة شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الأقدام وغيرهم يركب الابل . ومنهم من يموت على الأغلب في طريقه وغيرهم يعتقد الاستشهاد . وكثير من الحجاج يموتون غرقى في دوامة الحريق فيعدون شهداء . أما الذين يحجون بواخرهم فيسعون في أثناء الحجة بمراقي البحر الأحمر العربية . ومنه يتقدمون بمواكب الى البقاع المقدسة على أن موكب الحج الأربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسوريا ومصر . وقد كان كل من هذه المواكب في مضى يرسل كل عام على رأس قافلة محمل يحمل الى مرادي مكانه . والمحمل مغطى بنسيج من الحرير والقماش والبروكار يحمل على جمل عند العيد دون أن يركبه أحد . ولكن في الأعوام الأخيرة [illegible] وأبطلت المحامل القديمة الا المحمل المصري

ولقد بلغ متوسط عدد الحجاج السنوي بعد الحرب العالمية الأولى ١٧٢٠٠٠ حاجاً . وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الاحصاء التركي ٢٨٠٠٠٠ حاج . وبمقتضى ذلك يبلغ أكثر عدد من الحجاج في كل عام ويبلغ نحو ٣٠٠٠٠٠ حاج . ويعد الحج على كل مسلم أكثر عمل موحد في الاسلام ، وأقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو الذي جعل من كل مسلم قادر رحالة ولو مرة في عمره . والجماعات كهذه هي أكثر اجتماعي فعال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من أقصى المعمورة الأربعة . ويختلط [illegible] العربي والبربر

و[illegible] والعرب والسوريين و[illegible] و[illegible] الفقير [illegible]
والغني والرفيع والوضيع [illegible] أن يجتمعوا [illegible] على [illegible] لا [illegible]
المشترك [illegible] وحتى ان الاسلام [illegible] أكثر من [illegible]
[illegible] على فوارق [illegible]
ولا شك في ان الاجتماع في موسم [illegible] له فضل الأكبر في
تحقيق هذه [illegible] . وعلاوة على ذلك [illegible]
لنشر الدعوة والافكار [illegible]
[illegible] لا [illegible]
[illegible] .

وهناك فرض آخر [illegible]
الاسلامية [illegible] وهو [illegible] في [illegible]
الاسلام [illegible] لا [illegible] ومن واجبات
الخليفة الرئيسية ان [illegible] عملا في [illegible] الاسلام
[illegible] في [illegible]
[illegible] العالم الاسلامي [illegible]
[illegible] . ولذلك كان
[illegible] الاسلامي [illegible] وذلك في
[illegible] سنة ١٩١٤ [illegible] .

سير الإسلام

إن أهم حادثين في أوائل العصور الوسطى كانت هجرة الغوطيين التي سببت انحلال الأمبراطورية الرومانية ثم الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان الامبراطورية البيزنطية. ولو فكر أحدهم في البداوة في أوائل القرن السابع المسيحي بظهور قوة سوف تظهر تقوم في كاهل الجزيرة العربية التي لم يكن بها إلا سكان رعويين ويدفع بعضهم على الدولتين العظمتين الوحيدتين في ذلك العصر فتحل محل الواحدة مستعمرة ـ وتجرد الاخرى المريضة من غنى ولاياتها. أقول لو فكر أحد على مثل هذه النبوءة لعده الناس مجنوناً. وقد حدث هذا عينه. إذ بعد وفاة النبي العربي تحولت الجزيرة من دار عقر إلى حركة وثوب، فخرجت القبائل من مضاربهم في العالم. فحملات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق والشام ومصر

تعدّ من أروع الحملات و[illegible] في تاريخ الحروب و[illegible]
حملات نابليون و[illegible] والإسكندر.

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم عوامل عديدة. فالحروب المتواصلة
بين البيزنطيين والفرس التي [illegible]
وأضعفت قواهما. والضرائب [illegible] عن هذه الحروب
المفروضة على رعايا الدولتين، [illegible] من ولائهم [illegible]
بعض القبائل العربية [illegible] والعراق، والانشقاق في الكنيسة
المسيحية، واضطهاد الكنيسة [illegible] كل هذه
مهّدت السبيل [illegible]. وقد رحّب سكان البلاد [illegible]
في سورية وفلسطين والأقباط في مصر [illegible] العرب
[illegible] من حكامهم [illegible] وفضلاً عن ذلك [illegible]
[illegible] كانت [illegible] في [illegible]
المسلمون [illegible] على [illegible] أوسع [illegible]
أكبر. وهكذا [illegible] الشرق [illegible] من [illegible] العصور [illegible]
[illegible] للغرب الأوروبي [illegible] ولا غرو فقد
كان العرب [illegible] روح [illegible]
والانتصار، [illegible] الجهاد.

ويرجع [illegible] العرب [illegible] إلى استخدامهم
[illegible] عربي [illegible] وإلى اعتمادهم على
[illegible] الرومان. وكان الجيش العربي
[illegible] إلى فرق خمس هي [illegible]، والقلب، والميمنة، والميسرة،
والساقة. [illegible] وكان [illegible]

على أساس الوحدة القبلية، وكان لكل قبيلة علم يرفعه، وهو عبارة عن نسيج مربوع على قناة يحمله أشجعهم، أما شعار النبي فكان العقاب. وكان المقاتلة يستعملون القوس والنشاب والمقلاع والحربة والسيف والترس، وكانوا يحملون السيوف في أغماد معلقة على الكتف اليسرى، أما الحربة التي تصنع من خشب فكان طولها ستة أذرع، وكان سلاح الفارس الرئيسي الرمح، وهو مع القوس والنشاب قوام السلاح العربي، أما عدة الدفاع فهي [illegible] الترس الذي كان أخف من ترس الفرس.

وكان العرب يقاتلون تحت [illegible] من الصفوف في ترتيب متراص، وكانت المعركة تبتدئ بالمبارزة بين الأبطال الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الصف ويتحدون الخصم للنزال، وكان عدد [illegible] يزيد على عشرات [illegible] أو المرتزقة، [illegible] إنه كان [illegible] من القبيلة [illegible] الخوذة [illegible] في [illegible] الله وأشرفه [illegible] وخصوصاً أن قوة الجيش العربي لم تقم على تفوق سلاحه وحسن تنظيمه، بل على قوة معنوية كبيرة تستمد من الدين، وعلى الحماسة [illegible] التي اتصف بها في صحرائه، وعلى سرعة حركته [illegible] في وسائل النقل.

وتكاد المراجع العربية تخلو من ذكر الحركة الإسلامية كحركة قومية [illegible] لا عربية محضة [illegible] ومن جهة أخرى يزعم بعض المؤرخين أن [illegible] والسبب في ذلك [illegible] الواقع هو أن المسلمين عرفوا جميع ذلك وخصوصاً [illegible] وهو الحرب [illegible]

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» سورة التوبة .

وليس من شك في [illegible] الاسلام [illegible] شعور جديد [illegible] حوله [illegible] من [illegible] كان [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] كانت [illegible] [illegible] كانت [illegible] من [illegible] في [illegible] على [illegible] من كان [illegible] كان [illegible] [illegible] على [illegible] كان [illegible] [illegible] الاسلامي [illegible] كان [illegible] من [illegible] من الصحراء الجدبة الى [illegible] [illegible] كبرى .

[illegible] وكان [illegible] على [illegible] من [illegible] وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر . على [illegible] الى [illegible] الاسلامية [illegible] في [illegible] مرسومة [illegible]

كانت مبنية على غزوات مقدّر لها أن تروح ضحية للعنف الذي حرّم الاسلام توجيهه بين القبائل المسلمة المتحدة . وعقب الاولى المسلمة لا انفتح الداخل والاستعمار . بعد انه بفضل الاسلام أصبحت هذه الحركة من بدء أصحابها وازدادت قوة وشدة بالظفر بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار . وعندئذ بدأت الحملات المنظمة ، وأصبحت تسمى الدولة العربية صبغة محمدية . وهذا يرى العرب أن هذه الدولة كانت صبغة محمدية تجري الحوادث لا الخطة والتدبير

— ق

وبفضل الذي فتح الاسلامي عدد كبير من العرب في العهد القديم وهذه أن روح التسامح في العصور الوسطى وهو فضلا عن ذلك يستند الى عنصر لغوي اثنوغرافي خاص . فمعظم الاسلام يشكل أساسه من ثلاثة : الدين وثانيها الدولة وثالثها الثقافة . فالاسلام كدين يختلف عن اليهودية والنصرانية القديمة ، ويتفق مع النصرانية في كونه دينا تبشيريا . والاسلام كدولة هو الذي فتح الأقاليم الشاسعة . فالفتوحات أدت الى تأسيس الدولة لا الدين ، وخروج العرب من جزيرتهم وفتحهم البلاد كان في الدرجة الأولى فوزا للعروبة . ولم يدخل السواد الأعظم من أهل سوريا والعراق وفارس في دين الاسلام حتى القرن الثاني والثالث للهجرة . وكان يحرص في الأصل الخلفاء كي لا يدخلوا الجزية ولتصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة من الاسلام . كثقافة ، فقد تطوّر تدريجيا بعد الفتح على أساس حضارات

التي [illegible] ، [illegible] بالعودة إلى سقفه . وهكذا لم يستطع
الشرق الأدنى الإسلامي مسكه السياسي أو يعمل على استعادة
أحياناً ثقافته السابقة الرفيعة .

ومن أن يدقق العرب من حروبهم ويحلوا بلاداً أخرى كان
من عليهم أن ينظروا في شؤون أنفسهم ، وأن يجيبوا في حل
مشكلة معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان الرسول وهو في قيد الحياة وصف عدة ، كان هو النبي
والمشرع والإمام والقاضي وأمير الجيش ورئيس الدولة المدني
ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على وضع النبي شغله
مستفاد بوظيفته الروحية التي لا يستطيع أحد أن يخلفه فيها ،
ووظيفته حاكم الزمن والسياسة .

مات الرسول عن ابنة واحدة هي فاطمة زوج علي .. دون أن
يعقب ذكوراً . والشيعة العربية تعتقد بأن النبي وأنه من نسله
استخلفه على أساس الأقدمية في النسب ، ومن هنا جاز أن نفترض
أنه لو أنجب النبي ابناً لعُرضت مشكلة الخلافة دون حل . ثم
إن النبي لم يعيّن خليفته بشكل واضح . والخلافة إذاً أقدم مشكلة
في الإسلام ولا تزال تلحّ إلى اليوم حتى آذار سنة ١٩٢٤
حين ألغى الأتراك الكماليون الخليفة عبد المجيد الثاني وألغوا الخلافة
العثمانية وكان قد مضى سنة وعشر شهر من تقويضهم للسلطنة . ومنذ
ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات إسلامية في القاهرة ومكة للبحث
في أمر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني
عندما قال : وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما سُلّ في

الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سار على الأمة في كل زمان .

وعلى أثر وفاة النبي حدثت انقسامات كما يحدث في أي جماعة يتداول الناس فيها شأن خلافة . فادعى المهاجرون المكيون أنهم أولى الناس بخلافة الرسول لأنهم أهل قبيلة النبي ولكونهم أول من صدق بدعوته . ومن جهة أخرى ادعى الأنصار المدنيون أنه لولا حمايتهم النبيّ والإسلام لهلك النبي وهلك الإسلام . غير أن العرب من جراء عدوة العرف ... صاحب النبي والعصبية ... كان أمر كل من ... الى ... العصبية وهو أساس ... وعلي من أقارب النبي ، وابن عمه ... وزوج ابنته فاطمة ، وأحد أسبق الناس في الإيمان بدعوته ، وهو الخليفة الشرعي في رأيه بعد ذلك معتقد آخر . وهكذا استند هؤلاء بحكمهم على حق الموصي الأمي لا على حق الصحبة والسابقة . وكانت هناك حزب آخر قوامه الأمويون من أشراف قريش الذين ... على زعامة السياسة والثروة في الجاهلية وقد تأخروا ... أو ... بالخلافة ، رغم كونهم آخر من اعتنق الإسلام من هذه الأحزاب .

ثم إن أول هذه الأحزاب فوزاً بالخلافة ، فقد بويع ... يقود المختبرون أبا بكر . وكان أبو بكر شيخاً مسناً ومن أول الذين صدقوا النبي وآمنوا بدعوته . وهو أبو عائشة ، إحدى أزواج النبي . ثم تبع أبا بكر في الخلافة عمر وعثمان وعلي . وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت حياة النبي ... وهدياً يحتذى بمثل أعلى ، ولا غرو ، فقد ... النبي ...

الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، ما عدا الحجاز ، ارتدت عن الإسلام على أثر وفاة النبي . أما الواقع فهو أن المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته [illegible] تتحرر على [illegible] تلك الجزيرة . وذلك لضعف المواصلات [illegible] هذه الدعوة [illegible] ، [illegible] الفترة الواقعة بين [illegible] ووفاة النبي [illegible] [illegible] حتى سنة [illegible] [illegible] ووفاة النبي . فالحروب [illegible] التي قام بها أبو بكر [illegible] لم يكن المقصود منها أكثرها رجوع المرتدين إلى حظيرة الإسلام [illegible] كان أكثرها حروباً [illegible] إلى إخضاع عرب غير المسلمين في حظيرته . وفي هذه الحروب أسفر خالد بن الوليد ، أظهر من براعة في القيادة ونبوغه في القتال [illegible] وبذلك توحدت الجزيرة تحت راية الإسلام ونهضت للزحف على [illegible] حدودها . وكان لا بد ولا مناص من أن يتسع [illegible] [illegible] الأخرى

وجاء دور [illegible] ، وكان [illegible] في بلاد الهلال الخصيب الذين ورثوها عن الروم . وكان قد استتب لهؤلاء من جيش الإسكندر الذي اكتسحها قبل [illegible] قرون تسعة [illegible] . وقد أدرك قواد البيزنطيين أن الغزاة من الجزيرة الذين [illegible] يعبرون الحدود ويوغلون إلى حد [illegible] عهدوه لم يكونوا غزاة عاديين كالذين عهدوهم من قبل . وما لبثوا أن اكتشفوا عدوهم هذا فيه نشاط جديد وإذا بيده سلاح جديد . وكان سلاحهم هذا سرعة حركتهم . فدخل العربي [illegible] عنصر جديد [illegible] في الحرب [illegible] سيف الله ، الأمر [illegible] الجيوش العربية

لبى خالد طلب أبي عبيدة فمضى مع نفر من فرسان المدربين لاختراق وادي طوى الصحراء من حدود العراق الى أن ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد حمل العرب معهم في القرب ماء واحات ظمئوا عطش الإبل [illegible] في بطون الرواحل . فكانوا يحرون هذه الرواحل ويشربون مخزونها [illegible] من ماء . وبعد أسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد أمام أبواب دمشق متقدماً رجاله لبدء غزوات العرب [illegible].

واستسلمت دمشق بعد حصار طال ستة أشهر وهي التي كانت رومانية [illegible] عدة قرون في العهد [illegible] ان تصبح فيما بعد عاصمة للدولة الأموية . أما الميدان الآخر فقد [illegible] العرب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] امبراطور الدولة البيزنطية [illegible] جيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل [illegible] فهزمهم خالد [illegible] ذلك [illegible] في وادي اليرموك ، احد روافد الاردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان يوم شديد الحرّ عصفت فيه أرياح [illegible] والرمال [illegible] كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر ان القادة العرب اختاروا هذا اليوم [illegible] لعرب هذه الحوادث الجوية وعرفوا كيف [illegible] في [illegible] البيزنطيون . فلما هجم أبناء الصحراء على البيزنطيين [illegible] عليهم [illegible] على الرغم من صلوات قسسهم [illegible] وجود الصلبان في صفوفهم . فقد انكسروا [illegible] . وهم [illegible] في [illegible] الجيوش العربية ،

فتسربت في سيرها حتى بلغت جبال طوروس ، وهي تخوم سورية الطبيعية في الشمال .

وقد أكسب هذا الفتح السريع ، على ما وصفه البلاذري ، الدولة الاسلامية الفتية هيبة ووقاراً في أعين الناس ، وزادها اعتداداً بنفسها وتمسكاً في هذا العالم ، حيث [illegible] حريتها [illegible] من [illegible] دون ذلك العصر . فأصبحت سورية [illegible] مركز [illegible] المسلمون الزحف منه الى أرمينية والى العراق وبلاد الكرج [illegible] آسيا الصغرى عدة مرات في السنين التي تلت .

وخالف القواد المسلمون [illegible] وجهوا الى الفرس واصطدموا [illegible] الساسانية [illegible] في سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهرّ جوه [illegible] كيوم موقعة اليرموك اشتبكت العرب مع الفرس ، [illegible] على الفرس [illegible] . و [illegible] سهول العراق [illegible] . وتابع المسلمون تقدمهم [illegible] على الرغم من [illegible] الربيع ، دون أن [illegible] أي [illegible] في [illegible] أهل العراق [illegible] كما [illegible] أهل سورية [illegible] العرب [illegible] ، ولأن الثقافة [illegible] متصلاً في [illegible] كسرى مع [illegible] الفرس من عاصمته

(١) [illegible] موقع القادسية في [illegible] .

المدائن دون دفاع . فدخل المسلمون اعظم عاصمة في غربي آسيا ظافرين . وقتل كسرى بيد احد رعيته طمعاً في جواهر تاجه فقضى اخر عاهل لامبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم يبق من تلك الامبراطورية شيء بعد عدة قرون من ذلك التاريخ

ولاول مرة واجه ابناء الصحراء حياة غمر الحضارة وتعجب ، من بهاء القصر الملكي وجلال ارجائه وقد حيرته البدعة ورونقه الفاخر ، كواخ لهم في الحربة جربت البدوي اول الامر وادهشته غير انه سرعان ما الف هذا كله تدريجاً ، فبدت منه في اثناء ذلك امور مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبيخ ، وسارع الى استبدال الذهب بالفضة بعد معرفته بالاولى وحبه بالثانية . ولم لاهم يدور اصبحت لسلعة سبب احد الاعراب التي كانت حصته من الغنيمة بألف درهم ليس غير احتاب لانه لا عرف عدداً فوق العشر مئة .

حتى اذا غزو العرب العراق وتوغلوا في فارس حاربوا مقاومة متزايدة . ولم تنته هذه الفتح الا بعد عشر سنين عرب ان كانت بلاد الفرس آمنة لا تسمع ، وكانت ذات سيادة وذات قوة حربية متصلة قاتلت الرومان طوال اربعة قرون . وسكنت عضت الاخير على امره وهكذا وجد العرب انفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣.

وفيما كان هذا النصر يتدرج في الشرق كانت موجة الاسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك ان العرب في بدء عهد توسعهم عبروا الى مصر بقيادة قائدهم الشهير ، لموقعها الحربي الخطير ، ومع قربها سوريه والحجاز ، ولكونها ممراً لافريقية الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها اهراء للقسطنطينية . ولان عاصمتها الاسكندرية

كانت قاعدة للاسطول البيزنطي حتى اذا كانت سنة ٦٣٩ نهض عمرو بن العاص بها ابتداء ، وفي نفسه الرغبة في سراياه خالد ، فاصطحب اربعة الالاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين الى مصر محاذيا الشاطئ ، وهي الطريق التي سلكها من قبل ابراهيم وقمبيز والاسكندر والصليبيون ونابليون المتقدمة وهي مدة ... وحول ... ، وهي الطريق العامة الرئيسة في العصور القديمة

وقد فتح عمرو الفرما وبلبيس بعد ... حصار شهر و ... انتصر ... بالقرب ... الله اكبر . وفي هذه الاثناء كان جيش بابليون وهو ... حصين ... قد سقط .

وتعقب جيش عمرو بالامدادات اللاحقة من الجزيرة فبلغ عشرين الف مقاتل وفتح عمرو بابليون وسرح جيشه نحو الاسكندرية ، عاصمة مصر واهم مرافئها ، المحصنة بالاسوار المنيعة والابراج . ومن جملة ما رآه عمرو اسوارها ابدع ما في معالم هيكل الاله سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى ، ومن جملة الاحجار كاتدرائية ... مرقس الخشبية التي كانت في معبد هيكل اغسطس المقدس ... التي بنتها كليوباترة . كما ان ... مصر والاسكندرية ... وامتدت في العرب ... من غرائب اسوان الاحمر والمعروفة بمسلتي كليوباترة ... والواقع ان مشيدهما تحتمس الثالث حوالي ١٤٥٠ ق . م . وهما الان ترى الواحدة منهما على ضفة التيمس في لندن والاخرى احدى الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف الحجر تحت طرف المسلة ... الذي كان يعكس شعاع الشمس في النهار ويشع

بدره في المن — وكان من عجائب الدنيا السبع

وكانت الاسكندرية عند محاصرتها مع الحصين لها يقصفها الاسطول البيزنطي وعدته في مينائها . اما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدداً وعدة ، ولا مراكب لهم ولا مجانيق ولا معين يؤمن حاجتهم الى الطعام .

ولكن بعد سنة دخل عمرو في مدينة [illegible] المشرق ومؤذاها [illegible] اني اصبت فيها اربعة آلاف منية واربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية [illegible] للملوك [illegible] عمرو رسول [illegible] صلاة شكر [illegible] في مسجد النبي .

ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيمته في [illegible] صبح العاصمة الجديدة [illegible] الفسطاط والتي لا تزال قائمة [illegible] الان في مصر العتيقة . وهناك شيد عمرو اول مسجد في مصر ، وهو مسجد بسيط رمم عدة مرات ولا يزال قائماً

ومن قصة احراق مكتبة الاسكندرية التي [illegible] الناس عن عمرو [illegible] الخليفة [illegible] عمر [illegible] الخليفة [illegible] حمامات الاسكندرية ستة اشهر [illegible] مكتبة . والواقع ان مكتبة البطالسة احرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م . وان مكتبة اخرى [illegible]

(١) جمع اتون : وهو موقد نار الحمام

والمكتبة الصغرى ، دُمّرت سنة ٣٨٩ م بمقتضى أمر أصدره
الامبراطور الروماني تيودوسيوس . وإذن لم يكن هناك مكتبة
يستحق الذكر عند الفتح العربي ولم يورد هذه القصة أحد من مؤرخي
ذلك الزمن . وأول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى
سنة ٦٢٩ هـ ١٢٣١ م ولا نعرف السبب الذي حداه إلى
اختلاقها . غير أن بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وزادوا
فيها حتى أن أكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الورق الذي لا
يحترق

ويستفاد مما أصبحنا نعرفه الآن عن أخلاق الفاتحين العرب أنهم لا
[illegible] رغبة منهم في نقد حفظ هذه
الكتب . ومن المؤكد أن أحداً لم يكن يحقق في صراحة بلاد بعيدة
العصر له هذا التصور الذي هذه

شبه جزيرة العرب
البحر الأبيض المتوسط
النفود
الربع الخالي
الأحقاف
خليج عدن

الخلافة

من الظواهر التي [illegible] فيه شعب في حسن [illegible]
يتغلب على شعب هذه ذي حضارة عريقة [illegible]
[illegible] هذه الحضارة و[illegible] في مدة قصيرة [illegible]
الى [illegible] ونحن نجد هذه الظاهرة [illegible] في فتوح العرب
الخارجين من الجزيرة .

[illegible] العرب [illegible] ملكوا هذه
مراكز الحضارة في العالم [illegible] عن [illegible]
من [illegible] والفلسفة و[illegible] والآداب وفن
الحكم [illegible] لديهم شيء [illegible] وكانت [illegible] للاقتباس
شديدة . وكان حبهم للاستطلاع عاملا دفع قومهم [illegible] الكاملة
في ان [illegible] قوى فعالة [illegible] احوالهم من [illegible] البداوة
[illegible] استطاعوا استثمار [illegible] الفكري والثقافي والسياسي

فمد وتكسعه لانه تقبيب . فمن المدائن ودمشق وبيت المقدس
والاسكندرية شهدوا عمل الثقافة والعلوم ونتائج تطورها
وسجلوا على سواه

ولم يكن واحد منهم يعرف ... في حياته او تراكيبا
الأسس او دراسات العلوم الانسانية ... مساهمة العرب
الأصيلة الخاصة في هذه الحضارة ... عظيمة ... الموحي
الدعوة . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من سكان
وحضارات ... طيلة عصور الخلافة في ... من رفع عروش
... وكان شعب في ذلك ... من ...
... حتى جمعوا ... عقل وروح و...
وحضارة ... الاسلامية في ...
... الخلافة وعثرت على ...
... العربي ولغتهم ... آخر ...
تقدمه لعربية في امثال الحضارة ... والاشوريون
والعبريون والآراميون والمصريون .

ويحق لنا ان نصف الرجال الذين احكموا ادارة العرب في
الاسلام حين نحاول تقويم خلافة ابي بكر الذي تولى امور المسلمين
من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ وخلافة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤
- ٦٤٤ . عاش ابو بكر ، وهو ... وموحد الجزيرة تحت راية
الاسلام ، حياة ... ... ابو ... وفي ستة اشهر
الاول من خلافته القصيرة كان ... كل يوم من السنح ...
... وزوجه حبيبة في ... ثم ... المدينة ... لم يكن

يتقاضى راتباً لأنه لم يكن لديه [illegible] حتى يستحق الذكر

وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي

[illegible] عمر . خليفة ثاني ، وكان رجلاً [illegible] مثقف ومتصف لا

[illegible] والاقتصاد [illegible] وكان طويلاً ضخم شديد

الأدمة [illegible] في [illegible] عهد خلافته [illegible] . وكانت

[illegible] شأن [illegible] على الأمة [illegible]

[illegible] الولايات الإسلامية [illegible] أرفع [illegible] في أوائل

الإسلام بعد النبي . وقد [illegible] عمر [illegible] وحده

[illegible]

[illegible] ولكن [illegible]

[illegible] وكان [illegible] على [illegible]

[illegible]

[illegible] الإسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] على الشرف والأخلاق [illegible]

[illegible] أمير المؤمنين [illegible]

[illegible] عمر [illegible]

[illegible] لا يدعون أمير المؤمنين وهو [illegible] [2]

حتى [illegible] في [illegible]

[illegible] عمر [illegible]

---

[1] [illegible]

[2] [illegible]

معاملة الرعية ... ولا ... [illegible] ... حتى ... [illegible]
حفظه حتى ... [illegible] ... حتى ... [illegible]
اخذت ... [illegible] ... وكنت ... لا يهدك الله ،
وكنت ... [illegible] ... على ... [illegible]
يستعدك ... [illegible] . هذا قول ... [illegible] .

وقتل عمر في اواخر سنة ... وهو يصلي في الجامع بطعنة خنجر مسموم سددها اليه ابو لؤلؤة ، وهو غلام فارسي . وخلفه عثمان ٦٤٤ – ٦٥٦ ، فجرت في ولايته فتوح ابواب واذربيجان وبعض ارمينية . وكان عثمان شيخاً ورعاً ... [illegible] ... عاجزاً عن الحكم في اطماع ذوي قرباه . وشق ... ذلك ، وخرجت ... على الخليفة ثلاثة من رجال قريش كان كل منهم ... [illegible] خلافة وهم علي وطلحة والزبير ... وفي الكوفة اصحاب علي ، ثم اشتد ... في مصر ... من ... [illegible] جماعة ثاروا الى المدينة يريدون عثمان ، فتسوروا ... فوجدوه وهو ... يقرأ في المصحف ... [illegible] ... محمد بن ابي بكر فقبض ... عثمان ... في لحيته ، ومن ثم ضربه احدهم ... [illegible] ... وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ .

ولما قتل عثمان بويع لعلي فانقسمت الدولة الاسلامية كل يومئذ وعلي هو ابن عم الرسول وزوج ابنته ... ووالد الحسن

(١) ... [illegible] ...

واحسان ، وهو ثاني من آمن بمحمد او ثالثه ، تحلى بصفات [illegible]
والتقوى والبسالة .

[illegible] مشكلة [illegible] كل [illegible] من [illegible] طلحة
و [illegible] زعيمي حزب المكيين [illegible] في الحجاز
والعراق الذين لم يعترفوا [illegible] عائشة ام المؤمنين
[illegible] الى المعارضة [illegible] كان من علي [illegible] القمع
[illegible] على [illegible] في ٩ كانون الاول
سنة ٦٥٦ [illegible] عائشة التي [illegible]
الثوار حولها كانت تمتطي جملا . وفي هذه الموقعة [illegible]
[illegible] والزبير ، [illegible] عائشة اسيرة [illegible]

[illegible] لا [illegible] في [illegible]
[illegible] الى [illegible] وتمنى [illegible]
[illegible] على [illegible] الى [illegible]
[illegible] ودمشق [illegible]
العراق والشام [illegible] في [illegible]

[illegible] على [illegible] علي [illegible]
العراق وهم [illegible] على [illegible] الشام [illegible]
[illegible] ذي [illegible] شديدة في
[illegible] وكاد [illegible] علي [illegible]
[illegible] علامة [illegible] حكم الله
لا [illegible] التحكيم [illegible]
[illegible] علي [illegible]

معاوية يوافق كلاهما على ارسال ممثل عنه في مؤتمر أذرح في جنوبي فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . ففي المصادر المختلفة روايات شتى . والرواية المتداولة تقول ان اتفاق الحكمين على خلع الرجلين وجعل الامر شورى بين المسلمين يختاروا لأنفسهم من شاؤوا . فتقدم ابو موسى فخلع عليا ومعاوية معاً ثم عمرو فخلع عليا وثبّت معاوية بعد ان خلع عليا . غير ان النقد الحديث يقول ان كلاً من الحكمين خلع صاحبه وهذا يعني في نهاية الامر ان الخليفة المعترف به . . . ولم يخسر معاوية شيئاً

ثم ان فريقا من اتباع علي ذهبوا الى انه ارتكب خطأ فادحاً في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسموا الخوارج ، فاصبحوا اشد اعدائه نقمة عليه . وكان منهم جماعة ارهقت ، فتغلب عليهم علي في وقعة النهروان عام ٦٥٩ م ، فكانت نكبة لهم . ولا يزال الى يومنا هذا من الخوارج يسمون بالأباضية في شمالي افريقيا وعُمان

وكان احد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل عليا في مسجد الكوفة في سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة بخنجر مسموم . وبذلك اصبح للخليفة الرابع عند الشيعة مقام . . . وهو مقام رفيع لا يسمو عليه الا مقام النبي ونبوته

ولعله يجب ان نحترس من خطأ وقع فيه الكثيرون وهو ان الخلافة وظيفة دينية ، والواقع ان . . . الامر صورية الرومانية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية . . . سواء

السنين فخضعت في الدرجة الاولى لمبدأ المنفعة عقب تدهور جيوش الإسلام . عندئذ [illegible] منصبه [illegible] حرفي . وهو في الوقت نفسه منح صاحبه حق التقدم في الصلاة وإلقاء الخطبة . ولكن هذا الحق شأنه [illegible] منصب الخلافة اذ اقتصرت على الناحية السياسية وحدها دون الناحية الروحية لأن صفة النبي الروحية [illegible] عن طريق رسالته وانتهت زعامته الدينية بموته ، وما كان لاحد ان يخلفه فيها وهو خاتم النبيين . ومهمة خليفته [illegible] في الا يخرج عن حدود شريعته فهو حامي حمى [illegible] الدين عليه منذ اول السلطنة ، فرض عليه [illegible] اهل البدع ولاخذ [illegible] ، [illegible] الاسلام [illegible] وحقق هذا كله استخدام الخليفة سلاحه الديني .

اما فكرة [illegible] الخلافة الشاملة [illegible] على جميع المسلمين في [illegible] حتى أواخر القرن الثامن عشر . وقد اكتسبت هذه الفكرة الدافعة [illegible] قوة [illegible] في [illegible] الدول الاوربية التي سيطرت يومئذ على معظم البلاد الاسلامية في آسيا وافريقيا . ثم [illegible] في أواخر القرن الماضي ظهرت حركة [illegible] الجامعة الإسلامية [illegible] ، [illegible] وحدة العالم [illegible] في [illegible] واحد لمقاومة الدول الغربية . واتجهت الأنظار نحو تركيا بصفتها مركز الخلافة . وتحكم جميع [illegible] هذه الحركة بفكرة الخلافة [illegible] الشاملة .

وبقي على [illegible] الأمر معاوية . وكانت [illegible] في أمية .

وفي خلافته اتخذ معاوية مدينة دمشق عاصمة جديدة . وأصبحت الخلافة
سلالية ترتكز على مبدأ وراثي لا على مبدأ انتخابي كما
كانت من قبل . ولقد عرفت ثلاث خلافات سلالية عربية في
المدة التي يشرف عليها هذا الكتاب ، وهي الأموية وقد ابتدأت سنة
٦٦١ كخلافة معاوية في دمشق ، وثم العباسية في بغداد من سنة
٧٥٠ الى ١٢٥٨ ، وثم الفاطمية وقد حكمت في أكثر هذه المدة
القاهرة من سنة ٩٠٩ الى ١١٧١ ، وهي سلالة الوحيدة العربية
التي ادعت أنها تتحدر من علي . وكانت هنالك سلالة أخرى ازدهرت
في الاندلس وهي فرع من الخلافة الأموية في قرطبة
ودامت من سنة ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وليس من شك في ان
للسنن والوراثة هذا في حق ... في
ان ... في تاريخ الاسلام ... خروب
الساحة . لذلك ... كان ... الاسم لا
يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي مدة حكم معاوية وقعت حركة أخرى كان لها شأن كبير في
الأحداث التي تلت ، اذ أيد أهل العراق الحسن بن علي الخليفة
الشرعي ... هذا ... أن الحسن كان أكبر أبناء
عليّ وفاطمة ابنة النبي الوحيدة ... ولكن الحسن
الذي كان ميالاً الى الترف ... في الحكم والادارة لم يكن
رجل الموقف . فتنازل عن الخلافة مكتفياً بمنحة سنوية منحه اياها
معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والأربعين والأرجح أنه مات
مسموماً . ... مقتله ... معاوية ، ... الحسن

شهيداً لا بل سيد الشهداء أجمعين.

وكان أخوه الحسين الذي آثر العزلة أحبّ نزول مدينة جدّه خلافة معاوية حتى إذا دعي إلى بيعة يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ أبى إباءً شديداً واتصل به أهل الكوفة الذين كانوا دعوه من عهد علي والحسن، وبعثوا الرسائل إليه حتى حملوه على النهوض، فخرج متوجهاً إلى الكوفة ومعه جماعة من أسرته ومن والاه. وأرسل عامل الأمويين على العراق جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل وأمّر عليهم عمر بن سعد، فوافى الحسين في كربلاء، وذلك في عاشر من محرّم سنة ٦١ هـ ، ١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠، وكان الحسين قد برز مع جماعته وتقدمهم مقاتلاً، وأبى الخضوع وأنف من الاستسلام فأحاط به رجال الأمويين من كل وجه ووضعوه حتى أثخنوه، ثم قتل سبط الرسول وسلبه شيعته. واحتُزّ رأسه وحُمل مع أهله إلى يزيد بدمشق، فأمر بردّ الرأس إلى أخت الحسين وأمه فدفن مع الجسد في كربلاء. وبقيت الشيعة تحيي ذكرى الحسين، تقيمه له كل سنة في العاشوراء، عاشر محرّم، أي مقتله، أندب واحتفال مراعاة في ذلك مقدمه من الرسول وعويله وآلامه وصبره.

وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الإدارة، فحوّل من الفوضى السائدة مجتمعاً إسلامياً منظماً، ووطّد أركان جيش منظم عرفه الإسلام، وأسس أول ديوان للسجل في الدولة الإسلامية، وسعى لإنشاء مصلحة للبريد عمد فيها على جمع أجزاء الدولة وربط بعضها ببعض.

ه في حكمه بسبب قربه معاوية حسنة من الخلفاء ،
ويذهب مؤرخو سيرته من العرب الى ان حلمه كان اشبه بصفة
لم يكن يستعمل الشدة إلا متى رأى استعمالها مجدياً ، اما في غير ذلك
وكان يحاول استرضاء مقاوميه ولو بالمال ... وكان اذا سد
الموقف ... عدوه من عداوته ، وأخمد مقاومته بلطفه ولينه .
وكان حب العظمة ... من شروط العظمة . ومن
اقواله الدالة على حنكته : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ،
ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس
شعرة ما انقطعت ... واذا ... »
وهناك كتاباً قيل إنه بعث به الى الحسن بن علي ... ولو علم
خلافة له ... اولى بهذا الامر ... ولو
... واحرص على ... وانك ... ،
... وفي ... الكتاب ... ان
... من اموال ... فكانت ...
ذكرناه ...

وقد ... كذلك ... ،
وحاول ... القسطنطينية ... وفي خلال امارته على
الشام في ايام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطة البحرية ،
ونصب ... في اول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام ، ذات
الصواري ، وهي معركة دموية ... ، ... في
آسيا الصغرى ، اما القسطنطينية ... سقط ، وبقيت في يد
البيزنطيين حتى ايام ... وعجز العرب عن ان يثبتوا اقدامهم

في قلب الصحراء ان لم يجدوا مصدقاً عند بيـــن . لذلك وجهوا
جهودهم الى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة على اقلها
وهكذا استأنف الاسلام في زحفه المعهود مسيرته الى الامام
والى العلاء .

امبراطورية
الخلفاء
البلغار
البحر الاسود
كليكية
قبرس
برقة
طرابلس
استوريس
قرطبة
المغرب
بلاد
النوبة
شبه جزيرة العرب
المدينة
مكة
حضرموت
عمان
مسقط
الخليج الفارسي
فارس
اصطخر
كرمان
خراسان

فتح الاندلس

انتهى الدور الاول من الفتوحات الاسلامية باستيلاء المسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر ، وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل امرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة الحيب شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف القدماء بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية . وتابعت تقدمها الى بلاد المغول الخارجية . وسقطت في ايدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شأن كبير في تاريخ الاسلام اللاحق . وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة الى درجة اضطرت الصينيين ان يخلدوا الى السكينة . ومن هذه الجهة توجهت فرقة الى الجنوب واجتازت البلاد المعروفة اليوم

بلوجستان . وفي عام ٧١٢ استولى على السند وسهل وادي الاندس وارض الملتان من السند . واتسع مدى الفتوحات الى أبعد في جنوب السحاب وهي وراء وادي نهر واعتبرت المقاطعات الهندية على الحدود الاسلامية ، ولا تزال عنده حتى اليوم وبذلك احتك الاسلام بثقافة جديدة هي الثقافة الهندية .

واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة اخرى بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ الى ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حصونها المنيعة دون مرور الاسطول العربي الى القرن الذهبي

على ان أروع الحملات الاسلامية وأوسعها مدى هي التي اتجهت غرباً . وكان العرب قد احتلوا افريقية الشمالية من قرطاجنة القديمة . وقد قاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من موالي الشام ، وقد كان من ابرز قواد الاسلام . وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر ينتمون الى الفرع الحامي من الجنس الابيض ، وارجح انهم والساميون من اصل واحد . وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ القديسون ترتليانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء الكنيسة الأولى . اما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية او البيزنطية في الشعوب الاصلية تأثيراً محسوساً لانها كانت اجنبية وغريبة عن عقلية اهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون

وثيق عرى الاتصال بشعوبهم الخمس. وكان الاسلام في اواسط آسيا عرّب الأقوام لغة وديناً كذلك فعل الآن في الاقوام البربرية. وهكذا اعتنق دم المسلمين فاتحين بامتزاجه بدماء جديدة وتبنى للغة العربية مجال واسع للانتشار. وتوحدت فيه الاسلام واحدث تدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة

وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يشبه الحملة العربية على بلاد الاسبان من حيث الجراءة وسرعة الانتصار واستجماع النصر. ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بغزوات فرقة الاستطلاع التي قادها طريف، والمؤلفة من اربعمئة من المشاة ومئة من الفرسان - كلهم بربر من جنود موسى بن نصير عامله في افريقيا -- الى شبه جزيرة صغيرة سميت طريفة باسم قائد الفرقة. وهي اقصى نقطة جنوبية من القارة الاوربية

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الامارة على افريقيا منذ سنة ٦٩٩ ان يجلي البيزنطيين عن الأراضي الواقعة غربي قرطاجنة. ثم تحولت طموحاته الى الاوقيانوس الاطلنطي توطئة لشن الغزو على اوربا. وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الاولى وما عرفه من التفسخ والاضطراب السائد بين اعضاء الاسرة القوطية الغربية الحاكمة. والحق ان اكبر دافع له كان الغنيمة لا الفتح فاوفد في عام ٧١١ الى الاندلس مولى له بربرياً كان قد اعتقه يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف رجل اكثرهم من البربر. فنزل بهم طارق الجبل الذي خلد اسمه فعرف منذ ذلك الحين بجبل طارق وجاز القناة المتسعة الى الاندلس، وعرضها ثلاثة عشر

مثلا ، في مراكب قدمها لهم [illegible] حتى أن قصته على هذه في
الروايات .

وبحسب طرق الأخبار ، وصل في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر ألف رجل بجيش لذريق عند مصب وادي [illegible] (او سالادو) . وكان لذريق قد جمع [illegible] من عبيده واغتصب عرشه فنشبت الحرب ، ودارت الدائرة على القوط ، وكان عددهم نحو من خمسة وعشرين ألفاً ، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا . اما جيش لذريق فلا يزال سراً غامضاً ، ويكتفي مؤرخو الاسبان والعرب بالقول إنه اختفى .

بعد هذا النصر الحاسم هجم العرب على مدن في اسبانيا ، فلم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط ، واتجه طارق وسواد جيشه الى عاصمة الاسبان طليطلة عن طريق استجه فاحتلها . وعهد بعد ذلك بحمايتها الى أهلها من اليهود . واتجه طارق بعد ذلك الى المدن المجاورة لكنه أعرض عنها بعد [illegible] في الحروب [illegible] واحتلت فرقة من الجيش قرطبة دون أي مقاومة . واحتلت فرقة ثانية البيرة وهي غرب المدينة [illegible] قرب غرناطة اليوم . وذهبت فرقة ثالثة من الفرسان الى [illegible] فحاصرتها مدة شهرين . ويقال ان الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين [illegible] حتى دلهم على ثغرة في سورها . أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجه ، وكان الظفر فيها للمسلمين . وهكذا اصبح طارق الذي فتح الاندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة [illegible] في آخر فصل

الصيف من هذه السنة ، وبات فتحي على تمكنه بسرعة .

وحسد موسى مولاه طارق على ما حققه من نصر عظيم ثم ركب موقفه ، فسرع في حزيران من سنة ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً الى المدن واحتلوا التي لم يفتحها طارق كمدينة شذونة وقرمونة . ثم اشبيلية اكبر مدن الاندلس وهي من اكبرها ملكاً ، وقد كانت عاصمة الرومان قبل مدة تقوم على " لانها قد صمدت محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧١٣ . وكانت اشد مقاومة واجهها موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فقد قاومت مدة ، ثم احتلت بعد ذلك في اول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى وطارق في مدينة او قرب ، ويروى ان موسى قد وبخ طارق وحبسه ، وقيده بالسلاسل لخروجه على اوامر قائده بتقدمه السريع في اول حملة ، على ان الصلح لم يقف عند هذا الحد فسار موسى وطارق الى الشمال والشرق فتحيب وعبرت جنوده مرتفعات اراغون وليون واستوريه وجليقية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عامله في افريقية ووجه اليه التهمة عينها التي كان موسى وجهها لطارق — وهي تهمة الاستقلال بالامر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الاندلس مستخلفاً عليها ابنه عبد العزيز ، وسار متمهلاً حتى ... طارق وصحبه الجيش واربعمئة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى اوساطهم مناطق ذهبية

يتبعهم عدد كبير من العبيد والسبي ، محملين بمقادير عظيمة من الكنوز والغنائم . وقد أكثر كثيراً مؤرخو العرب الاشراف في وصف هذا الموكب الفخم الذي سار من أقصى غرب افريقية الشمالية من الغرب الى الشرق حتى بلغ أطراف الصحراء الشامية . وهو وصف يذكر بمواكب القياصرة التي سارت على رأس قواد الرومان القدماء .
وكانت أخبار الموكب قد سبقته الى دمشق فتلقى موسى عند وصوله خبراً في فلسطين أمراً من سليمان ولي عهد الخلافة يشعره فيه بوجوب تأخير دخوله العاصمة لأنه كان يريد أن يكون وصول هذا الموكب ارتقاءه كرسي الخلافة بعد أخيه الوليد المريض فيزداد رونق .

ووصل موسى دمشق في شتاء عام ٧١٥ يصحبه الأمراء القوطيون بملابسهم الرسمية وعليهم الحلي والجواهر ، وقدمهم الى الوليد وحضر معهم في أحفل مشهد في بهو الجامع العظيم . وكان ذلك على ما يقال في ذروة عظمة الخلافة الإسلامية ، وشهد المسلمون لأول مرة منذ عهدهم أمراء أسرة اوربية مالكة والوفاً من سبي الاوربيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف النفيسة التي جلبها موسى بطليطلة المائدة العجيبة التي نسبت الخرافة صنعها للجن في خدمة الملك سليمان ، وزعم ان الرومان نقلوا هذه التحفة الفريدة من بيت المقدس الى عاصمتهم ، ثم أخذها القوط معهم فيما بعد ، فكان كل واحد من ملوكهم ينافس سلفه في ترصيعها بالأحجار الكريمة . وقد حفظت هذه التحفة في كاتدرائية طليطلة ، وحمل طرفاً منها يوم هرب بها اسقف المدينة حتى جاء موسى بطارق في طليطلة حرسه

بسلطانه واغتصب منه . ويحكى ان طارق كان قد أخفى احدى
قوائمها . فلما كان هو وموسى في حضرة الخليفة أبرز هذه القائمة
ليدلل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وعظم جزاءه .

ولقي موسى ما لقي كثير غيره من قواد العرب البارزين .
فقد ذاق الخليفة سليمان وعاقبه بالوقوف يوما كاملا في حرارة
الشمس حتى وقع مغشيا عليه ، وصادر امواله وجرده من كل
سلطة . وآخر عهدنا بموسى انه حج الى بيت الله ، ومات في
قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، وصار يطلق عليها
العرب اسم الاندلس تحريفا لاسم الوندال الجرمانيين الذين كانوا قد
احتلوا البلاد من قبل القوط ثم اخرجوا منها . ولم يلق موسى
خلفاءه الا مقاطعات صغيرة في الشمال والشرق تصعب ، وبعض
الثورات تقمع . وتم فتح هذه البلاد كلها وضمها الى ملك العرب في
خلال سبع سنين . وهي من اكبر اقطار اوربا في العصور الوسطى
واجملها . وقد قدر لهؤلاء العرب ان يحكموها قرونا

اما سبب هذا النصر الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ
فيمكن استخلاصه من هذه الحوادث التي سردناها مختصرة . واهمها
ان العرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في
اوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة جرمانيين ، وبين اهالي
البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهرا . وقد حكم هؤلاء
القوط زمنا طويلا قبل ان استولوا على البلاد من الاقوام الجرمانية
التي سبقتهم كالسويفي والوندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكما

معتنقاً عامة ، وظلوا محافظين على المذهب الآري في المسيحية حتى
عام ٥٨٧ حين قبل حاكمهم وأتباعه الكاثوليكية مذهب أهل البلاد
الذين كانوا يقعون تحت حكم القوط ويحملون مذهبهم [illegible]
اليهود والأفارقة وهي شريحة كبيرة من السكان [illegible]
من جانب [illegible] ولا عجب [illegible] اليهود [illegible] ويبدوا
لهم حسن [illegible] ، وكانت [illegible] اليهود على حكم القوط [illegible] من
[illegible] على ايدي [illegible]
وكان احدهم قد [illegible] في عام ٦١٢ أمر [illegible] على اليهود [illegible]
يختاروا بين المعمودية وبين التعرض [illegible] ومصادرة الأموال .
وهم [illegible] ان يحركوا [illegible] في
[illegible] في [illegible]

ولا [illegible] خلاف [illegible] كان [illegible]
بين الأسرة المالكة وبين طبقة النبلاء من القوط [illegible] ،
والصراع [illegible] في البلاد [illegible] اركان الدولة ففي أواخر القرن
السادس [illegible] هؤلاء النبلاء ان يكونوا [illegible] في
مقاطعاتهم . ووافق [illegible] احدهم و [illegible]
من أجل [illegible] حلا [illegible] حلا
[illegible] العرب [illegible] أنهم آتون
[illegible] من مظاهر
الأبهة . وتقدم [illegible]
أما الدور الذي [illegible] التي قيل إنه [illegible]

الجيش العربي بمراكبه التي اجتاز بها العمق فقد توغل فيه كثيراً .

وازال سقوط سرقسطة احد الحواجز الاخيرة بين اسبانيا وفرنسا ، ولكن بقي امام العرب حاجز منيع هو جبال البرانس على ان موسى لم يقطع هذه الجبال على ارجح مع ان بعض مؤرخي العرب ينسب اليه هذا الحلم بفتح اوربة واجتياز بلاد فرنجة الى الشرق عن طريق القسطنطينية الى دار الخلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاحلام قد جال في مخيلات هؤلاء الفاتحين لان معرفتهم بجغرافية اوربة كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، وذلك في عام ٧١٧ او ٧١٨ .

ثم اغرى الحر جنده بمهاجمة كنوز الأديرة والكنائس في فرنسا . وشجعه على ذلك انقسامات داخلية بين قواد البلاط الفرنسي ودوقات اكويتانيا . فجرد حملات تبعتها من بعده حملة السمح بن مالك الخولاني . وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل اربونة التي جعلها العرب فيما بعد حصناً منيعاً يشتمل على دار لصناعة المعدات الحربية ومستودع للاسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية سبيل اكتساح تولوز كرسي دوق اكويتانيا باءت بالفشل . لان المسلمين من خلاله فقدوا اندفاعهم . وقد استشهد السمح ويعد هذا الفشل اول انتصار لأمير جرماني على جيش عربي . وجاءت غارات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، خلف السمح في اسبانيا، آخر حملة واشدها خطورة . فتقدم وصعد سلسلة جبال البرانس الغربية في صيف ربيع ٧٣٢ . فقهر دوق اكوتين على ضفتي نهر غارون ، ثم هاجم بوردو بعنف شديد واحرق الدور في كنائسها ، وبعد ان أحرق الباسيليكا القائمة خارج سور بواتييه ، زحف شمالاً حتى حوالي مدينة تور . وقد كانت تور شبه عاصمة دينية لسكان بلاد الغال لكونها مرقد القديس مارتينوس الذي ينسب اليه التقاليد تنصير الغاليين . ولا ريب ان الذي جذب الغزاة اليها هو ما حواه ديرها من مقتنيات المدينة الفاخرة .

وهنا بين تور وبواتييه لقي عبد الرحمن شارل حاجب البلاط الميروفنجي الذي لقب فيما بعد مارتل اي المطرقة ، والذي استنجد به دوق اكوتين . وكان شارل رجلاً شجاعاً حارب خصوماً اعداء كثيرين واخضع دوق اكوتين الذي كانت له نزعة للاستقلال بادارة مقاطعته ، وقد اسس الدعائم الاساسية للمملكة الشارلمانية . ومع ان شارل وهو ابن غير شرعي لبيبان امير ... لم يكن ملكاً فانه تصرف تصرف الملوك .

وقف الجيشان — الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش الفرنجي تحت امرة شارل ، واكثر افراده (اي جيش الفرنجة) من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على اكتافهم — احدهما في وجه الآخر مدة سبعة ايام يرقبون فيها التحام المعركة . وطال امد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين الاول عام ٧٣٢ . فبدأ القائد العربي الهجوم . أما جند الفرنجة

– حسب وصف مؤرخ عربي – فقد اتخذوا من المشاة في وطيس المعركة شكلاً هندسياً مربعاً مجوفاً ووقفوا متراصين كتفاً الى كتف . وصمدوا أمام ضربات العدو كأنهم من جليد لا تزعزعه العواصف . وتوالت ضربات العرب الخفيفة الحدة على هذا الجسم المتراص دون نيل منه شيء . وصمد عزمه في مراكزهم يجدلون كل مهاجم دنا منهم . وقد كان ممن سقط في هذه المعمعة عبد الرحمن نفسه . وأسدل الظلام حجابه على الجمعين ففصل احدهما عن الآخر . ولما طلع فجر اليوم التالي حسب شارل ان السكينة المخيمة على معسكر العدو انما هي خدعة . فبعث الجواسيس يستطلعون حقيقة الامر فتبين له ان العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا معسكرهم وتركوا ثم [illegible]

ولقد توقف السير العربي يوم بواتييه وتور ، واسرفت في المبالغة بأهمية معركته ، وعدّها المستشرقون آخر حلقة في سلسلة الفتوحات التي استمرت مئة عام في البلاد الغربية . ويقول المؤرخ الانكليزي (غيبون) ، وتبعه بعض مؤرخين أنه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى اليوم لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب . وبعض المؤرخين المحدثين يعدّ معركة تور هذه احدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة قد ضخّم شأنها . فموجة المزاحمة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت الى حدّ طبيعي من التوقف اذ بعدت عن خط طارق ، نقطة بدايتها ،

بجوانب مصر . وكان قد دب الخلاف الداخلي بين العنصرين اللذين يتكون منهما جيش عبد الرحمن (اعني العرب والبربر) وبدت طلائع الضعف في معنوياته . ولم يكن للعرب انفسهم شعور بوحدتهم او هدف يجمعهم ، والواقع انه وان كان خروج العرب بعد هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات اخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلا احتلوا افنيون ، وبعد مضي بضع سنين أغاروا على ليون ، ولم تتخلص اوربة من الخطر العسكري من جهتهم حتى عام ٧٥٩ . ولا شك ان الحرب في بواتيه لم يكن سبب توقف الزحف العربي الرئيسي ، لكنه جاء ليحد اقصى ما بلغته الجيوش الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية في عهدها الذهبي هذا من حدود الصين الى غالية ، واصبحت دمشق البلد الذي فوق الرواية ان محمداً نصح من دخوله لأنه اراد ان يرى فيه مرة واحدة عاصمة هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام قصر الامويين مطلا على النهر ، الخضراء الممتدة الى الجنوب العربي حتى تحمل شبه المكلل بالتاج . وكان بنيه معمورة مؤسس السلالة الاموية ، وقد نشأ بجانب الجامع الاموي الذي رممه الوليد وحصنه آية هندسية لا تزال تجذب اليها عشاق الفن الجميل . وفي ردهة الاستقبال كان مقعد العرش المربع تعلوه الوسائد المزركشة بالحرير ويجلس عليه الخليفة في الحفلات الرسمية شبه القرفصاء متربعاً . وكان يقف عن يمينه لفيف من اقربائه مصطفين حسب الاقدمية في السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفه الحاشية والشعراء

والملتمسون . أما الطاس ذات الصفة الرحمية المشتركة فكانت تعقد في الجامع الاموي العظيم . وهو لا يزال حتى يومنا هذا من المجمع المعتمد في لعبهم و نحب . ولعل الحلقة استقت موسى وطرقاً مع اسرائيل وكنوزهم في محلي كهذا . ففي هذه الحلقة الاموية تمت العروبة على قسم تحدده وتسمى الاسلام الى آخر مرحلة من مراحل تقدمه وسيره .

بدء الحياة الثقافية والاجتماعية

نصل الآن في بحث هذا الى مرحلة الرئيسة في التاريخ الاسلامي ، وننتقل من سرد أحداث الفتوح والتوسع الى ما هو أكثر خطورة ، أعني بعده العسكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية شيء وقد رافقها من نهضة أدبية في العلم والفن وهندسة البناء . في هذا الطور كان الفتح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف ، وذلك بالانصراف الى ترجمة الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولة الى العربية .

ومن الحقائق الرائعة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه يوم كانت عاصمة الامويين . في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة

يحكمها العرب محافظين فيها على الانتساب القبلي ، واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات اجتماعية ، وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها أسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عدد هذه الطبقة ولكنها بلغت في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي اي المحدثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً . وكان لهذه الطبقة حقوق في الجمعية الاسلامية بالاسم لا بالفعل وذلك لأن الأثرة (الشوفينية) العربية كانت قوية الى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، ولم يكن الاعتراف بها الا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الاراضي أجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين أم من غير المؤمنين . ومما لا ريب فيه أيضاً أن أكبر العوامل التي سببت النقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لأن الجزية تسقط في الاسلام .

وادرك الموالي انهم كانوا في احط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هذا الوضع ولم يقنعوا به مطلقاً ، وهذا الوضع السيء الذي حملهم على تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً سياسياً في الاسلام وسفكت دماء غزيرة . الا ان بعضهم برهنوا عن

تشبث بدين الجديد اكثر من اصحابه وتحمسوا له الى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين وكان اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الأسلام من اشد المسلمين الأولين صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي ابناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجباً ان يكونوا اول من أعان في نشأة الاسلامية على الدروس الفلسفية والفنون الجميلة . ولم يكادوا يظهرون على احوالهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى اخذوا يطمحون الى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين خليط العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من ابناء المذاهب التي يدين بالديانات المنزلة المعروفين باهل الذمة ، وهم النصارى واليهود والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكتب هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كانت من اعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . وإنما يرجع ذلك ، اكثر ما يرجع ، الى ما كان يكنه محمد من الاحترام للتوراة ، في حين يرجع بعضه الى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع اهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية الى رؤسائهم الروحيين ، إلا اذا كانت القضية تمس مسلماً . لقد

كان نفوذ الاسلامي أقصر من أن يتطرق الى أعمق المدينة . وبواعث شيئاً من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وفي دول الانتداب في سورية وفلسطين .

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد ، وكانت في أسفل درجات السلم الاجتماعية . فقد احتفظ الاسلام بنظام العبيد ، وهو نظام سامي قديم اقرّته التوراة . على ان الاسلام حسّن حالة العبد بعض الشيء . ومع ان الشرع الاسلامي منع استرقاق المسلم ، فهو لم يحرر العبد متى اذا أسلم . وكان معظم العبيد في فجر الاسلام من أسرى الحرب ومنهم النساء والأحداث الذين لم يقتلوا والذين اشتروا بالمال او أخذوا في الغزو . ومع نمو تجارة العبيد اصبحت تجارة نشيطة رائجة في جميع البلدان الاسلامية . وكان الرقيق يجلب من شتى ؛ فمنه الزنجي من افريقيا الشرقية والوسطى ، والاصفر من تركستان الصينية ، والابيض من الشرق الادنى او من اوروبا الشرقية أو الجنوبية . وكانت أثمانهم مختلفة أيضاً فقد بلغ ثمن العبد الاسباني نحو الف دينار ، في حين ان العبد التركي لم يزد ثمنه على ستمئة دينار . ولقد نصّت الشريعة الاسلامية على ان مولود الأمة عبد سواء أكان الوالد عبداً أم حرّاً إلا اذا كان الوالد هو سيد لأمه واعترف ببنوّته . أما اولاد العبد من زوجة حرة فأحرار .

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذين طفا سيلهم على الامبراطورية الاسلامية بداعي الفتوحات من الروايات الثابتة ، وهي بلا ريب مبالغ فيها . فقد ذكروا ان موسى بن نصير رجع

ثلاثة عشر اسيرا من سبي افريقيا ، فهدى بعضهم الى الخليفة وانه احد من بنات الامراء المعروضة للبيع في السوق بثلاثين الف درهم ، كما ذكروا ان عدد اسرى قتيبة وهو واحد فقط من قواده ... في تركستان بلغ مئة الف .

وكان الزواج الشرعي محصوراً على اربعة واما التسري فكان مباحاً . والاولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه ينسبون الى الوالد ، فهم احرار على ان ... وهي ... سرية ترتفع في مرتبتها الى ام ولد ، فلا تكون سبيا او اعداؤها ومتى مات سيدها اعتقت . وقد اصبح عدد الرقيق دون شك في اختلاط العرب بمختلف العناصر الاعجمية ... على ذلك الامتزاج التام بينهم وبين شعوب عديدة متعددة .

لاحظنا ان عرب الصحراء دخلوا الامصار التي فتحوها خالي الوفاض من كل تقليد علمي او تراث ثقافي ولقد حال قرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون استقلال فكري في ذلك العهد غير ان جذور الفكر ... عن الثقافات السابقة من يونانية وفارسية وهندية كانت قد زرعت في تربة العهد الاموي ثم جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح اشجاراً باسقة ذات اثمار يانعة . فالعصر الاموي اذاً كان على الجملة عصر استعداد وتهيئة

وسقوط الفرس والبيزنطيين والاضطرابات ... خطيرة الاسلام وتزاوجهم بالعرب ازال ذلك الحاجز المنيع الذي وضعه

الاولون من العرب والاعاجم فلم يعد لقومية المسلم اهمية.

ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار يعد الآن عربياً. أصبح كل من اعتنق الدين الاسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية. وهذا الحدث كان من اشد الامور خطورة في تاريخ المدنية الاسلامية. فنحن اذا ذكرنا «الطب العربي» و «الفلسفة العربية» أو «الرياضيات العربية» فلسنا نقصد بذلك ان هذه العلوم كلها كانت من نتاج العقل العربي، وان الذين وضعوها ورقّوها هم من ابناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعت في اللغة العربية رجال نشأوا في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانية وبعض الآخر من مصادر آرامية او هندية فارسية أو غيرها.

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة على تخوم فارس، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الاسلام الى تعلّمها. غير ان هؤلاء أنفسهم قدموا فيما بعد قسطاً وافراً من هذه الدراسات. وكانت الرغبة الأولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغة العربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا مناصب الادارة ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم. وتنص الروايات على ان واضع قواعد النحو العربية هو ابو الاسود الدؤلي (توفي عام ٦٨٨). ولقد زعم ابن خلكان ان الخليفة وضع للدؤلي هذا الاساس وهو ان «الكلام كله ثلاثة أضرب إسم وفعل وحرف». ثم دفعه اليه وقال له «تمّم على هذا» فسمّي موضوعاً. على ان النحو العربي ينمّ عن

شوط طويل لم يقم به جيل من الأجيال . وقد اصطبغ في خلال شوطه بألوان المنطق اليوناني .

وتطلبت دراسة القرآن وضرورة شرحه الى ظهور علمي فقه اللغة والفيلولوجيا ، ومفرداته والى ظهور علم الحديث وهو ابرز العلوم الاسلامية والحديث بمعنى الاصطلاحي عمل أو قول منسوب الى النبي أو أحد الصحابة . وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي بني عليه علم اصول الدين وعلم الفقه . والشريعة الاسلامية أشدّ علاقة بالدين وأخوته من علم الحقوق المعروف عند بعض الشعوب اليوم . ولا شك في ان للشرائع الرومانية أثراً مباشراً ، وبواسطة التلمود وغيره ، في التشريع الاموي . بيد ان مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد .

وقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي جاء معظمها عن طريق الترجمة . وكان اقدم ما خرج للناس رسالة في الطب نقلها الى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الاسكندرية . واعتنى العرب في بدء نهضتهم الادبية بعلم الكيمياء ، كما عنوا بعلم الطب فأبدعوا فيها . وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على تعاقب الايام .

وازدهر فن الشعر في البلاط الاموي في دمشق . وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا فن الموسيقى ولعبه بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمهما القرآن . ولا شك في أن الرقي الفكري في عهد الامويين سبق ابعد غاياته في صناعة الشعر . أما عصر الفتوحات السابق فقد كان محدوداً اذ لم تظهر فيه

شاعر واحد في العرب وهو إمامة الشعراء . ولما ان تسلم الامويون زمام الحكم حتى استبدت آفة الخمر والغناء ، والشعر مرتبتها السابقة فظهر لأول مرة شعر الحب في العربية عمر ابن أبي ربيعة المتوفى حوالى ٧١٩ ، وهو قرشي أمه سبية حضرمية تعرض بتحدث الحب نقيبات لحملات القصاد الحج ... ووجد الى سكينة ابنة الحسين المشهورة بجمالها وأدبها .

أما أعظم رائعة فنية ظهرت للمسلمين فكانت في الصنعة المعمارية ولا سيما بناء المساجد . فالمعماريون المسلمون وغيرهم ممن استخدموا في هذه الصنعة احدثوا في فن البناء نمطاً جديداً مستقلاً رائعاً وهو على اساس من تقاليدهم ولكنه تطور تطورة خاصة وهي اعتبار روح الدين الجديد . ولما ان صار المسجد خلاصة تاريخ امتداد الثقافة الاسلامية سواء أكان ذلك حتى الاسلام وعصوره الخمسة ام خارج الاسلام في مختلف الأمم الأخرى . فالمسجد خير مثل يمكن ان نجده دليلا على العلاقات الدقيقة بين المسلمين وجيرانهم .

ولقد اصبح المسجد النبوي المشيد في المدينة على البساطة نموذجا لمعابد العرب الاسلامي الأول وكان اول امره عبارة عن بهو بلا سقف تحف جدرانه دكة ... ثم مد الى سقف سوى المجاورة فظل البهو المكشوف اتقاء لأشعة الشمس المحرقة ، وكانت عمده من الجذوع وسقفه من الجريد عليه طين ، وكان الرسول يؤدي الأمر يخطب الناس غير مستند الى شيء ، ثم خطب مستندا الى جذع قائم في هذا المسجد يعتمد عليه اذا طال قيامه ثم بدا له ان يتخذ منبراً ... من خشب الأثل ، ذا درجات ثلاث على

نحو ما عرف من الطراز في الكنائس النصرانية في الشام . وكان كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الاول بناء وسقف يقي المصلين ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب فاتحين الأمصار القريبة منها والبعيدة من أنحاء آسيا العربية وافريقيا الشمالية ضربوا الى ابنيتهم سبيلاً لا تخفى من الدقة والعناية ، شأن رقتهم ذوقاً وطبعاً والأمم من حيث انها اصبحت في حوزتهم معارف فنية جمة ورثتها الامم المغلوبة عن عصور طويلة . وما لبثت هذه الاوضاع الفنية التي حورتها حضارات الحياة الاسلامية الجديدة ان اصبحت تعرف على مرور الايام بالفن العربي .

واستفاق بيت المقدس الى ان يكون منذ بدء عهد الاسلام بلداً مقدساً في نظر المسلمين جميعهم ، ويرجع ذلك الى منزلة بيت المقدس في التوراة ولأنه كان القبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي وطأه محمد ليلة صعوده الى السماء ليلة الاسراء . وفيه تقوم اليوم قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تعد اكثر بقاع الأرض قداسة عندهم في احترام اليهود والنصارى والمسلمين وعدّها التقليد الموضع الذي اراد ابراهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه ذبيحة لله . وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأسس التقليدية فقد ادخلت في بنائها الفسيفساء وسواها من اساليب الزخرفة ولقد سرف في صنع القبة كما عرف فيه كنيسة القيامة أناقة وفناً فكانت النتيجة تحفة هندسية رائعة قلما تجد ما يضاهيها في اقطار العالم .

إن الجامع الاموي في دمشق اكبر دليل على ما وصلت اليه المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ اخذ الوليد بن عبد الملك بازيليكا دمشق المسيحية المكرّسة للقديس يوحنا ، وكانت في الاصل هيكلا لجوبيتر ، فبنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع الاموي . ومن الغريب ان شيئا لم يبق في هذا الجامع من اصل البناء المسيحي إلا ان المئذنتين الجنوبيتين تقومان على ابراج كنيسة قديمة هي من ابراج البازيليكا . اما المئذنة الشمالية التي كانت تستخدم برجا للاستطلاع من الشمال فان بانيها الوليد وقد اصبحت هذه نموذجا للصوامع من المآذن في سورية وشمالي افريقية واسبانيا . وهي اقدم المآذن الاسلامية الحربية الباقية واستخدم الخليفة في بناء هذا الجامع الصناع الفرس والهنود والمصريين والبيزنطيين ، ولعل بعضهم كان من الروم الذين اوفدهم امبراطور القسطنطينية . وتفيد اوراق البردي المكتشفة حديثا ان بعض مواد البناء استقدمت من الديار المصرية ، وكذلك بعض حذاق العمال .

ومما تقدم ومما يلي سيتبين ان العرب لم يبلغوا قصب السبق في ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون ايضاً

بغداد في أوج مجدها

ما كانت امهات العرب في [illegible] حصة [illegible] ليقل عن اهمالكم في علوم وفنون ولا سيما بعد ان [illegible] الجواري يستمتعون عرش الخلافة . وكان اول هؤلاء يزيد بن الوليد ٧٤٤، وامه ام ولد ، وكذلك كان الخليفتان الباقيان بعده – وهما آخر السلالة – من أمهات ولد . ففي هذا الزمن نشأ عدم الحجاب الذي اولاه [illegible] الحريم ، [illegible] وكثرة العبيد ازداد انغماس القوم في الترف . ولم تستطع السلالة ان تنكه [illegible] دمها العربي . ومن ذلك لا شك واضح على الانحطاط الاخلاقي الذي كان متفشياً في المجتمع عامة .

ومما زاد في ضعف السلالة الاموية والخلافة اتساع شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب . والحق ان

هـــذا الاختلاف كان وما زال في الأسلام ويحكمه حتى الآن أقصاه ، فهو يثير أشد النفور والخصام . ففي صقلية للأندلس وشواطئ جزيرة العرب ونجود الصحراء الافريقية ظهرت تلك الفرقة الكامنة من أمد بعيد وظهرت في شكل حزبي سياسي هو قيس ويمن . واستمر هذا النزاع في العصور الحديثة اذ نشبت معركة من أجله في لبنان وفلسطين حتى القرن الثامن عشر

وهناك عامل آخر زاد السلالة الأموية وهناً وهو عدم وجود قانون ثابت صريح يجري بموجبه التصرف في الخلافة . ولقد أدرك معاوية خطورة هذا الأمر وعين خليفته من بعده ابنه يزيد ، فادخل بعمله هذا مبدأ جديداً هو حكم بحسب الوراثة . ولكن مبدأ الاقدمية في السن الذي جرى عليه العرب كان لا يزال يتمتع من الهيبة في حين اخلافه في ذريته . وعلى كل حال فقد بقي البيعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط .

وفي سنة ٧٤٧ قام العباسيون بثورة على ابناء عمهم الأمويين ، وينتسبون الى العباس عم الرسول . فنجحوا في حركتهم وكادوا يبيدون البيت الأموي . ويروى أن عمهم عبد الله بن العباس دعا ثمانين رجلاً من الأمويين للطعام في أبي فطرس على نهر العوجا قرب يافا ، وأمر قومه أن يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم أمر فبسطت عليهم البسط وجلس فوقها ودعا بالطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولقب الخليفة العباسي الأول بالسفاح فلزمه هذا اللقب . وعمد العباسيون الى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ الأسلام صار النطع الى

جانب كرسي الخلافة واتخذته ومن قبله أجــلاء دولة لتوحيد
حوله العرش وجمع حوله محاسن القسم الشرقي من العــالم
الاسلامي ، أما دمشق او قبة الأندلس فلم تحتفظ قط بدوام
حكمهم خمسة قرون تعاقب فيها سبعة وثلاثون خليفة حتى قضى على
آخرهم هولاكو سنة ١٢٥٨ عندما دخل المغول ، ووقعت في ايديهم اروع
احجار الحضارة العربية فسقطت بسقوط العصر الذهبي

وفي سنة ٧٦٢ أمر المنصور الخليفة العباسي بناء مدينة بغداد
عاصمة الخلافة على ضفة دجلة الغربية وهو موقع كانت فيه قرية
صغيرة باسم بغداد ، وبغداد كلمة من اصل فارسي . وفي وادي دجــلة
والفرات وذهب بعض جغرافيي العرب القــدامى . قال المنصور
« هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في
البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا
الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . »
وكان اختيار المنصور لهـــذا الموضع حكيماً حقاً . واستغرق بناء
المدينة اربع سنوات استخدم في انشائها مئــة الف من المهندسين
والصناع والعمال ولم تلبث ان اصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة ، وبنى
سوراً مؤلفاً من حائطين من اللبن ، واحتفر خندقاً عميقــاً وأقام
سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط بواسط المدينة . وجعل
للمدينة ابواباً اربعة تؤدي فيها طرق اربع تبتدىء من وسط المدينة
وتترامى الى اطراف الامبراطورية الاربعة ، وكأنها شعاع منبثق من
دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد تقوم في

فيها قصر الخليفة المسمى «باب الذهب» وقبته الخضراء ، والى جانبه المسجد الجامع . وقد قيل ان على القبة الخضراء التي عرف اسمها على القصر بحمله دون مائة وثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة ان صنماً بهيئة فارس يحمل رمحاً كان في اعلى هذه القبة ليشير في الأوقات الحرجة الى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن هذه الخرافة لم تفت المؤرخ الخوري فقال ان الصنم لا محالة متوجه الى جهة ما في كل حين ، فيدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل وقت ، وان الملة الاسلامية لم تخلُ من هذه الخرافات .

وقرّب مركز الخلافة الجديد من فارس جداً باعثاً على ان تتجه نحو الشرق . فخضع الاسلام العربي لمؤثرات الفارسية ، وأصبحت الخلافة أشبه بحكومات الاستبداد الفارسية منها بمشيخة عربية فتسرب الى الحياة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه تغلبت خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم والاستقلال الفكري . الا ان صبغة العروبة احتفظت بأمرين هامين وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان عظيمان في الشؤون العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق . وليس من شك في ان هرون كان اقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل ثقافة ارفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية اساسها المصلحة ، فسعى شرلمان لصداقة هرون كي يعينه على خصمه امبراطور بيزنطة ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسيه واعدائه

الأمويين في الأندلس الذين كانوا قد شيدوا دولة منيعة الجانب تتمتع بالرخاء. وهذا تبادل الاثنان — على قول المؤرخين الغربيين — السفراء والهدايا. ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية أن سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق بجملة من الهدايا الثمينة من «ملك فارس هرون» وهي منسوجات وعطور وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء. أما خبر الأرغن الذي يقال ان هرون أهداه الى شرلمان فهو ككثير من الأخبار الجذابة في التاريخ وليد الخيال ولا يستند الى الحقيقة. وقد نفى البحث العلمي أيضاً القصة التي تقول ان هرون أعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة. والغريب في أمر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و ٨٠٦ ان المؤرخين المسلمين لا يشيرون اليه البتة، على الرغم من انهم أشاروا الى مبادلات دبلوماسية أخرى.

وفي أيام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ – ٨٠٩) أصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأهمية العالمية، ولم يكن قد مضى بعدُ على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطية. وكان مجدها متناسباً مع نفقة الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير».

وكانت القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحرم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة. وأعظم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمخدّر بالسجف والمساند مما لم يكن في الشرق أبدع منه. وكانت زبيدة، زوج هرون وابنة عمه، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي اكتسبتها لها الأجيال الآتية. ثم تسامع في

كان تبادل الاسرى وافتداءهم . ولقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مئة وستون الف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم البيض والسود ، وسبعمئة حاجب ونحو مئة أسد . وكان ما عُلّق من الستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين الف ستر منها اثنا عشر الفاً وخمسمئة من الستور المذهبة .وبلغ ما حواه من البُسُط اثنتين وعشرين الف قطعة . وقد أصاب الرسل من الاعجاب والروعة الشيءُ الكثير ، ولما نظروا الى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس الخليفة فقيل لهم ان هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . ولكن دهشتهم كانت على اشدّها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمئة الف درهم وعلى كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبةومفضضة تتحرّك كما تحرّك الريح ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا الى بستان فيه نخل طول كل نخلة خمسة أذرع قد لُبّست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مثقلة بغرائب التمر .

وكان هرون مثالا أسمى للملوكية في الأسلام . وسخاؤه كسخاء الخلفاء الذين تبعوه مباشرة جَذَبَ الى العاصمة الشعراء واهل الذكاء والفكاهة وارباب الموسيقى والغناء والرقص وغيرهم من ارباب الملاهي كمربي الكلاب والديوك التي كانوا يعرضونها تقتتل أمام النّظّارة . ولقد وصف الشاعر المجوني ابو نواس ، وهو نديم الرشيد ورفيقهُ في كثير من جولاته الليليــة ، حياة البلاط خلال هذا العصر الزاهي، في أعذب الشعر ، وصفحات « الاغاني » للاصفهاني طافحة بالقصص التي تمثل هــذه الحياة بألوان برّاقة لا

يصعب استخلاص الحقيقة من تلافيفها . قيل ان الخليفة الامين بن هرون غنّاه ابراهيم بن المهدي عمّه ، وهو مغنّ شهير ، صوتاً في شعر لابي نواس فأمر له بثلاثمئة الف دينار . فقال ابراهيم : « يا أمير المؤمنين قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم هل هي إلا خراج بعض الكُوَر ؟ » وكان للأمين عدّة حرّاقات خاصة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعُقاب. ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهم . وفي « الاغاني » أيضاً نطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دارُ الخليفةِ الأمين مملوءة بالوصائف يغنّين على الطبول والسرنابات والأمين واقف في وسطهن يركض في دارة الملهى ، والجواري والمخنّثون من حوله يزمّرون ويضربون .وذكر المسعودي ان ابراهيم بن المهدي استزار أخاه الرشيد فلما وُضعت البوارد على المائدة رأى الرشيد السمك فاستصغر القطع فقال ابراهيم « هذه ألسنة السمك » وأردف الخادم قائلًا: « يا أمير المؤمنين فيها اكثر من مئة وخمسين لساناً » . فاستحلفهُ الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فأخبرهُ انه أكثر من الف درهم . واننا اذا جرّدنا صورة حياة البلاط ببغداد عما البستهُ أياها القرائح الشرقية من الاطناب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك التجريد ما يملأُ النفس عجباً بل دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد اميالاً وحوى مئات السفُن ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينية والاطواف وهي قِرَبٌ يُنفخ فيها ويُشدّ بعضها الى بعض كهيئة السطح وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا السائرة بين الموصل وبغداد ،

وكان يردُ الى أسواق المدينة الخَزَفُ والحرير والمسك من الصين ، والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند وارخبيل مَلَقّة ،والياقوت واللازَوَرْد والمنسوجات والأرِقّاء من أراضي الترك في آسيا الوسطى ،والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من اسوج ونروج وروسيا ، والعاج والتبر والعبيد السود من شرق أفريقيا . وقد أفردت لبضائع الصين سوق خاصة بها . وكانت الامصار ترسل محصولاتها سواء بحراً ام براً في القوافل : فيردُ الارزّ والحبوب والكتان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والمقصّب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطر والبقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخَرَز الزجاجي والطيوب وغير ذلك من بغداد ومراكز التصدير الأخرى الى أنحاء الشرق الأقصى واوربا وافريقيا . وتشهد النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة منها في روسيا وفنلندا واسوج والمانيا على اتساع نطاق تجارة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها سواء في هذه الحقبة ام في الحقَب المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من أمتع قصص « الف ليلة وليلة » الاّ اخباراً ذات اساس واقعي لسفرات قام بها اهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً هاماً في حياة بغداد . فكان لكل تجارة او صناعة سوق خاص بها كما هو الحال اليوم .ولم يكن يغيّر من اطراد الحياة في السوق الاّ مرور مواكب الأعراس او المحتفلين بختان .

وبدأ اصحاب المِهَن من أطباء ومحامين ومعلمين وكتّاب وغيرهم يشغلون مراكز هامة في المجتمع. وقد أبقى لنا ابن خلّكان صورة مصغّرة لاعمال احد هؤلاء اليومية وهو الطبيب السرياني حُنين بن اسحق عميد المترجمين من اليونانية. فنحن نراه في كل يوم، بعد فراغه من ركوب الخيل، يدخل الحمّام فيَصُبّ عليه الماء ثم ثم يخرج فيلتفّ في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكيء حتى ينشف عرقه، وينام. ثم يقوم ويتبخّر ويُقدّم له طعامه، وهو فرّوج كبير مسمّن ورغيف وزنه مئتا درهم فيحسو المرق ويأكل من الفرّوج والخبز وينام، فاذا انتبه شرب اربعة أرطال شراباً عتيقاً، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل.

واشتهرت هذه الحقبة في القصص التاريخية والخيالية لأسباب منها بذخ الحياة فيها وزهوها. ولكن السبب الأهم انه ظهرت فيها اعظم يقظة فكرية في الاسلام او قل احدى الحركات الفكرية والثقافية العظيمة في العالم باسره. وترجع هذه اليقظة في معظم اسبابها إلى مؤثرات خارجية بعضها هنديّ أو فارسيّ أو سرياني واكثرها يوناني. وهي يقظة تعاظمت فيها حركة النقل الى العربية من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية لان العربي المسلم لم يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب. ولكنه كان يمتاز بذكاء طبيعي، وبقوى عقلية دفينة، وبرغبة في الاطلاع على الجديد. فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القِدَم التي تغلّب عليها او احتكّ بها. فلما

جاء الشامَ استمدّ منها حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنيّة اليونان . أما في العراق فاستمد حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الفرس . ولم يمضِ على تأسيس بغداد ثلاثة ارباع قرن حتى اصبح في حوزة العرب فيها اهم كتب ارسطو الفلسفية ، ونخبة من كتب الشروح لاهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وطائفة من الكتب العلمية من فارسية وهندية . ففي عشرات السنين تسنّى للعرب الوقوف على آثار علمية فلسفية كان اليونان قد انفقوا القرون في انشائها . ولا شك في ان الاسلام خسر الكثير من طابعهِ الاصلي باستمدادهِ هذا من الحضارتين الفارسية واليونانية إذ كان طابعهُ صحراوياً عليه مسحة العصبية العربية ، فصار الآن يشغل مركزاً هاماً في ثقافة العصور الوسطى التي ربطت جنوبي اوربا بالشرق الادنى . وهذه الثقافة تغذّت من مجرى واحد ترجع اصوله الى مصر القديمة وبابل وفينيقية واليهودية . وعرّج هذا المجرى على بلاد اليونان فرجع منها الى الشرق الادنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافيّ صوب اوربا عن طريق العرب في اسبانيا وصِقِلّية حتى ادى الى عصر النهضة الاوربية الحديثة .

وكانت الهند من اقدم مصادر الفكر وخصوصاً في الحكمة والأدب والرياضيات . فحوالي سنة ٧٧٣ قدِم رحّالة هندي بغدادَ ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة بترجمتها فترجمها الفَزاري إلى العربية . أما عناية العرب بالنجوم فترجع الى عهود البادية . ولكن الاهتمام العلمي بها لم يظهر حتى هذا الزمن . ولقد ولّد الأسلام

حافزاً جديداً لدرس علم الفلك وهو الرغبة في تعيين جهة القِبلة بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور (المتوفى عام ٨٥٠) فوضع جداوله الفلكية المعروفة استناداً إلى كتاب الفَزاري فجمع ما بلغهُ اليونان والهنود في هذا العلم ووحّدهُ وزاد عليه اموراً جديدة. ويعود فضل إدخال الأرقام إلى العالم الاسلامي الى ذلك الرحّالة الهندي نفسه . فانه حمل معه رسالة في الرياضيات حوَت تلك الارقام التي تُعرف في اوربا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية . وعقب ذلك أمدّ الهنود علمَ الرياضيات العربي في القرن التاسع بقانون الكسور العشرية .

أما التراث الفكري اليوناني فكان بلا شك أثمن ما حواه الهلال الخصيب عند الفتح العربي . فجاءت الثقافة اليونانية اشدّ العوامل الاجنبية تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوجَهُ في ايام المأمون وذلك لما كان لهذا الخليفة من النزعات الفكرية الحرة . ولما كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين أحكام العقل انصرف الى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطّلاع فيها على ما يؤيد آراءه . وفي سنة ٨٣٠ أنشأ بيت الحكمة في بغداد وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . فكان هذا المعهد ، من وجوه عدّة ، أعظمَ المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الاسكندري الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى واليهود والمستحدثين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة من تلقاء انفسهم . أما الآن ، في ايام المأمون وخلفائه، فتمركزت

الترجمة في هذا المعهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب من قرن ابتداءً من سنة ٧٥٠ . ولما كانت الاراميّة (السريانية) لغة معظم المترجمين فقد نُقل كثير من الكتب اليونانية اليها اولاً قبل صوغها في العربية .

بيدَ ان الناقلين الى العربية لم يتعرّضوا للأدب اليوناني . ولم يكن هنالك من تماسّ بين العقلية العربية وبين دراما اليونان أو شعرهم أو تاريخهم . فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية . على ان نقطة البدء في خوض غمار التراث الفكري كانت الفلسفة اليونانية التي وضعها افلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال الفلسفة الافلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حُنين بن اسحق (٨٠٩ – ٨٧٣) وهو أحد أعاظم العلماء وأنبل بني عصره خُلقاً . وكان عِبادياً ، والعِباد هم قوم من النساطرة أقاموا بظاهر الحِيْرة . وفي حداثته خدم الطبيب يوحنا بن ماسَوَيه بصفة صيدلي . وغضب عليه يوحنا يوماً فقال له « ما لأهل الحيرة والطب؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق !» فخرج حُنَين باكياً وعزم على درس اللغة اليونانية . ومن الترجمات التي تُعزى الى حُنين ترجمة كُتب لجالينوس وأبقراط ودَيقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة (الجمهورية) لأفلاطون والمَقُولات والطبيعيات والخُلقيات لارسطو . وتُعَدّ اهمّ مجهوداته ترجمتُه لجميع مؤلفات جالينوس العلمية تقريباً الى اللغة السريانية فالعربية . وقد فُقدت لجالينوس كُتب سبعة في علم التشريح في أصلها اليوناني إلا انها لحسن الحظّ محفوظة في اللغة العربية . أما ترجمة

حُنين للعهد القديم من الترجمة اليونانية السبعينية فقد فُقِدت .

ومما يَشهد لحُنين بالبراعة في الترجمة ما رُوي من انه هو ومن معه من النَّقَلة كانوا يُرزَقون حوالي خمسمئة دينار في الشهر ، وان المأمون كان يعطيه من الذهب زِنَةَ ما ينقلهُ من الكتُب . على انه لم يبلغ ذروة مجدهِ كناقل بل كطبيب لما عيَّنه الخليفة المتوكّل طبيبه الخاص . ثم ان المتوكل حبسه في بعض القلاع سنة كاملة لانه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً . ثم أحضرهُ وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حُنين «قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية» . قال الخليفة «فاني اقتلك» . قال «لي ربٌّ يأخذ لي حقي غداً في الموقف الاعظم» . فتبسم المتوكل وقال له «طِبْ نفساً فاننا اردنا امتحانك» . ثم سأله «ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيتهُ من صدق الامر منا ؟» . فأجابه حُنين «شيئان هما الدين والصناعة . اما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء . وأما الصناعة فانها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهدٌ مؤكّد بأيمان مُغلّظة ان لا يُعطوا دواءً قتالاً لاحد» ويقول مؤرّخ افرنسي حديث ان حُنيناً كان أعظم شخصية في القرن التاسع .

ولم يكد عصر الترجمة ينصرم حتى كانت مؤلفات أرسطو الموجودة ، وكثير منها منسوب اليه خطأ ، قد اصبحت في متناول القارىء العربي . كلّ هذا واوربا لا علم لها بالأفكار والعلوم اليونانية . وبينا كان الرشيد والمأمون يتبحران في الفلسفة اليونانية والفارسية

كان أمثالها في الغرب كشرلمان ونبلائه يحاولون اتقان الكتابة البسيطة . ولم تلبث مؤلفات ارسطو في علم البيان والمنطق وعلم الشعر وكتاب الايساغوجي لبُرْفيروس ان تسنّمت مركزاً عالياً الى جانب الصرف والنحو كمتون للعلوم الانسانيـة في الاسلام ، ولا تزال تحافظ على مقامها هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيدة المدرسة الافلاطونية الجديدة القائلة بأن تعاليم أرسطو وافلاطون هي واحدة أساساً . وتجلّت مؤثرات الافلاطونية الجـديدة في الصوفية الى حدّ كبير . وتطرّقت الفلسفة الارسطية والافلاطونية الى الآداب اللاتينية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رُشد فأنارت عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى .

وتبعَ دور الترجمة الطويل هذا بما كان فيه من انتاج دورٌ آخر هو دور الابتكار والابتداع ، وسنتطرّق اليـه في فصل آخر من هذا الكتاب . فلم يأتِ القرن العاشر حتى تحوّلت اللغة العربية ، تلك اللغة التي استعملتها الجاهلية اداةً للشعر فقط وعرفها المسلمون بعد محمد في الاصل لغة للوحي والدين ، نقول تحوّلت الى لغة جديدة عجيبة دقيقة البنيان سهلة المنال تُطاوع رغبـة المرء في التعبير عن الفكر العلمي والافصاح عن الآراء الفلسفية ذات التعقيـد . وفي الوقت نفسه أصبحت لغـة السياسية والتخاطب الادبي من آسيا الوسطى الى شمالي افريقيا فالأندلس . ومنذ ذلك الحين واهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش يُفصحون عن أسمى أفكارهم باللسان العربي .

مناحي حياة العامة

قصر مؤرّخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة ، وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما اتصل بذلك من حوادث دموية معقّدة ، وعلى القوّاد والوزراء ورجال السياسة يومئذٍ وما اصابوا من انتصارات وما اصابهم من نكبات . لهذا لم يتركوا لنا صورة جليّة عن حياة العامة الاجتماعية والاقتصادية . غير انه يمكننا ان نستخلص صورة تعيننا على الإلمام بهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعيـة والاقتصادية من فقرات وَرَدت عرضاً مبعثرة في كُتُبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحيـاة العادية اليوم في الشرق الاسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليهِ في الماضي .

تمتّعت المرأة في القرن التاسع بقسط وافر من الحرية يعادل

قسط المرأة التي سبقتها . ولكن في آخر القرن العاشر اصبحت أحكام الحجاب وعزل المرأة التام عن الرّجال معمولاً بها دونما هوادة . ولم تكن نسوة الطبقة العليا في اوائل العصر العبّاسي الوحيدات اللواتي كان لهنّ شأن وتأثير بليغ في سياسة الدولة بل كانت الفتيات العاديات يخرجن الى الحرب ويتولّين قيادة الجيوش وينظمن الشعر ويناظرن الرجال في الحِرَف الأدبية ، وطالما اتحفن المجالس بالنِكات والموسيقى والغناء .

وفي حقبة الانحطاط كثر التسرّي والانغماس في الملذّات وسقط مستوى الآداب الجنسية . فانحطّت منزلة المرأة الى أسفل الدركات التي نجد وصفها في « الف ليلة وليلة » وصارت تُعتبر مثال المكر والدّسيسة ومستودع الأفكار الرديئة والميول السّافلة .

واعتُبِرَ الزواج في الاسلام بوجه العموم واجباً محتماً فمن أهمله استحق اللّوم . وعُدّ الاولاد ولا سيما الذكور منهم هبةً من الله تعالى . أما الزوجة فاقتصر واجبها على خدمة بعلها والعناية بصغارها وتدبير شؤون منزلها . وما بقي عندها من فراغ فللغزل والحياكة.

ويظهر ان المثل العُليا للجمال النسائي عند العرب الأقدمين ، كما يُستدل على ذلك من تعابير الغزل والتشبيب الواردة في منظومات شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . وقد أفرد النّويري جانباً ضافياً من من مؤلّفه « نهاية الأرب في فنون الأدب » للأقوال المعروفة في جمال أعضاء المرأة . فقدُود الغواني تُستحَبّ فيها قامة الخيزران . ومحيّاها افضلهُ ما كان كالبدر استدارةً . وشعرها اجودهُ ما حاكى الليل سواداً . واللّون أحبّهُ البياض مع حمرة في الخدّين ، وخال

كحبّة عنبر في صحن مرمر . وقد عشقوا في المقلتَين السواد الشديد دون اثر الكحل . والكبيرة منها شبّهوها بعيون المهى ، والجفن شبّهوا به ناعساً سقيماً ، والمبسم صغيراً ترتبت الأسنان فيه كعقد اللؤلوء في مرجانه ، والنهدين كرمانتَين ، والخصرين مرتبطَين بردفَين ثقيلَين . والأصابع ارادوها مستدقّة الأطراف مصبوغة بالحنّاء .

وكان الديوان أهمّ قطع الأثاث في هذا الزمن وهو كناية عن أريكة للجلوس تمتدّ بحذاء ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي قد اُتخذت في الدولة السابقة ، إلا ان المساند الملقاة على « طرّاحات » مربّعة موضوعة على الأرض يجلس عليها المرء القُرْفُصاءَ مرتاحاً لا تزال رائجةً الى يومنا هذا . وكانت ارض الغرفة تُغطّى بالطنافس المنسوجة باليد . وكان الطعام يُقدّم في أطباق نحاس واسعة مدوّرة على موائد واطئة امام الدّواوين او على الأرض مقابل الوسائد . وفي منازل الأغنياء كانت الأطباق تُصنع من الفضّة ، والأخونة من الخشب المغشّى بالابنوس واللؤلوء او الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق . هذا هو الشعب العربي نفسهُ الذي كان سابقاً في شظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العِلْهِز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) والذي حسب أبناؤه الأرزَ لأول وهلة سمّاً وظنوا المرّقق من الخبز رقاعاً للكتابة . هذا الشعب تهيأت له الآن اسباب الحضارة فهذّبت شهوته للطعام المريء وجعلته يستطيب لذائذ المدنيّة فصار يأكل من طعام الفرس السِّكباج (وهو مرق يُعمل من اللحم والخلّ) والفالوذَج

(وهو حلواء)، واصبح دجاجه يُعلف الجوزَ المقشّر واللوز ويُسقى الحليب. وصارت منازله في الصيف تُبرّد بالثلج ومُرَطّباته قِوامها الماء يُذاب فيه السكّر ويُعطّر بماء البنفسج والموز والورد او بعصير التوت . أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن الخامس عشر ، وكذلك التبغ فلم يُعرَف قبل اكتشاف العالم الجديد .

ونجد في « كتاب الموَشّى » للوشاء من ادباء القرن العاشر وصفاً للرجل الظريف الأديب في ذلك العصر . فالظريف كان يتحلى بالأدب الجمّ والمروءة والكياسة، يترفّع عن المزاح ، ويعاشر اهل الصّلاح ، يكره الكذب ويفضّل الصدق ، ويفي بالمواعيد ، ويكتم السرّ ، ويرتدي الثياب النظيفة التي لا رُقَع فيها . وهو اذا جلس على المائدة جعل لُقَمَهُ صغيرة ، فلا يُكثر من الضحك والكلام ، ولا يُسرع في مضغ الطعام ، ولا يلعق أصابعه ، وهو يتجنب الثوم والبصل ، ويتحاشى استعمال مسواك الأسنان في الخلاء والحمّام والمحافل العامة وعلى قارعة الطريق .

ولقد أسرف الناس في الشراب سرّاً وعلناً . ويُستدَلّ من قصص الدعابة والمجون في « الاغاني » و« الف ليلة وليلة » وسواهما من كُتُبُ الادب والشعر ومن الخمريّات التي نظمها الشاعر أبو نواس ان تحريم الخمر الذي شدّد عليه الأسلام لم يُلاقِ نجاحاً اكثر مما لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة . فقد شرب الخمرَ الخلفاء والوزراء والامراء والقضاة غيرَ مبالين بتحريمه في الدين . وكان احبّ الخمور عند القوم المصنوع من عصير التمر .

وكان لمعاقرة بنت الحان حلقات تُسمى « مجالس الشرب » يأنس

اليها القوم . فكان المضيف وضيوفه يُعطّرون لحاهم بالمسك أو ماء الورد ويرتدون أثواباً خاصة للمنادمة زاهية الالوان، وارجاء الغرفة تتضوّع فيها رائحة العنبر والندّ المشتعل . وكانت أكثر المغنيات اللواتي يحضرن هـذه المجالس من السبايا الخليعات كما تشهد بذلك القصص الكثيرة . فكنّ اكبر بليّة على اخلاق فتيان ذلك العصر. وتوصلت عامة الشعب الى الخمر في الاديرة ، وفي حانات خاصة كان يديرها على الغالب يهود . وكانت تجارة الخمر على الجمـلة في أيدي النصارى واليهود .

« النظافة من الايمان » حديث نبوي لا يزال شائعاً على الالسن في البلدان الاسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات فيما نعلم قبل محمد الذي قيل عنه انه استنكرها ولم يسمح لاحد بدخولها إلا للنظافة وعلى شرط ان يكون متّزراً. أما في هذا العصر الذي نلمّ به فقد كثرت الحمامات العمومية وراج ارتيادها ليس للوضوء فقط بل للهو والترف أيضاً . وأجيز للنساء دخولها في ايام معيّنة . وقد فاخرت بغداد في اوائل القرن العاشر بسبعة وعشرين الفاً من هذه الحمامات العمومية ، وكانت في زمن آخر ستين الفاً . وهـذان الرقمان وسواهما من الارقام التي نجدها في المصادر العربيـة لا ريب مبالغ فيها . أما الرحالة المغربي ابن بطّوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧ فانه شاهد في الجانب الغربي من المدينة ثلاث عشرة محلة ، كل محلة فيها حمامان او ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزةً بالماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذٍ مثلها اليوم تحتوي خلواتٍ كثيرة مرصوفة بالفسيفساء مُطلى نصف حائطها مما يـلي الارض بالقار

والنصف الآخر الأعلى بالجص الابيض الناصع ، ومبنيّة حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . أما الغُرَف الخارجية فتُصطنع للاتكاء والاستراحة ولتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

والالعاب الرياضية ، كالفنون الجميلة ، كانت في كل العصور من ميزات المدنية الاوربية الهندية اكثر من السامية . فابن الصحراء العربية اعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها امراً سقيماً يتطلّب جهداً لا يتلائم مع حرّ الشمس الذي يتعرّض له في نهاره . ومن الالعاب الرياضية التي تعاطاها العربي في الخلاء الرماية والجوكان (لفظة فارسية معناها عصا معقوفة وهي « البولو ») والصوجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو اهمّها جميعاً. ومن المزايا التي وجب أن تتوفر في النّدَماء المهارةُ في الرماية والصيد ولعب الكُرة والشطرنج . وفي كل هذه الالعاب لم يكن من حَرَج على النديم فيما اذا ساوى سيده . ومن الخلفاء المغرمين بالجوكان المعتصم . وقد جعلَ يوماً الافشينَ قائدَه التركي في جهة وأقام هو في جهة فاستعفى الافشين قائلًا : « لا أرى أن اكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل » . وهنالك اشارات الى لعبة الطّبْطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلّها لعبة « التنس » في شكلها البدائي . والراجح ان اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع الى بلدة تِنّيس في الدلتا من اعمال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم .

وإنما يدلنا على اهتمام العرب بهذه الضروب من اللهو ما نجده من كتب قديمة تبحث في موضوعات الصيد ونصب الشراك وترويض البزاة . وقد دخلت تربية البُزاة والبواشق واستعمالها للصيد الى الجزيرة عن طريق فارس كما تشير الالفاظ المستعملة لها . وشاعت على التخصيص في أواخر هذه الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية . ولا يزال النـــاس في فارس والعراق وسورية يصطادون الباز والباشق على الطريقة الموصوفة في « الف ليلة وليلة » . وعلى الصياد المسلم ان يبادر الى ذبح فريسته قبل موتها وإلا حرّم عليه اكلها.

وكان الخليفة مع أفراد أسرته عـــلى رأس اصحاب المكانة الاجتماعية ، يتلوهم كبار الموظفين ومن لاذ بهاتين الفئتين من ضباط وحرس وأصدقاء مقربين وندماء وموالٍ وخدم .

وكان اكثر الخدم من الشعوب غير المسلمة يؤخذون قسْراً أو يؤسرون في الحرب أو يُشتَرَوْن في السلم وفيهم الزنجي والتركي وآخرون من البيض . وكان معظم العبيـــد البيض من اليونان والصقالبة (السلاف) والارمن والبربر ومنهم الخصيان المُلحقون بالحريم خداماً . أما الغلمان وفيهم الخصيان ايضاً فكانوا موضوع عناية خاصة من اسيادهم الذين البسوهم حللاً جميلة على طراز واحد وجعلوهم يتزيّنون ويتطيّبون الى درجة التخنّث. واذا كانت بعض الكتب قد اشارت الى وجود الغلمان في عهد الرشيد فالراجح ان الامين كان اول من أنشأ نظام الغلمان في العالم العربي لغاية اللواط اقتداءً بالفرس . ولقد عاش في زمن المأمون قاضٍ افتُضح باللواط فجاهر باربعمئة غلام مُرْد حسان الوجوه كانوا له . ولم يستنكف

الشعراء كأبي نواس من النظم في المُرْد ومدح اللواط والمجاهرة بميولهم الجنسية الشاذة .

واتخذ سراة القوم الجواريَ من طبقة الأرقّاء مغنّيات وراقصات وسراري . وكان لبعضهنّ تأثير محسوس في سادتهن من الخلفاء كذات الخال التي اشتراها الرشيد بسبعين الف درهم ثم هاجته الغَيْرة ذات يوم فوهبها أحدَ وصفائه . وعلق الرشيد جاريةً أخرى فأهدته زوجُهُ زبيدة عشر جوار لتُبعده عنها ، فولدت له احداهن المأمون وأخرى المعتصم . وكانت بعض هذه الجواري من المثقّفات الرّاسخة اقدامهن في العلم والأدب وتروي قصة خرافية في « الف ليلة وليلة » ان الرشيد عرض مئة الف دينار ثمناً لتودّد الجارية الجميلة الموهوبة بعد ان اجتازت بتفوّق إمتحاناً صعباً وضعه العلماء في الطبّ والفقهِ والفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات فضلاً عن علوم المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن . ويُعرف عن الأمين انه نظّم كتائبَ من الجواري الحسان فقصّ شعورهن والبسهن ثياب الغلمان وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية فسُمينَ الغُلاميّات . وقد راجت سوق هذه البدعة بين الخاصة والعامة من الناس . روى شاهد عيان انه دخل يوماً على المأمون في أحد آحاد الشعانين فرأى بين يديه عشرين وصيفة يونانية متزينات بالديباج يرقصنَ وفي اعناقهن صُلبان الذهب وفي ايديهن اغصان الزيتون وسَعَف النخل حتى اذا انتهت هذه الحفلة الراقصة أمر الخليفة بأن توزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

وتقول بعض المصادر انه كان للمتوكل اربعة آلاف سُرّيّة

شاطرن فراشهُ وهو قول يصعب تصديقه . وجرت بين العمّال والقوّاد عادة اهداء الخليفة او الوزير هدايا تشتمل على الفتيات اللواتي يأخذونهنّ من الرعية وإلاّ حسب الخليفة تخلّفهم عن ذلك علامةَ العِصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عاليــة لها بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنّانون والتجار والصنّاع واهل المهن الحرّة ، وطبقةٍ سُفلى مؤلفــة من سواد الشعب وهم الفلاّحون ورُعاة المواشي واهل الرِّيف وهؤلاء اهل البلاد الأصليون الذين اصبحوا الآن اهلَ الذمّة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من علوّ في المدنيّة قضى بنشوء تجارة عالمية واسعة تقلّد زعامتها الباكرة النصارى واليهود واتباع زرادشت ، ليعود المسلمون بعدُ فيتفوّقوا فيها ، إذ انهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . وما لبثت ان اصبحت مرافيء بغداد والبصرة وسِيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز نشيطة للتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتى الصين فاستجلبوا الحرير الصيني الفاخر ، وهو أقدم ما أتحف به الصينيون العالمَ الغربي . وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت « بطريق الحرير العظيمة » مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من يطرقها من المسافرين والسيّاح حتى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرّواحل .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل ده لسَبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرّزوا في ميدان تجارة البحر المتوسط ولم تنل تجارتهم على شواطيء البحر الاسود فلاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في انحاء الفولكا شمالا . وكانت تجارتهم على شواطيء بحر قزوين نشيطة جداً لقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الداخلية الآهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يحملون التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والادوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم امتعة كثيرة من التوابل والكافور والحرير من اقاصي آسيا ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

أما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك المال في عصرنا هذا . ولا ادل على ذلك من حكاية ابن الجصّاص الجوهري ببغداد إذ ظل له من الثروة بعد ان صادر الخليفة المقتدر أملاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو اول مُثرٍ في اسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نَقلت بواخرهم البضائعَ الى الاصقاع النائية يُنيف على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر أمي صاحب مطاحن بتصدّقه اليومي على الفقراء بمبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سِيراف ينفق على داره اكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً . وأثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعةَ ملايين دينار .

ولولا الاهتمام بالصناعة الوطنية والزراعة لما بلغ التوسع التجاري هذا المدى . فازدهرت في كثير من انحاء الامبراطورية صناعة اليد، وانحصرت في آسيا الغربية صناعات حياكة السجاد والقطن والصوف والأطلس والاقمشة المطرزة والارائك وأغطية المساند وغيرها من قطع الرياش وأواني الطعام . واشتهرت أنوال الحياكة في فارس والعراق بصنع البسُط والمنسوجات الفاخرة . وكان لأم الخليفة المستعين سجادة صُنِعت خصيصاً لها بلغت نفقاتها مئة وثلاثين مليون درهم ، وعليها صور مختلفة فيها الطيور الذهبية ذات العيون من الياقوت وسواه من الاحجار الكريمة . وكان في بغداد حيّ يدعى بالعتّابي نسبةً الى امير أموي كان من قاطنيه . فاصبح النسيج المخطط المصنوع فيه والذي ظهر لاول مرة في القرن الثاني عشر يُعرف بذلك الاسم « العتابي » . ثم اخذ عرب الاندلس في تقليد حياكته حتى اشتهرت لفظة « تابي » في فرنسا وايطاليا وسواهما من اقطاراوربا الى ان دخلت اللغة الانكليزية التي تُطلق فيها هذه اللفظة على القِطط المخططة الجلد. وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية لباساً للرأس وهي المعروفة ليومنا هذا بالكوفية . وكان في تُستَر والسوس بخوزِستان (سوزيانا القديمة) معامل عديدة شهيرة بزركشة الدمَقْس (وهو نسيج صنع أصلاً في دمشق) الموشى بالذهب ، والستائر المصنوعة من الخز . أما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الابل والمعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة الانتشار . وأصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة الناعمة الشفافة والمنسوجات المقصبة . وكانت سيدات العصور

الوسطى الاوربيات يبتعن من الأسواق الحرير الفارسي المعروف بالتافته (وهي كلمة فارسية) .

أما زجاج صور وصيدا وغيرهما من مُدُن الشام فقد ضُرب المثل برقتهِ وصفائهِ . ولقد تحدّرت صناعة الزجاج هذه من الفينيقيين الذين برعوا بها وكانوا أقدم من تعاطاها بعد المصريين . وتعرّف الأوربيون الى هذا الزجاج عن طريق الحملات الصليبية فأصبح مثالاً لصنع الزجاج الملوّن الذي كانوا يزينون به كنائسهم . وشاعت الأواني الزجاجية الملونة من صنع الشام حتى صارت من لوازم المنزل والرفاهية ، فكثر الطلب عليها في البلدان العربية .

ومما يستوعي النظر ان صناعة ورق الكتابة دخلت البلدان العربية في أواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند . وكان وَرَق سمرقند التي استولى عليها المسلمون عام ٧٠٤ منقطع النظير بجودته . وقبل اختتام ذلك القرن شاهدت بغداد اول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل أخرى . وظهر اول معمل للورق في مصر حوالي سنة ٩٠٠ او قبيل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ، وفي اسبانيا حوالي سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروبٌ مختلفة من الورق منها الابيض والملون . ووصلت صناعة الورق إلى اوربا المسيحية خلالَ القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الاندلس وايطاليا . وكان للورق اهميته الكبرى لا سيا عندما اخترعت الطباعة بالحروف المتحرِكة بين عامَي ١٤٥٠ و١٤٥٥ اذ سهّل الاثنان انتشار العلم والتهذيب العام انتشاراً لا تزال اوربا واميركا تتمتعان الى اليوم بحسناته .

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الأوائل انتعاشاً محسوساً لان عاصمتهم بغداد قامت في بقعة خصبة من السواد ، ولانهم أدركوا ان الفلاحة تدر على الدولة اهمّ موارد الدخل، ولاَن حراثة الارض وجني خيراتها كان معظمه في ايدي اهل البلاد الاصليين الذين كانت قد تحسنت حالتهم نوعاً ما في عهد المسلمين . وعاود العمران المزارعَ المهجورة والقرى الخربة في انحاء الامبراطورية. وقد وجهت الحكومة المركزية عناية خاصة الى القسم الأسفل من وادي دجلة والفرات، وهو بعد وادي النيل اكثر البلاد خصباً حتى اعتبرته التقاليد البقعة التي قامت فيها جنة عدن. وقد شُقت للماء أقنية من الفرات تألفت منها شبكة متسعة . أما ما يقوله جغرافيو العرب عن حفر الخلفاء للاقنية أو فتحهم للانهار فلا يؤخذ به بحرفه لان اكثر الاقنية التي ذكروها انما كانت أقنية أعاد الخلفاء حفرها أو فتحها ، ويرجع عهدها الى زمن البابليين القدماء . وقد انحصر الامر في العراق كما في مصر في حفظ الاقنية الراجعة الى عهد البابليين والفراعنة . ولما عهدت الحكومة العثمانية الى السر وليم ولكوكس قبيل الحرب العالمية الأولى درس مسائل الري في العراق أشار في تقريره بتنظيف مجاري المياه القديمة وترميمها لا بشق مجار جديدة . ويجب ان لا يفوتنا هنا ان سطح الارض في السواد قد تغير كثيراً منذ ايام العباسيين ، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما كان عليه مراراً .

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا الغربية كانت معروفة لذلك العهد باستثناء التبغ والبطاطس والطماطم

وسواها من المزروعات التي دخلت البلدان العربيـــة في العصور الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الاوربية النائية . أما شجرة البرتقال فكان منبتها الاصلي ، كالأترج والليمون الحامض ، في شمالي الهند او ملقة ، ومنها امتدت الى آسيا الغربيـة والبلدان المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت اوربا عن طريق العرب في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيتها المشهورة في ساحل الشام على طراز المعروف منها في الجهة الجنوبية الغربية من فارس . ومن الشام اخـــذ الصليبيون قصب السكر وأدخلوه مع السكر الى اوربا . وهكذا تدرجت بطريقهـا الى اوربا هذه السلعة الطيبة التي قد يرجع اصلها الى مقاطعة البنغال في الهند ، فأصبحت من العناصر الـــتي لا يُستغنى عنها في مآكل الانسان المتمدن اليومية .

وكان دخل الدولة الرئيسي من طبقة الفلاحـين ، وهم أكثرية الشعب واهل البلاد الأصليون وقد عُرفوا باهل الذمة لانهم كانوا قد دخلوا في عهد الأسلام . أمـــا العربي فاستنكف عن تعاطي الزراعة وحسبها دون مقامه . وكان اهل الكتاب في باديء الامر ، وهم المعروفون بأهل الذمة ، يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم ألحق بهم اتبـــاع مذاهب أخرى . وأقام الذميون في أريافهم ومزارعهم متمسكين بثقافاتهم الخاصة القديمة ومحافظين على لغاتهم الأصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم وضع أهل الذمة هذا على الرغم مما عانوه في بعض الحقب من الاضطهاد الديني .

أما في المدن فقد تقلد النصارى واليهود مناصب سامية في دوائر

الحكومة من مالية وكتابية وغيرها من المهن . فأثار هذا غيرة المسلمين وحسدهم مما ادى الى سن شرائع تميز بين المسلم والذمي . الا ان هذه الشرائع بقيت « حبراً على ورق » ولم تنفذ الا في بعض الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الاموي المتدين اول من امر النصارى واليهود ان يرتدوا البسة تميزهم من المسلمين ، وحرمهم مناصب الدولة . والظاهر ان هذه الأحكام لم يعمل بها بعده الى ان جاء هرون الرشيد فأمر بتنفيذ بعضها . وقد بلغت المراسيم المتخذة ضد اهل الذمة اشدها في زمن المتوكل الذي امر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ ان يضع النصارى واليهود على ابواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً لمنازلهم عن منازل المسلمين وان يجعلوا قبورهم لا تعلو عن سطح الارض كي لا تشبه قبور المسلمين ، وأن يلبسوا الطيالسة (جمع طيلسان) العسلية وان يلصقوا رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر على ان تكون احداهما بين يدي المملوك عند صدره والاخرى على ظهره . ولم يرخص لهم بركوب غير البغال والحمير وباتخاذ السروج من الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج . وقد أطلق على الواحد من اهل الذمة لقب « الأرقط » اعتباراً لهذا اللباس الذي أمروا باتخاذه . ومن اشد أنواع الحيف التي انزلت بالذميين ذلك المرسوم الذي أفتى به متشرعو الاسلام في هذه الحقبة وهو ان شهادة النصراني واليهودي لا تقوم على مسلم ، مستندين الى ما جاء في القرآن من أن اليهود والنصارى حرفوا الاسفار المنزلة ولهذا لا يمكن الوثوق بهم . ولكن

النصارى على الرغم من هذه القيود تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية . ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين دعاة النصرانية وبين دعاة الاسلام في حضرة بعض الخلفاء من الامويين والعباسيين ومن تقلد بعض النصارى كرسي الوزارة في النصف الثاني من القرن التاسع . وكان كبار الموظفين من النصارى ينالون ما يناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل . فنحن نقرأ مثلاً ان بعض المسلمين اعترض على تقبيل ايديهم . ومما يسترعي النظر والاعجاب ان النصرانية حازت في ظل الخلفاء من النشاط والحيوية قدراً كافياً أهاب بكنيستها الى التوسع وارسال المبشرين الى امصار بعيدة كالهند والصين . ولم يزل في مالابار بجوار مدراس الى اليوم كنيسة مسيحية تنتسب الى مار توما وترجع اصولها الى هذا العهد . وفي سيان فو من اعمال الصين اثر حجري نصب عام ٧٨١ يحمل اسماء ستة وسبعين مبشراً من الكنيسة السريانية .

ولقي اليهود ، وهم ممن دخلوا في عهد الاسلام ، من حسن صنيع المسلمين فوق ما لقيه النصارى على الرغم مما جاء في بعض الآيات القرآنية من التنديد بهم . وكان منهم في ازمنة عدد من الخلفاء غير واحد تبوأ اسمى المناصب في الدولة كما كان لهم في بغداد نفسها مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة الى ان سقطت هذه المدينة في يد المغول . ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها سنة ١١٧٠ انه وجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً اهمها كنيس مزدان بضروب الرخام ومجمل بالذهب والفضة . وأفاض هذا الرحالة في وصف الاحترام الذي اصابه رئيس الحاخامين من المسلمين الذين

اعتبروه سليل النبي داود ورئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس اذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تشع بالجواهر ، وأحاط بـه رهطٌ من الفرسان وسار أمامه ساعٍ يصيح بأعلى صوته « افسحوا درباً لسيدنا ابن داود » .

هذه هي صورة مصغّرة لحياة الناس في عهـد الخلافة وعلاقتهم بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات العربية. كانت المرحلة الاولى هي المرحلةَ الحربية السياسية ،وكانت المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الاول من حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين الاسلامي . أما المرحلة الثالثة التي سنبحثها في الفصول التالية فتمثل فوزَ اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . إلا ان هـذه المرحلة كانت أبطأ المراحل إذ أبدت فيها الشعوب المغلوبة أشد مقاومة ، مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن دياناتهم إذا لزم الامر من التخلي عن لغاتهم .

والواقع انه تسنى للعربية الانتصار كلغةِ علمٍ قبل أن تسنى لها الانتصار كلغة تخاطبٍ . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف تسربت مجاري التفكير في الثقافات اليونانية والفارسية والهندية الى بغداد في القرن التاسع فجاءت أساساً لظهور ثقافة جديدة . وبهذا أصبحت اللغة العربية أداة للتعبير عن المدنية العربية فكان ذلك بدء العصر الثقافي الذهبي في الاسلام .

العلوم والآداب

وصلنا الآن الى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية أداة للتعبير عن العلوم المستجدة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتاريخ والأخلاق والأدب . ولقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن التاسع على أثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠ – ٨٥٠) ، فجاءت طائفة باعلام العلم والادب الذين نفحوا المدنية بالشيء الكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليومَ منهم إلا نفراً معدودين.

لم يكتفِ العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما الى التكييف والتجديد . فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث فارس الفني وتراث اليونان العلمي على ما كانا عليه بل حوروا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وبعد أن طُبع ما ترجموه بطابع العقلية

العربية في خلال قرون عدة انتهى أخيراً مع ما ابتكروه الى اوربا ،عن طريق سورية واسبانيا وصقلية ،فصار أساس العرفان الذي دان له الفكر الاوربي في القرون الوسطى . على ان نقل الافكار والعلوم ليس في تاريخ الثقافة بأحط مقاماً من الابتكار. فلو أن أبحاث ارسطو وجالينوس وبطليموس فقدت لافتقر العالم اليها وكأنها لم تكن قط . ويتعذر في غالب الاحيان وضع حد فاصل بين المترجم والمبتكر ، فمن المترجمين من كان مترجماً ومبتكراً في وقت معاً .

وكانت اهم مبتكرات العرب في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافية والكيمياء ، فضلاً عن التاريخ والشرع والادب . واهتمام العرب بعلم الشفاء يدل عليه الحديث النبوي المشهور : « العلم علمان علم الاديان وعلم الابدان » . وقد جمع الطبيب العربي الى علمه بالطب المعرفة بما وراء الطبيعة وأصول الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذا العصر خطوات واسعة في الاستدواء بشتى العقاقير . فهم أول من أوجد حوانيت لبيع الادوية ، وأقدم من أسس مدرسة للصيدلة ، وصنف في الاقراباذين رسائل . وكان يفرض على الصيادلة والاطباء منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص . وعلى إثر سوء تصرف جرى من احد الاطباء أوعز الخليفة المقتدر عام ٩٣١ الى سنان بن ثابت بن قرة ، وهو طبيب مشهور ، ان يمتحن كل الاطباء ويعطي الاجازات الطبية لمن توفرت فيهم الاهلية فقط . فاجتاز الامتحان في بغداد ما ينيف على ثمانمئة وستين ، وبذلك تخلصت العاصمة من

الدجالين . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به علي بن عيسى الوزير في عهد المقتدر من ارسال بعثات من الاطباء تحمل الادوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين . وكانت بعثة من الاطباء تتفقد السجون يومياً . فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الامر بالصحة العامة وهو امرٌ لم يكن معروفاً في باقي اقطار العالم آنذاك . وفي مطلع القرن التاسع أسس هرون الرشيد أول مستشفى في الاسلام على الطِراز الفارسي . ولم يطل الوقت حتى نشأ في العالم الاسلامي مستشفيات أخرى بلغ عددها اربعة وثلاثين. ولقد شاهدت القاهرة أول مستشفياتها في ايام ابن طولون حوالي عام ٨٧٢ فبقي الى القرن الخامس عشر . أما المستوصفات السيارة فقد ظهرت أولا في القرن الحادي عشر . وكانت في المستشفيات الاسلامية أجنحة خاصة بالنساء ، وكان لكل مستشفى مستوصف مخصوص بـه . وكانت بعضها مجهّزة بمكتبات وتقوم بتدريس بعض الموضوعات الطبية .

وأشهر المؤلفين في الطب الذين ظهروا على إثر عصر الترجمة رجال فارسيو القومية عربيو اللغـة . ولاثنين منهم ، هما الرازي وابن سيناء ، اسمان تزدان بهما القاعـة الكبرى في مدرسة الطب في باريس .

ولعلّ الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥) أعظم الأطبـاء وأشدّهم ابتكاراً وأكثرهم إنتاجاً ليس في الاسلام فقط بل في القرون الوسطى قاطبةً . ومما يُروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي يجب ان يُبنى فيه مستشفى بغداد العظيم الذي كان هو رئيس الطبابة فيه.

فأمر ان يعلّق في كل ناحية من جانبي بغـــداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغيّر ولم ينتن فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يُبنى المستشفى فيها . والى الرازي ينسب اختـراع الفتيلة في الجراحة .

ومن أهمّ ما وضعه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي تداولته فيما بعد أيدي محررين عديدين. ولقد نقله الى اللاتينية جرارد الكرمُوني Gerard of Cremona فظل مرجعاً رئيسياً لعلم الكيمياء حتى القرن الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الانكليزي المعروف روجر باكون Bacon .أما رسائله فأشهرها رسالته في «الجُدَري والحصبة» وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفةً في علم الطب عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فانديك في بيروت عام ١٨٧٢ . بيد أن اشهر مؤلفاته على الاطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع نقله الى اللاتينية فرج بن سالم الاسرائيلي سنـة ١٢٧٩ برعاية ملك صِقلِّية . وقد طبعَت هذه الترجمة مرات أولها عام ١٤٨٦ في حين ظهرت طبعتها الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . والكتاب كما يدل اسمه موسوعــة طبية حوَت خلاصة ما كان في حوزة العرب من المعارف المستقاة من المصادر اليونانية الفارسية والهندية مع ما جاء به العرب انفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة . ولقــد ظلت مؤلفات الرازي هذه ــ التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة لا تزال في بدء عهدها ــ تسيطر على عقول اللاتين في الغرب قروناً عديدة .

وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتـاز بمواهب باهرة فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً

ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . ويقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت تسعةً وتسعين . أما مؤلفه الجليل « القانون في الطب » فقد كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية وأصبحت كتاباً مدرسياً تعتمد عليه دور العلم في اوربا . وفي الثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس عشرة طبعة لاتينية وطبعة عبرانية واحدة . ولقد نُقل بعضه حديثاً الى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة محتويات « القانون » ان قسماً منه يبحث في نحو سبعمئة وستين من العقاقير والأدوية . فلا عجب اذا أدرك هذا الكتاب تلك المنزلة التي أصبح فيها دليل طلاب العلوم الطبية في المشرق والمغرب حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعينون به احياناً

وأول عمل خطير قام به العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة مسببات الامور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول الى تحقيقه قوى الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها اخذها العرب بعد ان كانت قد تحورت بمؤثرات الشعوب المغلوبة وسواها من الشعوب الشرقية . فطبقوها على ميول الاسلام العقلية ونشروها عن طريق اللغة العربية . وحسب العرب ان مؤلفات ارسطو حوت مجمل التراث الفلسفي اليوناني كما حوت مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي . واعتقدوا ان القرآن وعلم الألهيات الاسلامي حوَيا مجمل الشرع والاختبار الديني . فشحذوا اذهانهم وأعملوها في الهامش المشترك بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاتحفوا

العالم بمبتكرات قيمة . ومما يخلد مجد الاسلام في القرون الوسطى ان اتباعه كانوا اول من نجح في تاريخ الفكر البشري في التوفيق بين فكرة التوحيد – الاعتقاد بآله واحد وهو اسمى ما جاد به العالم السامي القديم – وبين الفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جاد به العالم الهندي الاوربي القديم . وبذلك أرشد الاسلام اوربا المسيحية الى النظرة الحديثة في العلم والدين .

وكان العلم في العصور المتوسطة ، ولا سيما في العالم الاسلامي ، اقل تجزئة واختصاصاً مما هو عليه اليوم . فالفيلسوف مثلاً ربما كان رياضياً وموسيقياً ايضاً والفلكي قد يكون شاعراً . ولعل القارىء الذي يعهد عمر بن الخيام مؤلف الرباعيات شاعراً فارسياً ومفكراً حراً يذهل اذا سمع ان عمر كان رياضياً بارعاً وفلكياً ممتازاً . والكِنْدي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفاً فقط بل كان عالماً بالتنجيم والكيمياء والبَصَريات واصول الموسيقى . وقد سعى ، شأن اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، الى مزج آراء افلاطون وارسطو والتوفيق بينهما ، وحسبَ الرياضيات التي خلفتها مدرسة فيثاغورس المتأخرة أساس العلم على الاطلاق . وقد نُسب الى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتاباً اكثرها مفقود . ومن كتبه التي انتشرت في الشرق والغرب مؤلفه الفريد في علم البصريات وهو يستند الى مؤلف اقليدس في هذا العلم . وكان ممن تأثر بهذا الكتاب روجر باكون . ويستدل من رسائل الكندي في الموسيقى ان العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبلما عرفتها اوربا المسيحية بقرون .

وبدأت دراسة الفلك العلمية في الاسلام تحت تأثير كتاب هندي (السِّنْد هِنْد) اتى احدهم به الى بغداد في عام ٧٧١ . وفي مطلع القرن التاسع تمت أول أرصاد منظمة استخدمت فيها آلات دقيقة الضبط صُنعت في جنديسابور (من اعمال فارس الجنوبية الغربية) . وقُبيل منتصف هذا القرن شاد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد وآخر في ضواحي دمشق . وقد تجهزت المراصد في تلك الايام بآلات منها مقياس الارتفاع والأسطرلاب وساعة شمسية (مِزْوَلة) وكرة . ولقد أجرى فلكيو الخليفة المأمون عمليةً من أدق العمليات الجغرافية وهي قياس طول الدرجة الأرضية ، ورموا بذلك الى تحديد حجم الأرض ومحيطها على افتراض ان الأرض مدورة . والقياس الذي اجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكذلك بالقرب من تدمر أدى الى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح بسوى ٢،٨٧٧ قدماً .

وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية الخوارزمي ، وهو من اشهر رجال العلم في الاسلام ، وقد ترك اثراً بليغاً في الفكر الرياضي لم يتركه غيره في العصور الوسطى . وفضلاً عما قام به من جمع تقويم فلكي (زِيْج) وتنسيقه فقد أنشأ أقدم كتاب في الحساب وآخر في الجبر « حساب الجبر والمقابلة » وكلاهما منقول الى اللاتينية . ولقد بقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً رئيسياً للرياضيات في جامعات اوروبا حتى القرن السادس عشر . وبواسطته تطرّقت الى أوروبا مبادىء علم الجبر ومعه اسم هذا العِلم الذي اقتبسته كل اللغات الاوربية عن العربية . والى مصنّفات

الخوارزمي أيضاً يعود الفضل في نقل الارقام العربية (التي يسميها العرب الارقام الهندية دلالة على الاصل الذي اتخذوها منه) الى الغرب .

وكان أعظم ما أسداه العربُ إلى العلم بعد الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في علم الكيمياء الذي لم يزل يحتفظ باسمه العربي في جميع اللغات الاوربية . ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية أدخل العرب التجربة الموضوعية ، وهي خطوة تحسين راهن على تأملات اليونان الغامضة . إلا انهم على الرغم من اقتدارهم على ملاحظة المظاهر العلمية وجدّهم في جمع الحقائق وجدوا صعوبة في رسم النظريات السديدة واستخراج النتائج العلمية المحققة ، فكان هذا أضعفَ المواطن في طرق تفكيرهم .

وكان ابو الكيمياء العربية جابر بن حيّان الذي لمع نجمه في الكوفة حوالي ٧٧٦ . وقد وجه جابر اهتمامه إلى ما شُغِل به اسلافه في العلم من مصريين ويونان وهو حُسْبان ان المعادن السفلى مثل الحديد والنحاس يمكن تحويلها الى ذهبٍ أو فضة بواسطة مادة عجيبة جعل البحث عنها أمنيّتهُ الكبرى . ولجابر الفضل في أنه أول الكيماويين الذين نادوا باهمية البحث التجريبي وفي انه خطا خطوات واسعةً في سبيل التقدم الكيماوي من وجهتَيه النظرية والعملية . وتنسب اليه الروايات الغربية التقليدية الكشفَ عن عدة مركّبات كيماوية لم تذكرها المصنّفات العربية الاثنان والعشرون الباقية من المؤلفات المنسوبة اليه . والظاهر ان اكثر الكتب المئة التي تحمل اسمه في اللغتين العربية واللاتينية ملفق . ومهما يكن الامر فهذه

الكتب المنسوبة اليه أصبحت بعد القرن الرابع عشر أشد كتب الكيمياء تأثيراً في اوربا وآسيا . ومن المؤكد ان بعض ابحاثه العلمية تناولت التكليس (تحويل المعدن الى مسحوق أو رماد بواسطة الاحتراق) والتصفية . ولقد حسّن جابر في أساليب التبخّر والتصعد والتصبير والتبلور . وعرف طريقة تحضير الحامض الكبريتي العَكِر وحامض النيتريك العَكِر وعول على إخراج الماء الملكي (حامض نيترو هيدو كلوريك) من خليطهما الذي يمكن اذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدّل نظرية ارسطو في بسائط تركيب المعدن على اساس لم تدخل عليه تغييرات كثيرة الى أوائل عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر .

ومما أهاب بالعرب الى دراسة الجغرافية حوافز دينية . منها فريضة الحج وتوجيه القِبلة نحو مكة في بناء المساجد وضرورة تعيين القبلة بالضبط كي يولي العابد عند الصلاة وجهه شطر الكعبة . كما ان علم التنجيم الذي يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل موضع في الارض حدا باربابه على الاعتناء بالجغرافية . ثم ان تجار الاسلام كانوا قد بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصينَ في الشرق براً وبحراً ، وانتهوا الى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطىء افريقيا جنوباً ، وتوغلوا في روسيا شمالا ، ولم تصدهم في اسفارهم غرباً إلا أمواج « بحر الظلمات » (الاتلانتيكي) . فكان للاخبار التي عادوا بها تأثيرها في إثارة اهتمام القوم للاطلاع على أسرار البلدان القصية والشعوب الغريبة . ونُقلت « جغرافية » بطليموس الى العربية مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية . وعليها اعتمد

الخوارزمي الذائع الصيت في رسم خريطة دعاها « صورة الارض » ساهم في رسمها تسعة وستون عالماً . وهي اول خريطة في الاسلام تظهر السماوات والارضين . وكان اول جغرافي العرب قد اخذوا عن الهند فكرة القول بان للعالمين مركزاً اسموه أرين تحريفاً لكلمة أوجيني (أوزيني في جغرافية بطليموس) وهو اسم بلدة هندية قام فيها مرصد فلكي على خط طول قالوا ان قبة الارض فيه، وان أرين هذا انما هو على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب. ومما اعتقدوه ان قمة خط الطول في الغرب إنما هي على بعد تسعين درجة من هذه القبة الوهمية . واعتاد جغرافيو الاسلام عامة قياس خط الطول ابتداء من خط الطول الأول الذي عمل به بطليموس ، وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتّاب العرب على اصول الفلسفة والطب عند اليونان كذلك اعتمدوا على الاصول الفارسية في التاريخ والانشاء الادبي . أما أساليب التعبير فلم تخرج عن طريقة رواية الحديث الاسلامي . بمعنى ان كل حادثة كانت تُروى بلسان المحدثين من شهود العيان والمعاصرين ثم يتناقلها الحفاظ الى ان تصل الى راويها الاخير وهو المؤلف الذي يذكر سلسلة الاسانيد كلها . ولقد ساعد هذا على ضبط الحوادث وتعيين تواريخها بالشهر واليوم . إلا ان مبلغ صحة الرواية كان يقوم عندهم على مواصلة الاسانيد وعدم انقطاعها والثقة برواتها اكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . نعم ان المؤرخين تخيروا الثقات ورتبوا المدلولات غير ان اهتمامهم بتحليل هذه المدلولات ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً .

ومع ان مؤرخي العرب الفوا كثيراً في أحداث ذلك الزمن فان فضلى معالجاتهم التاريخية انحصرت في الحديث او علم التقاليد الدينية . وفي خلال مدة القرنين والنصف التي عقبت وفاة محمد ازدادت الاقوال والاعمال المنسوبة الى النبي فتضخم المجموع منها وغزرت مادته . وكان كلما نشب خلاف في الأسلام بين فريق وفريق ، سواء أكان دينياً ام سياسياً أم اجتماعياً ، حاول كل من الفريقين ان يؤيد دعواه بكلمة قالها النبي او حكم أصدره صحيحة كانت هذه الكلمة (أو هذا الحكم) أو ملفقة .

ولكل حديث قسمان : الأسناد والمتن . والمتن يتلو الاسناد ويتخذ شكل الاقتباس الحرفي : « حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان الخ قال ... » . وهذه الصيغة نفسها دَرَج عليها المؤلفون في كتابة التاريخ والادب . وفي كل هذه الموضوعات كان النقد عادة سطحياً مقصوراً على التثبت من صدق الرواة .

ولم يكن في القرون الوسطى بعد الرومان احدٌ غير العرب عُنِيَ بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلاً . والفقه عندهم مبني في الدرجة الاولى على القرآن والسُنة (اي الحديث) ولا شك في انه تأثر بالنظام اليوناني الروماني . وبواسطة الفقه اتصلت الشريعة ، أي أوامر الله المنزّلة في القرآن الموضّحة في الحديث ، بالاجيال اللاحقة .

وفروض الشريعة الاسلامية تنظم للمسلم حياته من وجهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية وتحدد علاقاته الزوجية والمدنية وشؤونه مع غير المسلمين . كذلك ادب السلوك يستمد التصديق

والنهي من لدن الشريعة التي تقسم أعمال الانسان الى خمسة ضروب هي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بدليل قطعي يُجزى فاعله خيراً ويُعذب تاركه . (٢) المستحَب مما يجزى فعله ولا يلام تركه . (٣) الجائز المباح . (٤) المكروه الذي يُستنكر ولو لم يعذب صاحبه . (٥) الحرام الذي يعذب فاعله .

والمؤلفات في علم الاخلاق المبنية على القرآن والحديث ، وان كثرت ، لا تستنفد كل ما في الآداب العربية مما يعنى بهذا العلم (الاخلاق) . وكانت هذه الفلسفات الاخلاقيه جميعاً تحبذ فضائل معينة كالزهد في الدنيا والقناعة والتحمل ، وتحسب الرذائل عللاً نفسية بحيث يتطلع الفرد المسلم الى فيلسوف الاخلاق تطلعه الى طبيب الجسم . أما ترتيب هذه العلل فقد قام على تحليل القوى النفسية وإخراج ما لكل قوة من فضيلة أو رذيلة خاصة بها .

أما أدب اللغة العربية بمعناه الضيق فقد بلغ أوجه حوالي العام الالف للميلاد . وإذ قد تأثر بالادب الفارسي مال الى التعمل والتأنق . وهكذا زال الايجاز والاقتصاد اللفظي وبساطه العبارة التي اتصف بها ادب العصور الاولى وحل محلها أسلوب الزخرفة والاناقة والتبسط في المجاز والاقبال على السجع . ومن أدب هذه الحقبة انتقى الغرب كتاباً واحداً أولاه اهتمامه هو كتاب « الف ليلة وليلة » واصله قصص فارسية قديمة نقلها الى العربية الجَهْشياري المتوفى عام ٩٤٢ . إلا ان القصاصين المتعاقبين أضافوا اليه قصصاً اخرى كثيرة . كما اضافوا اسم بطلة هذه الروايات « شهرزاد » . وعلى تعاقب الاجيال ألحقت بهذه المجموعة حكايات كثيرة جديدة

من مصادر لا تحصى – هندية ويونانية وعبرانيـــة ومصرية وشرقية مختلفة الصفات والالوان . وتطرّق اليهـــا أيضاً نوادر ونكات وغراميات من بلاط هرون الرشيد . بيد ان المجموعـــة التامة لهذه القصص ، وهي المتداولة اليوم ، لم تتخذ شكلها الحاضر حتى القرن الرابع عشر . والواقع ان الاقبال على هذا الكتاب هو في الغرب اكثر منه في الشرق .

وفي الوقت الذي وضع فيه كتاب « الف ليلة وليلة » في شكله العربي الناجز كان عصر الاسلام الذهبي في العلم والادب قد انقضى. ولم يقم العرب بعد العصر العباسي بتقدم ملحوظ في ايما علم طبيعي. ولو اقتصر مسلمو عصرنا الحاضر عـــلى المؤلفات الاسلامية التي بين يديهم لوجدوا ان ما عندهم منها أقل بكثيرمما كان عند أسلافهم في القرن الحادي عشر . فكأن العرب وصلوا الى حد معين في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والنبات وغيرها جمدت عنده قرائحهم ، وقعدوا منذ ذاك الحين لا يأتون بشيء غيرالمفاخرة بالماضي وتقاليده، سواء في الدين أو العلم ، مما قيد الفكر العربي بقيود محكمة . بيد ان العرب بدأوا يستيقظون في السنوات الاخيرة ويعملون عـــلى التفلت من هذه القيود .

الفنون الجميلة

إن شأن العربي في الفنون الجميلة كشأن سائر الساميين فله في فنه وشعره عناية خاصة بالدقائق وتقدير للتفاصيل وإحاطة بما هو نفسي موضوعي ، ولكنه بعيد عن المقدرة على موازنة الأجزاء المختلفة وضبطها وتنظيمها في كيان واحد شامل . وجهوده في الفنون كجهوده في العلوم انتهت باكراً الى حد من الارتقاء معلوم ، وذلك في القرن العاشر ، لم تتجاوزه فيما بعد باستثناء الهندسة المعمارية والتصوير والخط .

والعصر الاموي مخلد في بنائين يعدان من أبدع ما أبقاه الفن الاسلامي وهما المسجد الاموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس . ولكن صروح الابنية الرائعة التي ازدانت بها بغداد في العهد العباسي لم يبق لها اليوم من أثر خلا بناية المدرسة المستنصرية

التي شيدها الخليفة المستنصر عـام ١٢٣٤ وهي اليوم مستودع للكمرك. فالخراب الذي جرّته الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون والتدمير الذي أنزله بالعاصمة المغول سنة ١٢٥٨ وعوامل الفناء الطبيعية قد محت الأطلال والعمارات واصبح من المتعذّر اليوم تعيين مواقع معظمها بالتأكيد .

أما في غير بغداد العاصمة فأطلال العباسيين لا يمكن إرجاع عهد أقدمها الى ما قبل خـلافة المتوكل (٨٤٧ – ٨٦١) باني الجامع العظيم في سامرّا الذي بلغت نفقته سبعمئة الف دينار، وهو قائم الزوايا تدل قناطر شرفاته المتعددة على تأثير هـنـدي . والآثار العباسية الباقية في الرقة (من اعمـال سورية الشمالية) التي ترجع الى آخر القرن الثامن ،وفي سامرّا ،تمتّ الى التقليد الأسيوي بنسب ولا سيما هندسة البناء الفارسية ، على نقيض الابنيـة الاموية التي تحمل آثار الفن البيزنطي السوري .

ولقد جاء التعليم القرآني شديد الاستنكار لمعاقرة الخمر ، بيد انه لم يستأصل عـادة الشرب في المجتمع الاسلامي . كذلك فأن عداوة الفقهاء لأنواع الفن التصويري لم تحُل دون ارتقاء هـذا الفن على أساليب أسلامية . وقـد قدّمنا أن الخليفة المنصور أقام على قبة قصره تمثال فارس ربما كانت الغاية منه الاستدلال على جهات الريح . وكانت للخليفة الأمـين حرّاقات ، على دجلة في شكل الأسود والعقبان وفيلة الماء . وكان للخليفة المقتدر دار فسيحة ذات بساتين فيها شجرة وسط حوض ماء لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، وكانت تقوم على كلّ جانب من هذا الحوض تماثيلُ خمسة عشر فارساً

يلبسون الحرير المدبّج ويتقلدون رماحاً تتحرّك على الاستمرار وكأنهم في وطيس معركة حربية. أما الخليفة المعتصم باني سامرّا فقد زين جدران قصره بنقوش تظهر فيها أجسام نساء عارية ومشاهد للصيد لعلّها من عمل الفنانين النصارى. وفي عهد خلفه الثاني، المتوكل، بلغت هذه العاصمة الموقتة أوج مجدها. وقد استخدم المتوكل فنانين بيزنطيين لتزويق جدران قصره فلم يتورّع هؤلاء عن إضافة صور الكنائس والرهبان الى هذه التزاويق.

ان الفنون الجميلة، ومنها التصوير، لم تستعمل في الديانة الأسلامية كما هي الحال في الديانتين المسيحية والبوذية. فالاسلام قلما استخدم النحت والتصوير لمصلحته. وأقدم رسم يمثل النبي شاهده أحد السياح العرب في بلاط أحد امراء الصين، ولعله كان من رسم النساطرة. فهذا التصوير الاسلامي الديني المحـــدود لم يظهر كاملا حتى اوائل القرن الرابع عشر. والظاهر انه مشتق من فن الكنائس الشرقية، وبالاخص اليعقوبية والنسطورية، ومتّبِعٌ نماذجَ الزخرفة في الكتب.

وبمساعي الفرس الذين كانوا منذ اقدم العصور سادة فن الزخرفة والتلوين بلغت فنون الأسلام الصناعية درجةً راقية. فنمت حياكة السجاد، وهي تعود بقدميّتها الى زمن الفراعنة، وارتقت وخصّها المسلمون باظهار مشاهد الصيد والحدائق. واستعملوا حجر الشب في الصباغ لتثبيت الألوان. وكانت المنسوجات الحريرية المزخرفة من صنع أنوال المسلمين اليـدوية في مصر والشام موضوعَ إقبال اوربا حتى ان الصليبيين وغيرهم من أهل الغرب اختاروها دون سواها

لحفظ آثار قديسيهم .

وفي صناعة الفخـــار ، وهي فن آخر يرجـــع بقدميته الى عصور مصر القديمة وعصور سوسا ، أعاد المسلمون ثانية تمثيل صور الجسد البشري والحيوانات والنباتات والاشكال الهندسية والكتابية فبلغ هذا الفن أعلى درجة في الجمال بين الفنون الاسلامية . والآجر القاشاني المزوّق بانواع الزهور المألوف استعمالهـا دخل دمشق عن طريق فارس ، فذاع أمره وانتشر كما انتشر استعمال الفُسَيْفساء في زخرفة الابنية من الداخل والخارج . وقـــد امتازت الحروف العربية بقابليتها للزخرفة فأصبحت عاملاً كبيراً في الفن الاسلامي . وأتقن طلي الزجاج بالميناء وتغطيته بالذهب ولا سيما في انطاكيـة وحلب ودمشق وبعض المدن الفينيقية القديمة كصور . وفي خزائن متحف اللوفر والمتحف البريطاني والمتحف العربي في القاهرة قطعٌ فنية من سامرا والفسطاط فيها الصحون والاقـــداح والمزهريات والاباريق والقنـــاديل المستعملة في المنازل والمساجد مطلية طلياً زاهياً براقاً أو مصقولةً بمواد معدنية بهيئة تتماوج فيها ألوان قوس قُزَح .

وظهر فن الخط الذي يؤيده النص القرآني في القرن الهجري الثاني أو الثالث. ولقد استمدّ هذا الفن مكانته من نزوع أربابه الى تخليد كلام الله فاصبح فناً معززاً مرغوباً فيـــه . وهو فن أسلامي خالص يَنشد فيه المسلم واسطة للتعبير عما انطبع عليـــه من تذوق الجمال الذي حُظر عليـه التعبير عنه بواسطة التصوير . وقد كان للخطاط مكانة وكرامة لم يتمتع بها المصور حتى ان الحكام أنفسهم

سعَوا الى الحظوة الدينية بواسطة نَسخ القرآن . ولقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب العربية أسماء عـدد من الخطاطين وأغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف المهندسين المعماريين والمصورين وصناع الاواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعلّ فن الخط هو الفن العربي الوحيد الذي ظل مزدهراً الى يومنا هذا ، وله ممثلون من مسيحيين ومسلمين في القسطنطينية والقـاهرة وبيروت ودمشق جاءوا بمنتجات تفوق في جمالهـا وأناقتها أحسن ما أخرجه الاقدمون .

ولفنّ الخط وغيره من فنون الزخرف والتلوين وصناعة تجليـد الكتب إجمالاً يعود الفضل في نشوئها وازدهارها الى علاقتهـــا بكتاب الله . وقد وُلد فنّ زخرفة الكتب وتزيـين المصاحف في عهد العباسيين وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر .

ولم يحُل استنكار أهل الشرع لفنّ الموسيقى سواء أكان ذلك في دمشق ام بغداد دون انتشاره . وكان بلاط هرون الرشيد الزاهي شديد الاهـتمام بهذا الفنّ ، شأنه في الـــعلم والأدب ، فاجتمعت في جوّه كواكب الموسيقى المتألّقة . وقد زها في كنفه نفر من أقطـاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يساعدهم عدد كبير من الجواري والعبيد . وقد كان لهذه الفئة الراقيـة من اهل الفنّ آثار لامعة من النوادر والقصص المبالَغ فيها مما تخلّده صفحات « الف ليلة وليلة » . وفي الاخبار أنه اشترك في مهرجان موسيقيّ الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفـــة الرشيد . أما ابنه الأمين فقد أحيى مرة ليلة لهو رقَص فيها اهـل

البلاط ذكوراً واناثاً حتى مطلع الفجر .

ومن الذين خصّهم الرشيد برعايته المغني مُخارق الذي اشترته اول امره احدى المغنيات إذ سمعته ينادي بصوته القوي العذب على اللحم الذي كان يبيعه ابوه فأعجبت بصوته . ثم صار الى حوزة الرشيد فاعتقه ووصله بمئة الف دينار وادناه من مجلسه . ذكروا انه توسّط في إحدى الليالي دجلة واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من سامعيه إلا بكى . وظهرت الشموع والسُرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدّور تتساعى بين أيدي اهلها يستمعون غناءه.

وكان مُخارق وسواه من ارباب فنّ الموسيقى في تلك الأيام السعيدة من ندماء الخلفاء الذين خُلدت اسماؤهم. فقد حبتهم الطبيعة فضلاً عن الفن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة فاستظهروا الكثير بما رقّ من الأشعار ولذّ من النوادر والفكاهات . فهم اذاً مغنّون ونظّامون وشعراء ورجال علم على السواء . ويقع دون مرتبتهم الآلاتيّون الذين فضّلوا العُود على غيره ، ثم اولئك الذين استعملوا الرّباب . وتلت هؤلاء طبقة المغنيات اللواتي لعبن أدوارهن في الخفاء وراء الستار فأصبحنَ من لوازم الزينة في بيوت الحريم ، وغدا لتربيتهن وتثقيفهن صناعة هامة رائجة . وقد ربّى أحدهم جارية حتى برعت فجاءه رسول صاحب مصر فبذل فيها عشرة آلاف دينار، وساومه رسول امبراطور الروم عليها بثلاثين الفاً . ثم أوصلها رسول صاحب خراسان الى اربعين الفاً ، فما كان من مولاها إلا ان اعتقها وتزوجها .

ومن الكتب الكثيرة التي نُقلت في العصر العباسي الذهبي طائفة

عُنيت بتاريخ الموسيقى النظرية . ومن هذه استمد الكتّاب العرب آراءهم العلمية الأولى في الموسيقى فنشأت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادىء نظرية الصوت الطبيعية والفسيولوجية . أما من الناحية العملية فان نماذجها عربية بحتة . وفي هذه البرهة اقتبس العرب عن اليونان لفظة موسِيقي (وتُكتب الآن موسيقى) فأطلقت على مناحي هذا العلم النظرية . وخُصِصت لفظة الغناء القديمة – وقد كانت الى ذلك العهد تفيد الغناء والموسيقى – للفن العَمَلي . أما لفظة « قيثار » و« أرغن » وغيرهما من التعابير الفنية فهي من اصل يوناني . والمعلوم ان الأرغن جيء به من بلاد البيزنطيين .

ومما يؤسف له ان معظم هذه الرسائل الفنية فُقدت في لغتها الأصلية . والموسيقى العربية بعلاماتها وعنصريها المكوّنين لها، النغَم والايقاع ، كانت تُنقل من جيل الى جيل شفهياً الى ان تلاشى أمرها . فالأغاني العربية فقيرة بالأنغام غنية بالايقاع . وليس بين أرباب الموسيقى العربية الحديثة مَن يستطيع شرح الكتب القليلة الباقية في موضوع الموسيقى الكلاسيكية شرحاً وافياً وتفهّم ما قصده السّلف بعلامات إيقاعهم أو تعابيرهم العلمية . وفي مقدمة هذه الكُتب « كتاب الموسيقي الكبير » للفارابي التركي الأصل المتوفى بدمشق عام ٩٥٠ .

قرطبة جوهرة العالم

وفيما كان القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ينعم بعصره الذهبي كان القسم الغربي منها في الاندلس يتمتع بما لا يقل عن ذلك اشراقاً وقيمةً . وهذا العهد الاندلسي يهمنا لان الثقافة العربية تقدمت في اسبانيا المسلمة تقدماً لا مثيل له وتخللت الثقافةَ المسيحية في أوائل العصور الوسطى . فكان من نتيجة ذلك النهضةُ الاوربية الحديثة التي لم يزل أبناء الغرب ينعمون ببركاتها الى اليوم . وقد ازدهرت المدنية الاسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر . وعلينا قبل ان نسبر غور هذه المدنية ان نعود بقصتنا هذه الى عام سبعمئة وخمسين .

في ذلك العام كما أشرنا آنفاً قضى العباسيون على الدولة الاموية في دمشق . وما كاد يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة حتى اخـــذوا

يطاردون اعضاء البيت الاموي ويُعدمون كل من استطاعت ايديهم الوصول اليه .

وكان من الافراد القلائل الذين نجَوا بارواحهم عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاماً وهو شاب طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف بارزه خفيف العارضين أحمر الشعر يزدان بصفات الحزم والاقدام والطموح . تدرج بطريقه الى اسبانياً متغلباً على الصعاب ، وحارب من فيها الى ان اصبح سيدها المطاع . فاحتفظ هنالك بسلطة السلالة الاموية التي كان قد قضي عليها في الشرق .

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تمثل دوراً روائياً رائعاً . كان في احد الايام مختبئاً في مضرب خيام للبدو على ضفة الفرات واذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان. ففرّ للحال ورمى بنفسه الى النهر واجتازه . أما اخوه وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة فعجز في نصف الفرات عن السباحة وعاد الى مُطارديه مغروراً بالأمان. فأمسكوه وقتلوه وعبد الرحمن ينظر اليهم . ثم توارى في غيضةٍ حتى انقطع عن النظر .

هام عبد الرحمن على وجهه متنكراً دون مال أو اصدقاء. وسار متوجلاً جنوباً الى ان وصل فلسطين بعد صعوبات جمة . وهناك لحق به بدرٌ مولاه الوفي القديم فتوجه كلاهما غربا حتى وصلا شمالي افريقيا . وألحّ عامل افريقيا في طلبه فهرب منه غريباً معدماً يتنقل مع بدر من قبيلة الى أخرى وجواسيس الدولة الجديدة تجدّ في طلبه الى ان وصل سبته بعد خمسة اعوام . وكان اخواله وهم من

البربر يقيمون في تلك الانحاء . فلجأ اليهم فاحسنوا وفادته .

واتصل عبد الرحمن بالجيوش السورية المقيمة في الجهة الجنوبية من الاندلس عبر المضيق في الجهة المقابلة لسبته ، فبايعوه بالزعامة . وسار على رأسهم متوغلاً في البـــلاد فاخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط في يديه . وثابر على الجهاد بضع سنوات قبل ان خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وطيس احدى المعارك عَرَفَ شرلمان ملك الفرنجة بمــا اتصف به عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان هذا بمثابة حليف للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير الجديد المتغلِّب في اسبانيا . فبعث شرلمـان بجيشهِ في عام ٧٧٨ قاطعاً تخوم اسبانيا وتوغل في الجهة الشمالية من البـلاد حتى وصل سَرَقُسْطة . الا ان الجيش اضطر الى الانسحاب عندمـا اغلقت هذه المدينة ابوابها في وجهه وهدّد اعداء امبراطوريته الداخليون سلطة شرلمان في بلاده . وقد هاجم مؤخرةَ جيشه المتراجـــع في مضايق البرانس اهـــالي بلاد البشكنش (Basques) وغيرهم من الجبليين فأصيب جيش الفرنجة بخسائر فادحة في الرجال والمتاع . ومن القواد الذين قُتِلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفـة بأغنية رولان Chanson de Roland وهي اول ملحمة في الادب الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الاوربية .

ولكي يضرب على ايدي مناوئيه اضطر عبد الرحمن الى انشاء جيش منظم مدرّب قِوامه اكثر من اربعين الفاً من البربر المرتزقة . وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه بسخاء على

افراده من الاعطية . وفي سنة ٧٧٣ أبطل الخُطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة . وقد اكتفى هو ومن خلَفهُ الى ايام عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) بلقب امير او سلطان . وكانت الاندلس في عهد عبد الرحمن الاول اول الامصار التي خرجت على سلطة خليفة المسلمين .

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام الموقت عليها وجّه اهتمامه نحو السلم حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب . فجمّل مدن مملكته وابتنى للماء العذب قناة تحمله الى العاصمة التي احاطها بسور . وشيّد دارة (فيلاّ) الرّصافة في ظاهر قُرطبَة على نمط القصر الذي كان سلفه هشام قد بناه في الشمال الشرقي من الشام، وجر الماء الى هذه الجنة الغناء وأدخل فيها النباتات الاجنبية كالدراق والرمان . ورُوي انه جاء بنخلة من الشام فلما رآها منفردة بالرصافة انشد من نظمه :

تبدّت لنا وسطَ الرصافة نخلةٌ تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرُّب والنوى وطول التنائي عن بَنِيَّ وعن اهلي
سقتكِ غوادي المزن من صوبها الذي يسحُّ ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بعامين جامع قُرطبة العظيم مُضارعاً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكة . فاصبح هذا الجامع بعد ان انجزه خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب . وفي عام ١٢٣٦ تحوّل هذا الاثر الرائع بأعمدته القائمة المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة وبهوه الخارجي الفسيح الفخم الى كاتدرائية مسيحية لا تزال باقية الى يومنا هذا

باسم « لامسكيتا » La Mezquita تحريفاً للفظـــة « المسجد » . وفاخرت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي الكبيرجرى توسيعه من بعد فصار يقوم على سبع‌عشرة قنطرة. ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الاموية في الاندلس في مصالح رعيتـه المادية بل تعدتها الى المعنويات . فعبد الرحمن بذل قصارى جهـده محاولاً تشكيل امة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب والسوريين والبربر والنوميديين والعرب الاسبانيين والقوط . الا انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق. والحق ان الفضل يعود اليه من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيـــا المسلمة من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احـــد المركزين الهامين في الثقافة العالمية .

وكان البلاط الخليفي في ايام عبد الرحمن الثالث، وهو الشخصية الثانية البارزة في السلالة الاموية في الاندلس ، من افخم ما عرفته اوربا . فقد جاءت اليه رُسل امبراطور بيزنطية وسفراء ملوك المانيا وايطاليا وفرنسا . وبلغ عدد سكان العاصمة قُرطبة نصف المليون . وكان فيها سبعمئة مسجد وثلاثمئة من الحمّامات العمومية. ولم يكن يفوقها في الفخامة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية . وكان قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها الوف الرقيق والحرس . وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على احدى هضاب جبل الشارات (سِيَرّا مورينا) المشرف عـــلى الوادي الكبير. وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائهِ عام ٩٣٦ بمال خلّفته ، على ما تقول الاساطير ، احدى جواريه الـتي اوصت ان

يُنفق هذا المال لافتداء الأسرى من ايدي النصارى . ولما لم يجد عبد الرحمن منهم احداً عمل بنصيحة جارية اخرى اسمهـــا الزهراء وابتنى هذا الصرح وسماه باسمها وجاء بالرخام له من نوميديا وقرطجنة . اما الاعمـــدة والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد اسْتجلب بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاءه هدية من امبراطورها. واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسمئة دابـة مدة عشرين سنة . وقام الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسّعوا الزهراء وحسنوها حتى اصبحت نواة لضاحية ملكية عامرة لم تزل آثارها ماثلة الى الآن . وقد اجريت الحفريات في قسم منهـا عام ١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احاط الخليفة نفسه بحرس من الصقالبة عدده ٣٧٥٠ رجلاً يقومون على رأس جيش نظامي بلغ مئة الف . وكان هؤلاء الصقالبة في اول الامر اسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب. ثم اطلِق هذا الاسم عـلى جميع الاجانب الذين اشتراهم العرب سواء أكانوا من الفرنجة ام الجليقيين أو اللامبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحـــداثاً ثم يستعربون . وبمساعدة هؤلاء « الانكشارية » أو « المماليك » في اسبانيا استطاع الخليفة القضاء عـــلى الخونة وقطاع الطرق وإضعـــاف نفوذ الارستقراطية العربية القديمة . لذلك زهت سوق التجارة والزراعة وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخـل خزانة الخليفة ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ ديناراً. فكان ثلث هـذا المال يُنفق على الجيش وثلثه على المشاريع العامة والثلث الاخير يدخر رصيداً احتياطياً . ولم تعرف قُرطُبة

من قبل مثل هذا الرخاء . ولم تحز الاندلس قط مثل هذه الثروة . ويعود معظم الفضل في ذلك كله الى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرّح في اواخر ايامه انه لم يصفُ له من الدنيا إلا اربعة عشر يوماً .

كانت السلطة في العالم الاسلامي في عهد كلٍ من دوله متقلقلة متزعزعة . ففي اسبانيا احتفظت الدولة الاموية بالسلطة الاسمية منذ فرضها عليها عبد الرحمن الاول . غير انه لما ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الاهلية والثورات القَبَلية وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة فعلت مفعولها في هذه الدولة فتقلصت ولم يبقَ منها الا قرطبة وضواحيها .

وخلف عبدُ الرحمن الثالث هذا جدّه عبد الله، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً . وكان كسلفه ذا عزم ومضاء وفطنة . فنشط لاسترداد الضائع من الامصار فاخضع المقاطعة بعد الاخرى وادار الشؤون بحنكة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن (٩١٢- ٩٦١) وهو من اطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة . وكان أهم حادثة سياسية في اوائل عهده إصداره امراً بان تكون الخطبة ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ باسمه خليفةً واميراً للمؤمنين لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الاموية في اسبانيا . وفي عهده وعهد خلفه الحَكَم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦) وتحت ادارة حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ – ١٠٠٢) بلغت السلطة الاسلامية في الغرب اوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها أعظم مدن اوربا ثقافةً ،

فاصبحت مع القسطنطينية وبغداد احد المراكز الثلاثة للثقافة العالمية . واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مئة وثلاثة عشر الف دار، وواحد وعشرون رَبَضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة ، وحوانيت شتى تباع فيها الكتب ، ومساجد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، واخذت من اهل الاسفار بمجامع القلوب، ونعمت بشوارع طولها اميال مضاءة بقناديل المنازل المحاذية ، في حين ان لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي الى بعد سبعمئة سنة . أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان الذي يتخطى فيها عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجّة من الوحل .

أما وجهة نظر العرب الى الاوربيين في الشمال – الجرمان النورديين – وغالبهم همج فيمكن الاستدلال عليها بما قاله صاعد بن احمد القاضي الطُلَيْطُلي المتوفى عام ١٠٧٠ :

« فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثّف جوّهم، فصارت لذلك امزجتهم باردة وأخلاطهم فجّة ، فعظمت ابدانهم وابيضّت الوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة . »

وكان أمراء ليون أو نافارا وبرشلونة اذا احتاجوا جرّاحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة ولّوا وجوههم شطر قرطبة . فذاع صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بانها « جوهرة العالم » .

وكانت اسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان اوربا ثروةً واشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر الف حائك

وبصناعة راقية للجلود. ومن اسبانيا سرت صناعة صبغ الجلود وتزيينها بنقوش بارزة الى مراكش، ومن هذين القطرين انتقلت هذه الصناعة الى فرنسا وانكلترا. اما الحرير والصوف فكانت الانسجة تحاك منهما ليس في قُرطبة فقط بل في مالَقَة وألمَرِية وسواهما من العواصم. وكان اهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير الى ان ادخل المسلمون الى اسبانيا صناعة تربية دود القزّ حيث زهت وازدهرت وكانت ألمرِيّة تُنتج الاواني الزجاجية والنحاسية. أما موطن صناعة الخزف فكان في باتِرْنا من اعمال بَلَنسِية. واشتهرت جِيان والغرب بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قُرطبة بالحديد والرصاص ومَالقَة بالياقوت. وكانت طُلَيْطُلة كدمشق معروفة في كل اقطار المعمور بسيوفها. اما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزويقها بصور على شكل الزهر، وهو فنّ منقول من دمشق، فقد زها في بضعة مراكز اسبانية واوروبية وترك اثراً في اللغة تدل عليه الفاظ في اللغات الاوربية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق.

ولقد ادخل العرب الى اسبانيا الاساليبَ الزراعية المتعارَفة في آسيا الغربية. فاحتفروا الترع وادخلوا أجناساً جديدة من العنب وجاؤوا بنباتات واثمار منها الارز والبرقوق (المشمش) والِفرْسِك (الدراق) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن والزعفران. وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا قد خصتها الطبيعة بأقليم معتدل وتربة صالحة، فنشأت فيها مراكز هامة للزراعة في المدن والارياف. ونمت فيها كل انواع الحبوب وكذلك الزيتون

وانواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الارض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين .

ويُعَد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس. ومن اثار العرب الخالدة في الاراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال الى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية . ومن اشهر الحدائق « جنة العريف » وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار فخمة في اطراف الحمراء . وكانت هذه الجنّة على ما وصفها ابن الخطيب « المثل المضروب في الظلّ الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل » . وقد ترتّبت اقسامها شرفات فظهرت كأنها مُدَرّج (امفِثياتر) بديع التنسيق ترويها مياه الجداول التي تتساقط في عدة شلاّلات ثم تتوارى بين الزهور والادغال والاشجار . وهي لا تزال الى اليوم عبارة عن مجموعة باذخة من السرو والآس .

وفاضت حاصلات الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت إشبيلية ، وهي من اهم الموانىء النهرية ، تصدر القطن والزيتون والزيت وتستورد الاقمشة والرقيق من مصر والقيان من اوربا وآسيا . وشملت صادرات مَالَقَة وجِيان الزعفرانَ والتين والرخام والسكّر . وسارت حاصلات اسبانيا بطريق الاسكندرية والقسطنطينية حتى بلغت اقصى اسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الالفاظ التي تُعرِب بها لغات اوربا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير الى سيادة العرب الماضية في البحار

كـ «اميرال» admiral (امير البحر) و « أرسِنال » arsenal (دار الصناعة) . و« كابيل » cable (حَبْل) .

وتولّت الحكومة تنظيم البريد وسكّت النقود متّبعة فيها النماذج الشرقية . فكان الدينار اساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالا وظلت هذه البلدان طيلة اربعمئة سنة وليس لها من المسكوكات الا العربية والفرنسية .

على ان مجد هذه الحقبة لم يكن في حَلْبة السياسة بل في الثقافة. فكان الحكَم نفسه خلف عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره . فاجرى على العلماء المرتبات وابتنى في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية . وفي عهده ازدهرت جامعة قُرطُبة التي أسسها سلفه في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم ، فسبقت بتأسيسها الازهر في القاهرة والنظامية في بغداد. واخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من اسبانيا فقط بل من بلدان اوربية اخرى ومن افريقيا وآسيا . ووسع الحكَم نطاق المسجد الذي قامت الجامعة بين جدرانه واجرى اليه الماء في انابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مَهَرة الصناع البيزنطيين . واستدعى الى هذه الجامعة اساتذة من الشرق ووقف اموالا خاصة يُنفق ريعها على مرتباتهم .

وضمت العاصمة –عدا الجامعة– مكتبة من الدرجة الاولى في سعتها. وكان الحكَم من غواة الكتب فتفقد عمالُه مكاتب الاسكندرية ودمشق وبغداد قصدَ ابتياع المخطوطات أو نَسْخها . وجلبوا منها

الى الاندلس الشيء الكثير فبلغ عـدد المجموع من الكتب اربعمئة الف، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيهـــا اسماء الدواوين الشعرية . واستوعب الحكم ، ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتها قيمةً لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة . وبذل في « كتاب الاغاني » لمصنّفه ابي الفرج الاصفهاني الاموي الاصل الفَ دينار فارسل اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه في العراق . وبلغت درجـــة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا العالم الهولاندي الكبير دوزي Dozy الى القول ان « كل فرد تقريباً (من افراد الاندلس) كان يُحسن القراءة والكتابة » . كل هذا بينا كانت اوربا المسيحية لا تعرف من العلوم الا مبادىء بسيطة اكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين .

فضل العرب على المدنية الغربية

يستدلّ على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والادب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على ابواب معاهد العلم في الاندلس «العالم يقوم على اربعة اركان : معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع .» ومما يلفت النظر ان المعرفة جاءت في هذه العبارة ، التي تصف المُثُل العليا الاسلامية في اوربا ، في المقدمة .

ولقد كان لقوة العرب الحربية أثرها الفعال في العالم الغربي ولكنه أثر لم يدم . والدين الاسلامي لم يستهوِ خيال الاوربيين كثيراً . على ان العدل العربي ترك وراءه سوابقَ يستشهد بها الاوربيون . اما العلم الاسلامي فقد دخل الفكر الاوربي من نواح عدّة . ذلك بان الاندلس سطرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الاوربية . فبين منتصف القرن الثامن ومطلع

القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربيـة اللسان في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبـة . وبواسطة جهود هذه الشعوب أيضاً تسنى لعلوم الاقدمين وفلسفتهم ان تعود الى اوربا مشروحةً ومضافاً اليها . فسهّل هذا السبيلَ لنشوء عصر النهضة في اوربا الغربية . ولعـل اعظم علماء الاندلس واكثرهم ابتكاراً عليّ بن حزْم (٩٩٤ – ١٠٦٤) وهو احـد الاثنين أو الثلاثة الذين يُعتبرون اخصب مؤلفي الاسلام واغزرهم مادة . وقد نسب اليـــه ابن خَلكان والقِفْطِيّ اربعمئة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم. أما أنفس كتبه الباقية إلى الآن وافيدهـــا فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » الذي يؤهّل مؤلفه لاحتلال مركز الاوليـــة بين العلماء الذين عُنوا بدرس الاديان على سبيل النقد والمعارضة . وفي هـذا الكتـــاب لفت ابن حَزْم الانظارَ الى بعض مشاكل في قصص التوراة لم يتنبّه لها فكر احـــد من العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

اما في النثر فالحكايات والروايات والقصص الادبية التي اخذت تزدهر في اوربا الغربية خلال القرن الثالث عشر يظهر فيها بلا ريب تأثير الكتُب العربية السابقة سواء أكانت هندية ام فارسيةالاصل. اما حكايات « كليلة ودمنة » الممتعة فقد نُقلت الى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ – ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نُقِلت الى اللاتينية بقلم يهودي متنصّر . ثم اصبحت ترجمتها الفارسية عن طريق الافرنسية احد مصادر لافونتين حسبما

اقرّ لافونتين نفسه . وتمت القصة الاسبانية الساخرة (بيكارسك) picaresque بنسب واضح الى المقامة العربية وما اتصفت به من السجع وتضمنته من ضروب التزويق اللفظي وما رمت اليه من مغزى ادبي يستخرج مـــن سرد مجازفات بطل القصة المغوار . وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩ – ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢) . وظلت هذه المقامات نحو سبعة قرون اروع مثال في الادب العربي بعـد القرآن . إلا ان اعظم فضل للغة العربية على ادب العصور الوسطى الاوربية كان في اسلوبها الذي ساعد على تحرير المخيّلة الغربيـة من الانظمة الضيقة الجامدة التي قضى بها التقليد الموروث . وينمّ الادب الاسباني بما فيه من خيال وافر عن نماذج عربية تدل عليها النكتة في كتاب « دون كيخوتِه » Don Quixote الذي قضى مؤلفـــه سِرفنتيس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى على سبيل الدُعابة ان كتابهُ يرجع الى اصل عربي .

وحيثما حلّت اللغة العربية وفي اي عصر انتشرت كان ولـع ابنائها في الانشاء الشعري فيها شديداً وتناقل متكلموها على الالسن ابياتاً منهـــا لا تحصى اصبح بعضها موضوع اعجاب الرفيع منهم والوضيع . وهذا الطرب الشعري الذي يستملك شعور الناطقـين بالضاد بفضل عذوبة الالفاظ وحسن السبك وبديع المعاني تجلّى في الاندلس . فقد كان الامـير الأموي الاول عبد الرحمن شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء ممتازون في بلاطاتهم اصطحبوهم في اسفارهم وحملاتهم الحربيـة . وفاخرت

إشبيلية باكبر عدد من الشعراء الظرفاء الملهمين مع ان آلهة الشعر كانت استقرّتِ لزمن طويل قبل هذا في قُرطُبة وانتقلت الى غَرناطة لما كانت هذه حصناً للاسلام .

ومن افذاذ الشعراء ابو الوليد احمد بن زيدون (١٠٠٣–١٠٧١) الذي ينتمي الى بني مخزوم ، وهم فرع من قريش . ويعدّه بعضهم اعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في اول امره يقوم على خدمة ابن جَهْوَر راس حكومة قُرطُبَة الى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشقُ ابن زيدون للشاعرة الولّادة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى الى ان انتدبهُ المعتضِد العَبّادي لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمّي بذي الوزارتين – وزارةِ السيف ووزارة القلم . وكانت الولّادة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ اديبة شاعرة بالغةً الغايةَ في الظرف وحسن المنظر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار العصر . ولقد اظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب . فخصّ المَقّرِيّ جانباً كاملاً من كتابهِ « نفح الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يُعلَم ان البراعة في اهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم »

وتحرّر الشعر العربي الاندلسي إلى حدّ معلوم من قيود التقليد فنشأت له أوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسّس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة . وتجلّت في أغانيه القومية واناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، بقيت

اواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

واستثار الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة اعجاب النصارى الاندلسيين ، فاصبح من العوامل الفعالة في طبعهم بطابع المدنية العربية. ومن الزجَل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون كثيراً في أناشيدهم الدينية ومن بينها أغاني عيد الميلاد . ولم يزل إلى الآن في لبنان شعراء عاميون يرتجلون ما يسمونه زجلاً وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الاسباني العُذْري ، باكراً في القرن الثامن، من اسلوب خاص تتجلى فيه مؤثرات الشعر العربي . وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على اتم النضج حتى آواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فياضة بالحب الخافق تعبر عن لغة مترعة بالمجاز المعنوي والخيال البعيد . وقلّدت جماعة التروبادور التي زهت في القرن الثاني عشر معاصريها الجنوبيين من منشدي الزجل . واتباعاً للانموذج العربي اصبح التغزل بالمرأة شعراً ،أمراً مألوفاً في اوربا الجنوبية الغربية . أما « أغنية رولان » وهي انبل تراث في الادب الاوربي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة ١٠٨٠ مؤذنةً بطلوع شمس مدنية جديدة — مدنية اوربا الغربية — والاغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا.

ولقد قام التعليم الابتدائي في البلدان الاسلامية وانتشر ، كما اسلفنا، على اساس الكتابة والقراءة من القرآن وعلى تعلّم الصرف والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العلمية يبرهن على ان الاندلس قلما اعارت اذناً مصغية للاقوال والاحاديث التي نهت عن

تعليم المرأة . أما التعليم العالي فانه قام على تفسير القرآن والدينيات والفلسفة واصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وازدانت بعض المدن الرئيسية بمدارس يصحّ تسميتها بالجامعات وفي طليعتها قرطبة وإشبيلية ومالَقة وغَرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . ولعل عدد الطلاب الذين امّوها بلغ الآلاف. وكانت شهادتها من أهم المؤهلات لشغل اوفر مناصب الدولة دخلاً. وشمل منهاج الدراسة في جامعة غَرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . ولقد امّ هذه الجامعة الطلاب من قشتالة وسواها من الاقطار الاجنبية .

ونشأت الى جانب الجامعات خزائن للكتب منها خزانة قرطبة الملكية ، أوسع المكاتب وافضلها . وكان لبعض مشاهير الامّة ونسائها البارزات مجموعات كتب خاصة . واذ لم يعرف المسلمون هذه المحافل السياسية ودور التمثيل التي امتازت بها بلاد اليونان ورومة ، فقد اقتضت الحياة الاسلامية ان تكون الكتب الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق البلدية في الاندلس ، وهي من اهم ما اسداه الاسلام إلى اوربا ، لما راجت سوق الكتب الى هذا الحد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي ادخلت اليها هذه الصناعة من الشرق انتقلت الى اسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الالفاظ التي تُذكّرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربية التي دخلت محرفة الى لغات اوروبية كثيرة . ثم تطرق فن صنع

الورق الى ايطاليا نحو سنة ١٢٧٠ ، بفضل تأثير المسلمين في صقلية على الراجح . اما في فرنسا فالفضل الاول في ظهور مصانع الورق يعود الى تأثير اسبانيا لا الى تأثير الصليبيين العائدين كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلدان انتشرت هذه الصناعة الى سائر انحاء اوربا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد انشاء الرسائل الرسمية في منزله ثم إنفاذها الى ديوان خاص يصير فيه « طبعها » في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبقَ منها سوى نحو الالفين من المجلدات ، قام الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ – ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف مخازن الكتب العربية . فغدت هذه المجموعة نواةَ مكتبة الاسكُورْيال Escurial التي لا تزال قائمة بظاهر مدريد . وحدث في القسم الاول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه على ظهر سفينة ، وكان هاربا من عاصمته ، فابى الربان ان يوصل هذه الكتب الى المكان المقصود لانه لم يستلم اجرته بكاملها سلفاً . وبينا السفينة في طريقها الى مرسيليا اذا بها تقع في ايدي قرصان البحر الاسبانيين فيأمر فيليب الثالث بايداع هذه الغنيمة من الكتب المتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة الآف في مكتبة الاسكُورْيال ، وبذلك أصبحت هذه المكتبة من اغنى المكاتب الاوربية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّاب العصر الاندلسي من كان اغزر مادة في التاريخ من الصديقين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤) متحدراً من اسرة عربية هجرت الشام فنزلت اسبانيا . وفي زمن سابع سلاطين بني نصر ، يوسف ابي الحجاج ، وابنه محمد أطلِق عليه لقب « ذي الوزارتين » . وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غَرْناطة بسبب الدسائس في البلاط فلم تطل نجاته لانه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض اعدائه . وبموته خسرت غرناطة، إن لم نقل الاندلس كلها، آخر من قام فيها من جهابذة التأليف والشعر والسياسة . ولم يبقَ من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب - واكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافيـة والطب والفلسفة - إلا نحو ثلثها . واهم ما يعنينا من هذه التآليف كتابهُ « الاحاطة في تاريخ غرناطة » .

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) فقد وُلد في تونس من اسرة اسبانية عربية ربطت نسبها بقبيلة كِنْدة . وكان مؤسس هذه الاسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع فنزل اسبانيا . وزهت ذرّيته في إشبيلية حتى القرن الثالث عشر . وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في فاس قبل ان غضب عليه ولي الامر فيها . وفي عام ١٣٦١ اتصل بسلطان غرناطة محمد السادس فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً الى ان ثارت عليه عواصف الحساد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف . إلا ان شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته إذ فيها وردت لاول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنيّة على الاخذ بحقائق الاقليم والجغرافيـة فضلاً عن الحقائق الاخلاقية والروحية . ويمكن اعتبار ابن خلدون من حيث بحثهُ عن قوانين التقدم والانحلال القومي ومحاولتهُ ان يضع

قواعد لها مكتشفاً لطريقة جديدة – هكذا قال هو عن نفسه – في علم التاريخ والعمران . واقل ما يمكن ان يقال عنه إنه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب اوربي او غربي نظر قبلهُ الى التاريخ نظرةً تعادل نظرتـــه شمولاً واطّلاعاً فلسفياً. ويُعدّ ابن خلدون باجماع الاراء بين النقدة اعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن اعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية الا اثر محدود في الغرب كان من نتائجه ابقاء الفكرة القديمة القائلة بكروية الارض حيّة . وقد اشرنا سابقاً الى الفكرة الهندية القائلة بان نصف الكرة الارضية المعروف انما كان له مركز او قبّة على أبعـاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت الى مصنّف لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فاتخذ كولمبس عنه مذهبهُ الذي قاده الى الاعتقاد بان شكل الارض يشبه الاجّاصة وان في نصفها الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب أتحفوا الغرب بعـدة آراء جديدةومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيـــا عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر. وخصّ امراء قُرْطُبة وطُلَيْطُلة وإشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بان عِلَل اكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته انمـــا ترجع إلى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هـــذا التأثير الفلكي – علم التنجيم – تحديدَ الاماكن في الارض ووضع مقاييس الطول والعرض لها .

ثم تطرقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا الى الغرب اللاتيني فاهابت به الى دراسة الفلك والتنجيم . ونُقلت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا الى اللاتينية . وما جداول الفلك الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر إلا امثلةٌ لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم جاءتنا اسس علم المثلثات الكروية والاستوائية . فالعرب هم الذين وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن يطالع اسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء يدركْ حالا ان الفلكيين العرب تركوا اثاراً خالدة تنطق بمقدرتهم واجتهادهم . وليست جمهرة اسماء النجوم في اللغات الاوربية عربية الاصل فقط امثال « العقرب » Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع الى الفاظ عربية امثال « السّموت » azimuth و « النظير » nadir و « السّمت » zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما اتحف به الاسلامُ اوربا المسيحية .

ومن امتع المفردات الرياضية وافيدها لفظة « صفر » التي استعارتها اللغات الاوربية من العربية . نعم ان العرب لم يخترعوا الصفر ولكنهم هم الذين ادخلوهُ مع الارقام الى اوربا فعلّموا الغربيين طريقة استخدامها . وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في امور الحياة اليومية . وهذه الارقام سمّاها العرب هنديةً لانهم اقتبسوها عن الهنود ، وسماها الاوربيون عربيةً لانهم اتخذوها عن العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في اوربا غير المسلمة كان بطيئاً جداً . فقد بقي علماء الحساب المسيحيين طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء . واستخدمت هذه الارقام لمقاصد علمية لاول مرة في ايطاليا . ففي سنة ١٢٠٢ رحل ليوناردو فيبوناتشي من اهالي بيزا – بعد ان درس على استاذ مسلم – في طلب العلم إلى شمالي افريقيا. فنشر كتابا كان المَعْلَمَ الرئيسي في تعريف الارقام الهندية الى اوربا . زد على ذلك انه بهذا الكتاب تعيّنت بداية علم الرياضيات في اوربا . ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف سائدةً لتعذّر ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه .ولا مبالغة في القول إن علامة الصفر والارقام الهندية هي اساس علم الحساب على ما نعرفهُ اليوم .

وفي موضوع التاريخ الطبيعي ، ولا سيما علم النبات ، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث المسلمين الغربيين في ثروة العالم . فالعلماء العرب ابدوا ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي التناسلي بين النخيل والقنّب ، ورتّبوا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البذور وما ينمو من تلقاء نفسه . وحوالي نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوّام رسالة في الزراعة هي اهم ما صنّفه المسلمون في هذا الموضوع بل أهم مؤلفات العصور الوسطى فيه. وهذا الكتاب الذي اقتبست بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربية وجاء باقيها نتيجةً لاختبارات المزارعين في اسبانيا إنما يعالج ٥٨٥ نبتةً ويشرح طريقة تربية اكثر من خمسين

شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جـــديدة في موضوع التطعيم وفي خصائص التربة والسماد ويبحث في أعراض عدة من امراض الاشجار والكرمة مع اوصاف طرق معالجتها .

وكان اشهر علماء النبات والصيادلة في الاندلس بل في العـــالم الاسلامي عبدالله بن احمد بن البَيطار الذي توفي في دمشق سنة ١٢٤٨ تاركاً وراءه اعظم رسائل العصور الوسطى في العلاجات البسيطة بعنوان « الجامع في الادوية المُفرَدَة » .

وكان معظم الذين انصرفوا الى صناعة الطب من عرب الاندلس يتخذونها مهنة كمالية الى جانب عمـــل يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجّة وابن طُفَيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة . اما ابن الخطيب كما قدمنا فكان منشئاً ومؤرخـاً تقلد منصب الوزارة شأن غيره من الاطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حيـالهُ مكتوفي الايدي حاسبينه قضاءً وقدراً وضع هــذا الطبيب الغرْناطي المسلم رسالةً دافع فيهـــا عن نظرية العدوى حسبما يُستَدَلّ من الفقرة التالية :

« فان قيل كيف نسلّم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغـير خفي عمن نظر في هـذا الامر وادركه هلاكُ من يباشر المريضَ بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره . كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط اتلف من علق باذنهِ واباد البيت باسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحـدة

ثم اشتماله منها في افذاذ المباشرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق . وفي مدن السواحل المتصحبة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة اخرى قد شاع عنها خبر الوبا . . . »

وكانت الثقافة الشرقية ، في القرون الاولى من الحكم الاسلامي للاندلس ، تنتشر في اسبانيا على مستوى عال. فأخذ علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم الى مصر وسورية والعراق وفارس والى ما وراء النهر (سيحون) والصين . حتى اذا كان القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة انعكست الآية ، وخصوصاً في القرن الثاني عشر ، حين بلغت المعارف الاندلسية اشدّها وبلغت من الغزارة حداً طما معه سيلها على اوربا . وفي نقل الطب العربي الى اوربا لعبت افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا لا سيما طُلَيْطُلة، حيث عاش جيرارد الكَرْموني وميخائيل سكوت Scot دوراً هاماً . وهكذا تسنّى اخيراً للتقاليد الطبيّة الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت الى اللغات الاوربية الفاظ عربية فنية كثيرة محرفة عن مفردات هذه اللغات .

بيد أنّ اسمى درجات الرقي التي بلغها الفكر العربيّ في الاندلس انما تمّت في حقل الفلسفة . فهنا أحكَمَ العرب آخر الحلقات وامتنها في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان الى الغرب اللاتينيّ بعد ان طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص والبسوها ثوباً قشيباً . وكان اهم ما اتحفوا به الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكّرو الاسلام ان تعاليم

ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وآمنوا بان الصدق واحد لا يتجزأ . واذاً فلا بدّ من التوفيق بين هذه التعاليم الثلاثة وادماجها في نظام موحّد . لهذا وجّه علماء الاسلام جهودهم الى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجه فلاسفة النصارى المدرسيّون (السكولاستيك) المعضلة نفسها الا ان مهمتهم كانت اصعب لما حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والاسرار الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد التي انشأها انبياء العبرانيين كانتا ، حسبما اشرنا سابقاً ، اثمن ما للغرب القديم والشرق القديم من تراث وانبله .

و إنما تتعين نهاية العصور المظلمة وفجر الحقبة المدرسية بتدفّق الافكار الجديدة عن طريق الاندلس الى اوربا الغربية ، لا سيما في الفلسفة والطب . فالواقع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي والفلسفة اليونانية عن طريق العربية احيى الفكر وانعش الروح العلمية والفلسفية في اوربا وقادها سراعاً الى حياة فكرية خاصة مستقلة ادت الى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجني ، إلى اليوم ، ثمراتها .

ولا يمكننا ان نذكر في هذه العجالة الا بعضاً من أعلام الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طُفَيل الذي توفي سنة ١١٨٥ واهم نفثاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حيّ بن يَقْظَان » . وتقوم الفكرة الاساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي دون مساعدة خارجية ، للتوصل الى معرفة العالم العلوي وان في وسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اتكالها على الكائن الاعلى . وقد

نُقِلت هذه الطُرفــة التي تُعَدّ من امتع ما في ادب العصور الوسطى واشدّه ابتكاراً الى اللاتينية سنة ١٦٧١ . ثم نُقِلت الى معظم لغات اوربا بما فيها الهولاندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤).وقدحاول بعضهم ان يجد فيها مصدراً لقصة « روبنصن كُروزو » Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما اعظم فلاسفــة الاسلام باعتبار تأثيره في الغرب فالطبيب الفلكي الاسباني العربي ابن رشد شارح ارسطو . وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦وكان أهم ما اتحف به علمَ الطب مؤلفه « الكليات في الطب » أثبت فيــه ان الجدري لا يصيب المرء مرتين واوضح بدقة وظيفة شبكة العين . أما في العالمين اليهودي والنصراني فان شهرته قامت في الدرجة الاولى على مكانته كشارح لارسطو.ويجب ان نذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى إنما كان ينطوي على وضع مؤلف علمي أو فلسفي معتمداً فيه عـلى كتاب قديم كاساس وإطار . واذاً فشروح ابن رشد سلسلة رسائل تحمل عناوين كتب ارسطو مع تأويل محتوياتها . والحقيقة ان ابن رشد ينتمي الى اوربا النصرانية اكثر منه الى آسيا وافريقيا الاسلامية. فقد عرفه الغرب من بعــد بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلّم » . وليس من كتابات حرّكت عقول فلاسفـــة النصارى في العصور الوسطى بقدر ما حرّكتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد. وظلّت فلسفــة ابن رشد من آواخر القرن الثاني عشر إلى آخر القرن السادس عشر سائدةً عالم الفكر عــلى الرغم من ردّ الفعل الذي احدثتــه بين المسلمين في اسبانيا اولا والتلموديين ثانياً

والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم العقل في جميع الامور إلا في عقائد الايمان المنزلة . ولكنه لم يكن كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحرّ والالحاد وعدو الايمان . وكان اتباع ارسطو من المسلمين الباكرين قد حسبوا بعض الكتب الملفقة ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الجديدة من وضع ارسطو نفسه . اما الان فقد جاءت فلسفة ابن رشد داعية الى التعويل على فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة . وبعد ان غربل رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحذفوا منها المواد غير المرغوب فيها اصبحت كتباً للتدريس في جامعة باريس وسواها من معاهد العلم العالي . والحق ان الحركة الفكرية التي اوجدها ابن رشد بما فيها من محاسن وما اضيف اليها من اوهام بقيت عاملاً حياً في الفكر الاوربي حتى مولد العلم التجريبي الحديث.

وكان المقام الاول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد لمعاصره اليهودي ومواطنه الاسباني ابن ميمون ، اشهر اطباء اليهود وفلاسفتهم طوالَ هذه الحقبة العربية . وُلد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي اثاره الموحّدون فنزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . أما زعمُ القِفْطِي وابن أبي أُصَيْبعَة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي الاسلام علانية ويمارس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد صارم . وفي القاهرة أصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح الدين وعهد ابنه الملك العزيز . ومن سنة ١١٧٧ فما بعدها شغل ابن ميمون رئاسةَ الملة اليهودية في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤ .وعملاً

بوصيته حمل اتباعه جثمانه على الاكف على الطريق التي سلكها النبي موسى قبلاً فدفن في طبريه من اعمال فلسطين حيث لا يزال ضريحه الوضيع مقصداً لجماهير الحجاج . والى اليوم ترى ذوي الحاجة من مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامة ليلاً في دهليز الكنيس المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون فلكياً ولاهوتياً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حسّن طريقة الختان ونسب علة البواسير الى الامساك فوصف لها علاجاً الطعامَ الخفيف المؤلف اكثره من الخضر . كذلك اعتنق افكاراً راقية بشأن حفظ الصحة . واشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » . وفي مؤلفه الرئيسي في الفلسفة « دلالة الحائرين » حاول ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي وفلسفة ارسطو المعروفة عند العرب . وبكلمة اخرى سعى الى التوفيق بين الايمان والعقل . وأما الرؤى النبوية في الاسفار المنزلة فقد عللها كاختبارات ذاتية نفسانية . وبذلك وقف موقف المدافع عن الفكرة العلمية الحرة ضد فكرة التوراة المحافظة فاثار غضب اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة » . أما آراؤه الفلسفية المعبّر عنها في هذا المصنّف وسواه فَتَطْبَعُ على غرار مصنفات ابن رشد مع انه لم يعتمد على تلك في وضعها . وابن ميمون كابن رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . أما نظرية الخليقة التي بسطها وان لم يؤمن بها فانها نظرية الجوهر الفرد التي تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العرب اي نظرية الاسفار المقدسة التي قالت بان الله خلق كل شيء والنظرية

الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو .
أما كتبهُ فقد وُضِعت كلها بالعربية باستثناء واحدٍ منها ، ولكن بحروف عبرانية . ثم ما لبثت ان نُقِلت الى العربية وبعد ذلك بزمن إلى اللاتينية . وظل تأثيرها على تراوح الزمن وتباعد الاقطار أشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . والنقدة المحدَثون يرون في تآليف سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومينيكيين الكاثوليك كألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ما يثبت أثر ابن ميمون .

اما في التصوّف فكان إمام هذا العصر قاطبة محيي الدين ابن عربي ، اعظم النظريّين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد لمع نجم ابن عربي في إشبيلية ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحهُ قائماً في احد مساجدها . وفي كتاب « الاسرا الى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصّلاً قصّة الإسراء بمحمد وصعوده الى السماء السابعة ووضع بذلك مثالاً احتذاهُ ،على ما يظن بعضهم، دانتي ، أعظم شاعر ايطالي .

وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تمّ نقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اوربا ، بعد ان شقت التيارات الفكرية الممتدة من ابواب طُلَيْطُلَة طريقها عبر جبال البرانس وعرّجت حتى بلغت بروفانس ومضايق الألب ثم اجتازتها الى اللورين فالمانيا واوربا الوسطى وعبرت الخليج الى انكلترا . واصبحت مرسيليا وتولوز وأربونة ومَنبِلييه من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة

للفكر العربي . اما في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية . وفيها تعهد بطرس الفنرابل (١١٤١ –١١٤٣) اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية ووضع عدة كرّاسات ناقش فيها عقائد الاسلام . وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر اصبحت تلك الناحية مركزاً علمياً طوال القرنين اللاحقين . وغدت لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية الى سائر انحاء المانيا ومنها انتقلت الى انكلترا النورمندية بواسطة علماء وُلدوا وتهذبوا في اللورين . وهكذا تخلّلت العلوم العربية الاندلسية سائر انحاء اوربا الغربية .

أفول نجم العروبة في الشرق والغرب

ان كان ثمّة ما يضارع السرعة المدهشة التي افتتح بها أبناء البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الاول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية ما بين منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد . فحوالي سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور . حتى إذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد اضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها . وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد واصبحت خراباً. وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلّت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية الشاملة .

واذا بحثنا الاسباب المؤدّية الى هذا الانحطاط والسّقوط وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مغول وتتر على كثرتها وشدّتها

كانت في الواقع ثانوية . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات المستقلة في قلب الخلافة وعلى أطراف مناطقها ما كان الا عرضاً من أعراض داء الخلافة لا سبباً من اسبابه . ومثل الخلافة في ذلك مثل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي اصبحت بمثابة رجل عليل على فراش الموت فانتهز اللصوص فرصة مرضه فسطوا على بيته ونهبوا حصتهم من ميراثه .

اما العوامل الداخلية في سقوط الخلافة فأهم من العوامل الخارجية. وإن القارىء الذي تتبع الفصول السابقة لا ريب ادرك الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال القرون . فالكثير من الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن الا اسمياً . ولم تكن طريقة الحكم بما رافقها من الاستهتار بحقوق الشعب واستغلاله وجباية الخراج مما يعين على الإستقرار والدوام . ولقد ظلت الفوارق الجنسية والدينية بين العرب وغير العرب وبين المسلمين واهل الذمة تفعل مفعولها حتى في الجماعة العربية نفسها . فالعداوة القديمة بين اهل الشمال واهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك امتزاج كاف بين الفرس الايرانيين والترك الطورانيين والبربر الحاميين وبين العرب الساميين لتتكون منهم امة متجانسة موحدة بل ظلت هذه العناصر المختلفة بلا رابطة متينة تحكم الوثاق بينها . فابناء ايران لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم يرضوا بالنظام الجديد رضى تاماً . اما معاشر البربر فلا ادل على شعورهم القبلي وكثرة اختلافاتهم من انضمامهم الى مختلف الفرق الاسلامية غير السنية . كان اهل الشام لا يفتأون يترقبون ظهور

زعيم سفياني يرفع عن كواهلهم كابوس النير العباسي . ولقد ظهر ضمن نطاق الدين نفسه من النزعات المتنافرة ما لا يقل اثراً عن فعل الاحزاب السياسية في تمزيق الاواصر . ومن هذه النزعات نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة الحشاشين وغيرهم . الا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين وحده . فالقرامطة فاجأوا الجانب الشرقي من الامبراطورية بضربات قاصمة . وما طال امر الفاطميين حتى استولوا على الامصار الغربية . والواقع ان الاسلام عجز عن ادماج أتباعه في وحدة متراصة كما عجزت الخلافة عن ربط الاراضي المتاخمة للبحر المتوسط باراضي آسيا وجعلها كلها دولة واحدة منيعة .

وهنالك عوامل اجتماعية واخلاقية كان لها مفعولها في تفكيك عرى الدولة وتجزئتها . فاختلاط دم العرب الفاتحين على كر الاجيال بدم الموالي افقده خصائصه الذاتية وادى الى ضياع سلطة الغالب . وبانحطاط الحياة القومية العربية وهنت قوى العرب وضعفت معنوياتهم فاخذت السيادة تنتقل تدريجياً الى ايدي الاقوام المغلوبة حتى صارت لهم بكاملها . وكان للتسري بما فيه منشآت الحريم والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك إقتناء الجواري والغلمان فادى هذا كله الى انحطاط مقام المرأة وفساد اخلاق الرجل . وبالسراري المتعددات تكاثر الابناء المولودون من امهات مختلفات في بلاط الخلافة واتسع المجال للتحاسد والفتن . وعظم الترف والبذخ بما فيه الاسراف في الشرب والغناء. فكل هذه العوامل وما يماثلها امتصت حيوية الاسرة المالكة

فنتج عن ذلك ظهور اولياء عهد ضعفاء الاجسام والنفوس . ومما زاد في الاضطراب ان حق التعاقب في الخلافة لم يكن منصوصاً عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية اثرها . فالخراج المرهق وتقسيم البلاد الى مقاطعات تحكمها الطبقات الآمرة لمصلحتها الخاصة اوهنَ الحياتين الزراعية والصناعية . فكان الشعب يزداد فقراً كلما ازداد الحكام غنىً . وقامت دويلات ضمن دول ابتزّ اولياء الامر فيها أموال الرعيّة . وقضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال فغدت المزارع مهجورة خَربة . وزاد تكرر الفيضان في انجاد العراق الجنوبية والمجاعات في مختلف انحاء الامبراطورية في مصائب القوم وشقائهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الحمّيات التي وقف الانسان حيالها في العصور الوسطى مكتوف اليَدين ففتكت في السكان فتكاً ذريعاً . وقد سجلت المدوّنات العربية للقرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ما لا يقلّ عن اربعين وباءً كبيراً .

أما أسباب انحطاط السيادة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من الاقطار الاوربية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب التي أدّت الى سقوط الخلافة في الناحية الشرقية والوسطى من الامبراطورية . إلا ان الضربة القاضية هنا جاءت على يد المسيحيين لا المغول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهكت قواها في المخاصمات . فشهد النصف الاول من القرن الحادي عشر مالا يقل

عن عشرين دويلة قامت في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة وساسها زعماء وأمراء يُعرفون بـ « ملوك الطوائف ». واستتبّت الزعامة الاولية في البداية لاشبيلية التي تمتع بلاطها بحقبة من الازدهار لم تبزّها فيه غير قرطبة. وقبل اختتام القرن وقعت دولة إشبيلية مثل غيرها فريسةً لدولة من بربر مراكش. ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في اسبانيا.

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية الغربية والاندلس (١٠٩٠ – ١١٤٧) بدولة المرابطين. والمرابطون في الاصل أخوية دينية عسكرية كانوا كأحفادهم « الطوارق » الضاربين في جنوبي الجزائر الى هذا اليوم يُغطّون وجوههم ما دون العيون باللثام، فعُرفوا بالملثّمين. وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر عُرفت بدولة الموحّدين. أما اشهر دولة من دول الطوائف العربية فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شاد احد أفرادها محمد الملقب بالغالب (١٢٣٢ – ١٢٧٣) دارهُ الشهيرة في الخافقين بالحمراء.

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلامية إنما يبدأ بنشوء دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب. واذا كان لا يعنينا هنا تتبّع تقلّبات هذه الدويلات فيجدر بنا على الاقل تدوين المهمّ من هذه القصة لا سيا قصة عهد السيادة الاسلامية الاخير في اوربا. وهي قصة ممتعة تدل أبداً بوضوح على اتجاه نحو الاندماج والتناسق بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الاوقات التي كانت تحاول الفئة فيها إبادةَ الاخرى. والحق ان مقدرة المرء على اتحاف غيره بعلمه وفنه دليل على ما في مدنيته من رفعة وديمومة.

بدأ استرجاع النصارى للاندلس منذ سقوط الخلافة الاموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يعتبرون موقعة كوفادونغا Covadonga سنة ٧١٨ التي صدّ فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدّم المسلمين بدءَ عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الجهة الشمالية الجبلية لكان تاريخ اسبانيا التالي غير ما هو عليه اليوم . ومما عاق عملية الاسترجاع في اول الامر النزاع والتنافر بين زعماء النصارى فى الشمال ولكنها زادت سرعةً حالما تمّ توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تمّ تقريباً استرجاع البلاد باسرها باستثناء غرناطة التي بقيت بايدي المسلمين . وكانت طُلَيْطُلة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتلتها قرطبة في ١٢٣٦ وإشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر عمليّتين رئيسيتين : اولا تنصير البلاد وثانياً توحيدها . وقد اختلف تنصير البلاد عن استرجاع ملكيتها وعن توحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة أيْبِيرية الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان حيث زهت الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صِقلّية ، وهو أمرٌ له أهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الحدّ الفاصل القديم بين المدنية الفينيقية القرطجنية والمدنية الغربية . وما حل القرن الثالث عشر حتى اصبح الكثيرون من المسلمين في طول البلاد وعرضها تحت سلطة النصارى إما بالغلبة أو بالمعاهدة . ولكنهم في ما عدا ذلك

حافظوا على شرائعهم ودياناتهم . وقد أطلق على امثال هؤلاء من المسلمين اسم المدَجّنين ، وكثيرون منهم كانوا قد استبدلوا بالعربية لغةَ الرومانس الاسبانية واندغموا في الجماعة المسيحية .

لم يكن توحيد اسبانيا النهائي سريعاً ولكنه كان أكيداً . وكانت البلدان المسيحية كلها آنئذٍ تتألف من مملكتي قشتالة وأرَاغون . وجاء زواج فرديناند ملك الأرَاغون من إيزابيل ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ منجزاً لتوحيد المملكتَين توحيداً تاماً ومنذراً بالقضاء على سلطة المسلمين في اسبانيا . ولم يكن في مقدور سلاطين بني نصر الصمود امام هذا الخطر المحدق المتزايد . وقد تورّط المتأخرون منهم في مشاكل سلاليّة زادت مركزهم تقلقلاً وضعفاً . فبين السلاطين الواحد والعشرين الذين حكموا البلاد من سنة ١٢٣٢ الى ١٤٩٢ ستةٌ تولّى كلٌ منهم الأمر مرّتين، وواحدٌ تولاّه ثلاثاً . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي اكتشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة بعد حصار طويل شديد وحلّ الصليب محل الهلال في ابراجها .

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فرديناند وايزابيل نكثا العهد ونقضا الشروط. ففي سنة ١٤٩٩ انتدب الكاردينال خيمانس Ximenez كاهن الملكة الخاصّ ليتزعم حملة اكراه المسلمين على التنصّر . واراد الكاردينال اول الامر مصادرة الكتب العربية التي تُعنى بالاسلام وحرقها. وفي قُرطُبة جمعت المخطوطات العربية أكواماً أضرمت النار فيها . ثم أنشىء ديوان التفتيش وهو من الدواوين التي جاءت بالمظالم المشهورة في التاريخ. فاضطُرّ كثيرون

من المسلمين إلى مغادرة البلاد . أما من لم يهجر البلاد من المسلمين بعد سقوط غرناطة فسمي بالـ « موريسكو » Morisco وهي لفظة أطلقت اولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان قد اطلقوا على افريقيا الغربية اسم موريتانيا وعلى سكانها « موري »، ولعل اصل هذه اللفظة فينيقي وتعني « غربي ». وهكذا جاء الاسم بالاسبانية « مورو » Moro وفي الانكليزية « مور » Moor . فالبربر هم «المور» الحقيقيون . غير ان هذه اللفظة أطلقت اصطلاحاً على كل مسلمي اسبانيا وافريقيا الشمالية الغربية . فنصف المليون من مسلمي جزائر الفيلبين لا يزالون يعرفون بهذا الاسم . وقد اطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشف مجلاّن هذه الجزائر في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا حروف العربية لكتابتها وتحدّر الكثيرون من الموريسكو ، إن لم يكن سوادهم ، من اصل اسباني . ولقد جرى الآن تذكيرهم بأن اجدادهم انما كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية او تحمّل العواقب . وجُعل المدجّنون والموريسكو في فئة واحدة فتظاهر الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج كثيرون منهم علناً وفق الشعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً حسب السنّة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفه به الناس وآخر عربياً عُرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إما بالرجوع عن دينهم او بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفّذ .

وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأرَاغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ اصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على البقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعبادتهم ومعاهدهم وعاداتهم . وامر ايضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبار انها من تراث عهد الالحاد . فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة للمرة الثانية في غَرْناطة وانتشرت الى ما جاورها من الجبال ، إلا ان امرها لم يطل . اما القرار الاخير بالطرد فقد أمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنهُ إجلاء كل المسلمين تقريباً عن الاراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف المليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المرّاكشيين . وبهذا حُلّت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حلّت اقدام العرب . وبهذه المناسبة يقول احد ثقاة الانكليز المحدثين : « أُقصِيَ المسلمون عن البلاد واشرق مُحيّا اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالبدر ذي النور المستعار ثم حلّ الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكّع في الظلمات منذ ذلك الحين » .

وانقرضت جميع معالم الفن الديني في الاندلس ما عدا مسجد قُرْطُبة ، وهو من أقدم تلك الآثار وافخمها . وضع أساسهُ عبد الرحمن الاول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الاصل هيكلاً رومانياً . وأكمل ابنهُ هشام الاول الجانب الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ وأضاف اليه مأذنة مربعة الشكل .

وقد اتّبع في بناء المآذن الاسبانية الانموذج الافريقي الراجع الى اصل شامي . وكان يدعم سقف هذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت كأنها غابة كثيفة الاشجار . وأضيء بفوانيس نحاسية صنعت من اجراس الكنائس . وكان بين ثريّاته واحدة يوقد فيها ألف مصباح. أما صغرى هذه الثريات فكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستُخدِم في زخرفة بنائه صناع بيزنطيون مهرة مثل الذين يقال انهم استُخدِموا في بناء مساجد الشام . وكان مؤسسه قد انفق في بنائه ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط . وظلت عملية التوسيع والاصلاح تتناول أفناء هذا المسجد حتى زمن الحاجب المنصور (٩٧٧–١٠٠٢) وهو اليوم كاتدرائية تحمل اسم عذراء الصعود .

أما الآثار الدنيوية فأبدعها القصر (Alcazar) في إشبيلية والحمراء في غرناطة وهما انفس الاثار الباقية بما تضمناه من الزخرفة الفنية البديعة . واقدم جانب من القصر في إشبيلية بناهُ مهندس معماري طُلَيْطُلي لاحد عمال الموحّدين سنة ١١٩٩ – ١٢٠٠ . والموحّدون هم بُناة الدولة البربرية الثانية التي حكمت الاندلس بعد دولة المرابطين . ثم أعيد بناء هذا القصر على الطراز الاسلامي بامر بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بذلك بعض صناع المدجّنين ونزلتهُ الاسرة المالكة بضع سنين . وليس من قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطُلَيْطُلة وسواهما ما هو قائم الى اليوم إلا قصر إشبيلية وهو اشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر اصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية الاهلية الاخيرة .

وأما فن الزخرفة الاسبانية العربية فبلغ أوج مجده في قصر

الحمراء . والحق ان هـذا « الاكروبوليس » بغرناطة ، بما فيه من الافراط في التزويق بالفسيفساء والمتدليات الكلسية من السقوف والنقوش وباعتبار عظم حجمه ، ليُعدّ افخر ما بُني من هذا النوع. وكان محمد الاول الغالب من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالي سنة ١٢٤٨ . ولكن بناءَها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر.

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء الاسلامية في الغرب معروفةً في الشرق الادنى قبلَ الاسلام . وقد ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الاموي في دمشق . وكان هذا النوع الاخير الذي عُرف في الغرب بـ «القنطرة المغربية» معروفاً بلا شك في اسبانيا قبـــل الفتح العربي ولكن المسلمين الاسبانيين وبخاصة أهل قرطبة ادركوا امكانياته البنائية والزخرفية فاعتنقوه عامة . وتحفة أخرى قـدمها عرب قرطجنّة هي أصول بناء الاقبية القائمة على قبب متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعـة . فهذه وسواها من خصائص الفن المعماري ارتفعت في قرطبة وانتقلت منها عـلى يد المستعربين الى طليطلة وسواها من مراكز الشمال في شبه الجزيرة . فنشأ هنالك بتمازج التقليد النصراني والتقليـد الاسلامي أنموذج جديد في الفن المعماريّ قوامـــه القناطر النعلية والاقبية. وبلغ هذا الفن الممزوج عـلى ايدي الصناع المدجّنين درجة عالية من الجمال والكمال فلم يلبث ان برز فناً اسبانياً قومياً .

ولقد ظل لاهل الرقص والغنـــاء من العرب نصيب وافر في عرض الملاهي على أبناء اسبانيا والبرتغال الى ما بعد سقوط غرناطة بزمن طويل . وتميل أبحاث بعض المستشرقين الاسبان الى الاعتقاد

بان موسيقى اسبانيا العامية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من اوربا خلال القرن الثالث عشر وما بعده، شأنَ الروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في تلك الارجاء ، ترجع في الاصل الى منبـــع اندلسي وعن طريق العربية الى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية . وكما ان الفلسفة وعلم الرياضيات والطب انتقلت من بلاد اليونان وروما الى بيزنطية وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا ومنها الى كافة انحـــاء اوربا هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى النظرية العملية .

وليس من شك في ان البلاد الاوربية الوحيدة التي رسخت فيها اقدام العرب ،باستثناء اسبانيا ، هي صقلية . ففي سنة ٦٥٢ وجه العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها لم يتمّ سنة ٨٢٧ . وغدت صِقلِية طيلة المائة والتسع والثمانين السنة التي تلت تحت سلطة حكام مسيطرين جعلوها كلها او بعضها قطعة من العالم العربي وعاصمتها بَلَرْم (بالرمو) .

وكما كانت اسبانيا مركزاً لشن الغارات الاسلامية على الشمال واحتلاله موقتاً هكذا اصبحت صِقلِية بالنسبة الى ايطاليا وحملات العرب عليها . وكان الامير ابراهيم الثاني من اغالبـة تونس الذين حكموا صِقلِية قد جرّد قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق الى الجهـــة الجنوبية الغربية من ايطاليـــا المعروفة بِقلورِية (كَلَابرِيا) . وهو ليس اول عربي وطأت قدماه تربة ايطاليـا . وبعد سقوط بَلَرْم بوقت قصير اخـذ قواد الأغالبة من افريقيـا الشمالية يتدخلون في المنازعات بين اللامبارديين من سكان ايطاليـا الجنوبية . اما « الكعب » و« الابهام » من القدم الايطالية فكانا

يومئذ لا يزالان خاضعين للامبراطور البيزنطي . ولما استنجدت نابُل (نابولي) سنة ٨٣٨ بالعرب لم يترددوا عن التلبية . وصارت منحدرات جبل فِزوفيوس تردد صيحات الحرب . وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين واصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة . وفي هذه الآونة ظهر الظافرون بجوار البندقية (فنيس) . وفي سنة ٨٤٦ تهددوا رومة بعد ان نزلت فيالقهم عند مرفأها البحري أوستِيا Ostia . وإذ عجزوا عن اختراق اسوار المدينة الابدية سلبوا كاتدرائية القديس بطرس في فِناء الفاتيكان وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار وعبثوا بقبور البابوات. وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي آخر مرفأ أوستِيا إلا ان الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة بحرية هوجاء من القضاء عليه . وهنالك صورة من ريشة رافائيل تمثل هذه الموقعة البحرية ونجاة رومة العجيب . الا ان سيطرة المسلمين على ايطاليا بقيت مُحكَمَة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢–٨٨٢) رأى من الحكمة تأدية الجزية لهم طوالَ سنتين .

ولم يحصر الاغالبة اعمالهم الحربية في شواطىء ايطاليا . ففي سنة ٨٦٩ فتحوا جزيرة مالطة . ومن ايطاليا واسبانيا امتدت في القرن العاشر غزوات القرصنة من مضايق الألب حتى اوربا الوسطى. وفي الألب اليوم عدد من القلاع والاسوار التي يقول الادلاء للسيّاح إنها ترتقي الى الفتح الاسلامي . ولعل أسماء بعض الاماكن في سويسرا عربية الاصل .

وجاء استرجاع النصارى لباري (سنة ٨٧١) بدء نهاية الخطر

على ايطاليا واوربا الوسطى من المسلمين. وكان قواد الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الامر ان اعلنوا انفسهم « سلاطين » مستقلين عن الامير المقيم في بَلَرْم . وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيليوس الاول فانتزع طارَنت (تَرَنتو) ، وهي قلعة حصينة ، من ايدي المسلمين في قَلَوْرِيَة . وبذلك انتهت آخر مراحل التوسّع العظيم الذي كان بدؤه في جزيرة العرب النائية قبل قرنين ونصف القرن . وحتى هذا اليوم نجد الشاطىء الجميل الى الجنوب من نابُل Naples مرصعاً بعدد من « الابراج العربية » التي كانت تعتمد للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية أو من افريقيا .

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صقِلّية باحتلال الكونت روجر Roger بن تانكرد دي هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة ١٠٦٠ لمدينة مسّينا الامر الذى افضى الى سقوط بَلَرم سنة ١٠٧١ وسَرَقُوسَة (Syracuse) في ١٠٨٥ . وانتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في ١٠٩١ . وفي سنة ١٠٩٠ احتلّ روجر مالطة . وقد كان لهؤلاء النورمنديين الاشدّاء دولة قوية في القارة الاوربية . وها هم الآن يثبّتون اقدامهم في الممتلكات الجديدة .

وشاهدت صِقِلّية في عهد النورمنديين ظهور ثقافة نصرانية اسلامية رفيعة . وسرت الى هذه الجزيرة - وهي حافلة بذكريات المدنيات السابقة - طيلة الحقبة العربية مجاري الثقافة الشرقية التي امتزجت بتراث اليونان والرومان الثمين فبرزت بشكل خاص تحت لواء الحكم النورمندي وطبعت ثقافة النورمنديين بميزتها

الخاصة . وكان العرب الى هنا منهمكين بحروبهم وخصوماتهم فلم يتسع لهم الوقت ليرقّوا الفنون التي تروج ايام السلم . أما الآن فقد أطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة واخرجوا نتاجاً قيماً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

ومع أن روجر الاول كان نصرانياً غير مثقف فقد جعل معظم جيش المشاة من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه . فاحاط نفسه بالفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ومنح غير النصارى كامل الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى أن بلاطه في بَلَرْم كان شرقياً اكثر منه غربياً . وبقيت صِقِلّية بعده مدةً تزيد على القرن فريدة من حيث كونُها مملكةً نصرانية اتصفت باسناد بعض المناصب العليا فيها الى رجال مسلمين .

وأقدم وثيقة مكتوبة على الورق في اوربا تلك التي تتضمن أمراً إدارياً اصدرتة باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الاول وذلك في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الشرق .

وكان روجر الاول اول من احيى العربية من ملوك صِقِلّية . وتلاه في العناية بها ابنهُ روجر الثاني (١١٣٠ – ١١٥٤) . ثم فردرك الثاني . اما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى سمّاه ناقدوه « الملك نصف الوثني » . وكانت جبته تزدان بالحروف العربية . وفي ولاية حفيدهِ وليم الثاني (١١٦٦ – ١١٨٩) شاهد ابن جُبَير النساء النصرانيات في بَلَرْم خارجاتٍ في زيّ المسلمات . وكان الادريسي وهو اشهر عالم في الجغرافية ورسم الخرائط في

العصور الوسطى المعَ شخصية ازدان بها بلاط روجر الثاني . ولد ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من ابوَين عربيين اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وتجلت مواهبهُ في بَلَرْم حيث وقف حياتهُ على الانتاج الادبي برعاية روجر الثاني . اما رسالتهُ (كتاب روجار) الموسومة بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) فلا تقتصر اهميتها على تلخيص الموضوعات الرئيسية التي عُنِيت بها الكتب السابقة كمؤلفات بطليموس والمسعودي بل قامت في الدرجة الاولى على تقارير مبتكرة حملها اليه رواة كان قد أوفدهم الى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات والملاحظات . وقد أظهر الادريسي في غربلة هذه المواد وتحرّي حقائقها رجاحة عقل كبرى ، وفهماً لدقائق الامور كادراكه كرويّة الارض . وهو الذي عيّن منبع نهر النيل في انجاد افريقيا الاستوائية على الرغم من القول الشائع بأن اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم الا في اواسط القرن التاسع عشر . وفضلاً عن هذا المؤلف الضخم فان الادريسي صنع لوليّ نعمتهِ النورمندي كرةً سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص ،وكلتاهما من الفضة .

كان روجر الثاني احد « سلطانَي صِقِلّية المعمّدَين » . اما السلطان الآخر فهو حفيدهُ فردرك الثاني الذي بسط حكمهُ على صِقِلّية والمانيا . وعلاوة على تمتعه بعد سنة ١٢٢٠ بلقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة » فقد اصبح ملك بيت المقدس بفضل زواجه من ولية العهد ايزابيل البريَنِيّة Isabelle of Brienne . واذاً فقد كان للامبراطور فردرك اعظم

سلطة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد . وبعد زواجه بثلاث سنوات قام بحملة صليبية عـاد منها وقد ازداد تأثره بالافكار الاسلامية .

وكان فردرك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي حتى انه اقام لنفسه بيت حريم خاص . وزها في بلاطه فلاسفة من سورية وبغداد ذوو لحى مستطيلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات شرقيات ويهود شرقيون وغربيون . ولقد اظهر اهتماماً خاصاً بالعالم الاسلامي تجلى في علاقاته السياسية والتجارية واخصها ما كان مع سلطان مصر الايوبي . واستدعى اختصاصيين من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضانتها بحرارة الشمس . واحضر من سورية رجالاً ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب هذه الطيور التي كان يُجري التجارب عليها بان يخيط عيونها ويطلقها ليتحقق فيما اذا كانت تهتدي الى طعامها بواسطة حاسّة الشمّ . وعهد الى ترجمانه ومنجّمه ثاذري (ثيودور) وهو نصراني يعقوبي من انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وهذه الترجمة ، وترجمة اخرى من الفارسية ، جاءتا اساساً للكتاب الذي وضعه فردرك في ترويض البزاة والصيد بها . وهو اول مصنّف في التاريخ الطبيعي . وكان قد سبق ثاذري في خدمة البلاط المنجم ميخائيل سكوت الذي تمثلت فيه العلوم الاسلامية في صِقلّية واسبانيا من سنة ١٢٢٠ — ١٢٣٦ ، وقد هيّأ ميخائيل سكوت للامبراطور عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية موجزاً تضمّن خلاصة مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا

فقدّمه الى وليّ نعمته. فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة – روح التنقيب والبحث والاختبار التجريبي التي امتاز بها بلاط فردرك – كانت فاتحة عصر النهضة العلمية الايطالية .

امـــا أعظم مآتي فردرك فتأسيس جامعة نابُل في سنة ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوربا تأسست ببراءة رسمية . وقــد اودع فردرك هذه الجامعة مجموعةً كبيرة من المخطوطات العربية . وأمر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد لتُصبح كتب التدريس فيها . وقد أرسلت نسخٌ من هذه الترجمات الى جامعتي باريس وبولونيـا Bologna . وكان في عــداد تلامذة جامعة نابُل تُوماس الأقويني احد اعلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك). وفي القرن الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربيـة جزءاً من مناهج عدة جامعات في اوربا. ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ولكن الباعث على ذلك اختلف عما كان عليه سابقاً وانتهى إلى ان يكون إعدادَ المرسلين المسيحيين إلى البلدان الاسلامية .

وكانت صِقِلّية نقطة التلاقي لثقافتين ممتازتين . ولقد توفرت فيها الأسباب لتَكون واسطة لنقل علوم العصور القديمـة والعصور الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين : عنصرٍ يوناني يتـكلم اليونانية وآخر اسلامي يتكلم العربية وفئة ثالثـة من العلماء يحسن افرادها اللاتينية . فدَرجت هذه اللغات الثلاث على السنة القوم في المجالس العامــة والخاصة واستُخدمت في السجلات الرسمية وفي إصدار البراءات الملكيّة .

ولما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم يحكمون علاوة عـلى

جزيرة صقلية ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً تعبر عليه شتى عناصر الثقافة الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية واوربا الوسطى . وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم العربية تظهر في شمال الالب. أما آراء دانتي في الآخرة فقد تكون غير مستقاة رأساً من مصدر عربي معين ولكنه لا ريب في أنها شرقية الاصل استمدها هذا الشاعر من ادب اوربا العامي لذلك العهد . وهذه المؤثرات الشرقية التي تطرّقت الى الغرب بواسطة مجارٍ مختلفة ظاهرةٌ في ميدان الفن ظهورَها في العلم والادب . ولقدظل الصناع المسلمون وحذاق الفن يزدهرون فيصقلية وجنوبي ايطاليا لأمد طويل بعد خضوع صقلية والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة للحكم المسيحي . تشهد بذلك أنواع الفسيفساء والنقوش في كنيسة البلاتين Palatine . أما معمل الحياكة الشهير الذي أحدثه امراء المسلمين في قصر بَلَرْم الملكي فقد أمدّ ملوك اوربا بالملابس الرسمية مطرزةً بالعبارات العربية . وبلغ الطلب على المنسوجات الشرقية درجةً عظمى حتى أن الاوربي لم يكن يحسب نفسه حسنَ الهندام ما لم يكن في حيازته رداء شرقي واحد على الاقل .

وفي خلال القرن الخامس عشر ، عندما كانت البندقية (فنيس) الغنيةُ تُقبل على الازياء الشرقية وتعمل على نشرها ، اكتست الكتب المجلّدة في المصانع الايطالية حلةً شرقية . وظهرت الكتب المسيحية حاملةً خصائص التجليد العربي ومن اهمها ردّة الجلدالتي تُطوى على الكتاب لصيانة مُقدّمه . وفي الوقت نفسه تلقن صناع عدة مدن ايطالية ، عن الصناع الشرقيين ، طرقاً جديدة في زخرفة جلدتي

صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر

ممثلة « الاحتلال الاسلامي ». انظر ايضاً الخريطة التي على ص ٨٧

الكتاب وتزيينها بالرسوم . زد على ذلك ان البندقيـــة أصبحت موطن صناعة عربية أخرى قائمة على ترصيع النحاس الاصفر بالذهب أو الفضة أو النحاس الاحمر . وعلى الجملة فان صِقِلّية من حيث نقلُها الثقافةَ الاسلامية جديرةٌ بمنزلة تجعلها دون اسبانيا اهمية وفوق سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية .

وفي الوقت الذي كان يُقضى فيه على آثار السلطة الاسلاميـة في الاندلس كانت الخلافة في بغداد تلفظ انفاسها الاخـيرة بداعي الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونيـة في قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع دلّ بوضوح على مـــا سينتاب هذه الخلافة من الكوارث وعلى كيفية وقوعها . ولقـد كانت الدولة الطولونية ابكر تكتّل سياسي قام به العنصر التركي الذي لم يكن له من قبل اثر محسوس . وما لبث ان عقب هـــذه الدولة دويلات تركية أخرى فاقتها شأناً ومدى . ومـــا احمد بن طولون الذي استولى على السلطنة سنة ٨٦٨ إلاّ مثالٌ لكثيرين ممن شيدوا على انقاض الخلافة المتداعية دويلاتٍ انفصلت عن الخلافة انفصالاً تاماً او أقرّت بها إقراراً اسميّاً فقط . وسيرة احمد تبرهن على مقدار الاستقلال الذي تمكن القواد الطموحون من الاستئثار به عند اعتمادهم على الجيش وانفرادهم بالسلطة السياسية على حساب الحكومة المركزية التي حالت ضخامتها وسعة ممتلكاتها وتباعـــد اقطارها دون ادارتها بمقدرة وكفاءة . الا ان الدولة الطولونية وما عقبها من دويلات لم تكن ترتكز على اساس قومي في البلاد الـتي تولتها ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود

جماعة كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم تسند الدولة . والحكام انفسهم انما كانوا غرباء معتدين انتصروا بحرس او جيش مأمور افرادُهُ دخلاء على البلاد . على ان سلطاناً كهذا لا يدوم إلا ديمومةَ القائمين به من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى اذا ما فترت همة منشيء الدولة او اميرها اعتورَ الانحلالُ جسمَ الدولة كلها . فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ — ٩٠٥) ابنِهِ ورابع خلفائــــه .

أما الدولة الوحيدة التي دامت نيفاً وقرنين والـــتي سطّرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية ، وهي الخلافة الشيعية الرئيسية الوحيدة في الاسلام . قامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ متحدّيةً الزعامـــة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغـــداد العباسيون . ولم يطل الامر حتى انتشر لواء هــذه الدولة على سائر افريقيا الشمالية ومصر . وفي عهدها بلغت القاهرة من الازدهـــار والعزّ شأواً بعيداً . ولكن دولة الفاطميين ، على الرغم من هـــذا السؤدد الذي تمتعت به ، لم تدم مدةً أطول إذ اخذت الدسائس المألوفة تعبث بها وطفق الفساد يُضعف من كيانهـا . زد على ذلك تعسّر احوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوتهِ عـلى فيضان النيل ، وما اصابهُ من المجاعات والاوبئة ومـا فرض عليـه من الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهله . الا ان هذه المحن انتهت بظهور صلاح الدين في عهد الصليبيين وخلعه آخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١

وتمثل الحقبـــة الفاطمية ، من الناحية السياسية ، فجرَ عصر

جديد في تاريخ وادي النيل الذي استرجع بها ، لاول مرة منذ ايام الفراعنة ، سيادته القومية التامة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية قامت على اساس ديني . ولقد زار مصر ناصري خُسْرَو الفارسي احد دعاة الاسماعيلية سنة ١٠٤٦ – ١٠٤٩ ، اي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية التي اشرنا اليها ، فدوّن لنا وصفها في لغة تفيض بالاعجاب . ومما ذكرهُ ان قصر الخليفة المستنصر كان يسع ثلاثين الف نسمة منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وأنه رأى هذا الخليفة الشاب في احد الاعياد على بغلة فاذا به فتى وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان ابيض ، وعلى رأسه عمامة ، والى جانبه حاجب يظلله بظلّة مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان لهذا العاهل سبع سفن راسية الى ضفة النيل طول الواحدة مئة وخمسون ذراعاً وعرضها ستون . وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرين الف بيت اكثرها مبني باللّبن ، وتتألف من خمسة ادوار أو ستة وفي اسفلها مثل ذلك من الحوانيت يؤجر أحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر . وكانت الشوارع الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . وكانت لاصحاب الحوانيت اسعار محدودة للبيع فاذا بدر من احدهم غشّ في معاملته ناله التشهير ، أي أُركِب على جمل وطيفَ به في اسواق المدينة على صوت الاجراس وأُجبِر على المناداة بذنبه . وحتى حوانيت الصاغة والصرّافين كان يتركها اصحابها ليلاً غير مقفلة . وكان في الفسطاط القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الامن لا يُستقلّ وبجانب من الثروة جعلا ناصري خُسْرَو

يقول : « لم استطع حصر ثروتها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » .

وفيما كان الفاطميّون يحكمون مصر وافريقيا الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشائخة في بغداد . في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فتمتعت بحقبة رائعة من النفوذ والسموّ في الشرق الاسلامي . وتولى طُغْرُل السلجوقي الحكم في عاصمة الخليفة سنة ١٠٣٧ وعظمت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مملكة اسلامية موحدة . فانتعشت السلطة الاسلامية بعد اعتلالها وعاد الى الاسلام مجده — ذلك ان عنصراً جديداً من آسيا الوسطى تدفقت امواجه فشد أزر الاسلام في طموحه الى السيادة العالمية . والواقع ان قصة هؤلاء السلاجقة الكفار الذين قهروا المؤمنين من ملة محمد ثم اعتنقوا الاسلام فانقلبوا حماته الغُيُر ليست فريدة في تاريخ هذا الدين . فقد سلك مسلكهم اقوام اخرى منهم ابناء عمهم المُغُول في القرن الثالث عشر وذوو قرباهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان يُقيّض للاسلام في اشد ساعاته من يدخل في حظيرته فيساعده على تحقيق اهدافه ومتابعة انتصاراته .

واخيراً جاءت الساعة التي عانى فيها الاسلام اشد مصاعبه وذلك عندما ظهر في سنة ١٢١٦ جنكيزخان على رأس جيش جرار مؤلف من ستين الفاً من أقوام المُغُول الهمجية على خيول سريعة حاملين اسلحة من نبال غريبة الاشكال . فاجتاح البلاد والقى الرعب في

الناس وأمعن في التخريب والتدمير اينما حلّ . وقد انطمست امام هجمات المُغول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية فاصبحت الديار التي باهت بقصورها الفخمة وخزائن كتبها قاعاً صفصفاً وافناء خاوية لا حياة للعلم فيها . وجرت الدماء على طول الطريق الذي سلكته عساكرهم تاركة اثراً لا يُمحى . هذه مدينة هَراة كان سكانها مئة الف لم يبق منهم الا اربعون الفاً . وهذه مساجد بخارى المشهورة بابنائها الاتقياء والعلماء جُعِلت أصاطب (جمع اصطبل) لخيول المُغول . وكثيرون من سكان سمرقند وبَلْخ استبيحت دماؤهم او وقعوا في الاسر . اما خوارزم فخربت واصبحت اثراً بعد عين . وفي رواية متأخرة ان جِنْكيزخان لدى فتحه بخارى وصف نفسه في خطبة له قائلاً إنه « آفة من الله أرسلت الى الناس قصاصاً على معاصيهم » . وهكذا اجتاح هذا القائد المغولي العالم الاسلامي ووضع الاساس لأكبر امبراطورية شاهدها العالم هزّت في النصف الاول من القرن الثالث عشر اركان كل قطر ما بين الصين والادرياتيك ، واكتسح رجالها بعض اجزاء روسيا واواسط اوربا حتى شرقي بروسيا . ولو لم يَمُتْ ابن جِنْكيزخان وخلَفُه سنة ١٢٤١ لما نجت اوربا الغربية من هذه القبائل المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جِنكيز خان بلاد المغول على رأس جيش جرار عازماً على إبادة الخلافة . فكانت موجة مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى اصحابها في توطيد ملكهم على أنقاض الامبراطورية . وفي كانون الثاني من سنة ١٢٥٦ هاجم هُولاكو اسوار بغداد واعمل المنجنيق

فيها . وما لبث رجاله ان فتحوا ثغرة في احد ابراجها فخرج الوزير ابن العَلْقمي ومعه جاثليق النساطرة – وقد كانت لهولاكو زوجة نصرانية – للمفاوضة بالصلح . الا ان ُهولاكو رفض مقابلتهما ولم ُيصغ الى كلام القائلين بان الحتف كان من نصيب الذين يتجرّأون على قهر مدينة السلام او النيل من خليفة بني العباس وانه « متى ُقتل الخليفة اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات . » لم يَعبأ ُهولاكو بشيء من هذا بل اخذ بنصيحة منجّميه . فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره المدينة فخرج الخليفة وثلاثمائة من خاصّته خاضعين مسلمين دون قيد او شرط . فأمر الفاتح بقتلهم بعد عشرة ايام . واعمل جنده النهب والنار والتقتيل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم اسرة الخليفة. ولقد نقل الهواء من كريه رائحة الجيف المنتنة واشلاء القتلى المطروحة في الشوارع ما اضطرّ هولاكو ان يبتعد عن المدينة اياماً . واذ قد عزم على نزول بغداد واتخاذها مسكنا فانه لم يمعن فيها تخريباً إمعانه في المدن الاخرى . لكنه عامل جاثليق النساطرة معاملة طيبة وابقى على بعض المدارس والمساجد ورمم البعض الآخر مما تهدم . ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من خليفة ُيدعى له من على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ نشط هولاكو الى شمال الشام فتهددها . وبعد استيلائه على حلب وإعماله السيفَ في رقاب خمسين الفاً من سكانها دخل حماة وحارِم . ثم انفذ قائداً لحصار دمشق ولكن وفاة اخيهِ الخان الكبير اضطرته الى الرجوع الى ايران . بيد ان الجيش الذي

تركه وراءه في الشام فتح سائر البلدان السورية الى ان قضى عليه في العام نفسه بَيْبَرس القائد الممتاز العامل في خدمة احد سلاطين مماليك مصر بالقرب من الناصرة ، وقد صار فيما بعد من سلاطين المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان اول من اتخذ لنفسه لقب إيل خان (الخان الصغير) . ولم يكد يمضي على وفاته نصف قرن حتى اعترف سابع الخانات بالاسلام ديناً للدولة ، فجاء ذلك فوزاً جديداً باهراً لدين محمد مماثلاً لفوزه على يد السلاجقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام يتعرض في الجبهة الغربية من البلاد لهجوم آخر سطرت حوادثه صفحة رائعة في تاريخ المدنية وسطع فيه نجم اعظم ابطال الاسلام . ذلك عهد الصليبيين وصلاح الدين .

الحروب الصليبية

تمثل الحروب الصليبية فصلاً متوسطاً من فصول تلك القصة الطويلة التي تتناول التفاعل بين الشرق والغرب . وهي قصة متعاقبة منذ حروب طروادة وحروب فارس واليونان الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الاوربي . أما بوجه خاص فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة ردّ فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام اوربا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ ليس على سورية وآسيا الصغرى فقط بل على اسبانيا وصِقلّية ايضاً . وللحروب الصليبية اسباب اخرى منها النزعات الحربية والميول القومية إلى الهجرة التي امتازت بها قبائل الطوطون الذين غيّروا خريطة اوربا مذ تعاقبوا على املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامة بامر

الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي مزار كان يحج اليه الوف الاوربيين، وكانت مفاتيحها قد أرسلت سنة ٨٠٠ الى شرلمان على سبيل البركة من بطريرك اورشليم . زد على ذلك الصعوبات التي كان يضعها السلاجقة المسلمون في سبيل الحجاج من النصارى أثناء مرورهم في آسيا الصغرى لزيارة بيت المقدس . اما الباعث المباشر على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي ارسله سنة ١٠٩٤ الامبراطور ألكسيوس كومنينوس الى البابا أربانوس الثاني عندما اكتسح السلاجقة املاك الامبراطور الاسيوية حتى بحر مرمرا واخذت جيوشهم تهدد القسطنطينية نفسها . ولعل البابا رأى في ذلك الاستنجاد فرصة سانحة لضم الكنيسة اليونانية الى كنيسة رومة . وكان الانشقاق التام النهائي في الكنيسة المسيحية قد حدث سنة ١٠٥٤ .

وقد تكون الخطبة التي القاها البابا أربانوس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ في كلارمونت من اعمال فرنسا الجنوبية الشرقية مستنهضاً بها همم المؤمنين « لسلوك الطريق المؤدية الى كنيسة القيامة وانتزاعها من ايدي القوم الاشرار والاستيلاء عليها » نقول قد تكون هذه الخطبة اشد خطب التاريخ أثراً . وللحال تنادى الفرنجة إلى الحرب صارخين « إنها ارادة الله » . فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت اصداؤها في كل ناحية فملكت جوامع القلوب . وما جاء ربيع السنة اللاحقة حتى استجاب للدعوة الى السلاح نحو مئة وخمسين الف رجل اكثرهم من الافرنسيين (الذين كانوا يدعون فرنك Franks اي فرنجة وهو الاسم الذي أطلق بعدئذ على

الغربيين جميعاً) والنورمنديين. واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الاولى . وإنما وسمت بهـــذا الوصف اشارة الى الصليب الذي حمله اعضاؤها علامةً على صدورهم .

وجديرٌ بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية . فعدّة من الزعماء ومنهم بوهيمند إنما كان هدفهم الرئيسي افتتاح اراضٍ جديدة يرفعون عليها أعلامهم . اما تجـــار بيزا والبندقية وجنوى فكان رائدهم مصالح تجارية . فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامح المغامرين واهـــل الشقاوة وشذاذ الافاق مع آمال الاتقياء وحنين المجرمين الى التكفير عن معاصيهم. والواقع ان اندفاع الجماهير في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلّية إلى امتشاق الحسام لم يكن كله تضحية بل تفريجاً للأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تلك البلدان .

اما تصنيف هذه الحملات الصليبية ، إلى سبعٍ او تسع ، على ما يذهب المؤرخون فبعيد عن المنطق ، غير وافٍ . ذلك بان مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ومن الصعب فصل الحملة الواحـــدة عن الاخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه . ومن هنا كان الاصح تقسيم هذه الحروب الى ادوار ثلاثة : اولاً دور ظفر للافرنج وقد امتدّ حتى سنة ١١٤٤ . وثانياً دور رد فعل اسلاميّ انتهى بانتصـــارات صلاح الدين الباهرة . وثالثاً الحروب الاهلية والمعارك الصغرى التي انتهت سنة ١٢٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطـــة لهم في برّ الشام . واذن فدور الظفر انقضى برمّته قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩) . في حين انتظم الدورُ الثـالث

بلاد الروم
قبرص
انطاكية
مقاطعة الاتابكة
غزة
العريش
الخلافة الفاطمية
الولايات الصليبية في سورية
حوالي ١١٤٠
المقياس بالأميال

تقريباً القرنَ الثالث عشر . ومن حملات الدور الاخير واحدة على القسطنطينية (١٢٠٢ – ١٢٠٤) واثنتـــان فاشلتان على مصر (١٢١٨ – ١٢٢١) وواحدة على تونس (١٢٧٠) .

كانت طريق الحملة الصليبية الاولى بعد احتشادها في القسطنطينية عبرَ آسيا الصغرى ، وكان الظفر يرافقها . فاستردّ ألكسيوس — وكان قد اخذ من جميع زعماء الصليبيين يمين الطــاعة الاقطاعي — النصفَ الغربي من شبه جزيرة الاناضول . وبذلك تأخرت غزوة الترك على أوروبا ثلاثــة قرون ونصف قرن .

وسقطت في ايدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ طرسوس وانطاكية وحلب . وكان اكتشاف الصليبيين في كنيسة في انطاكية « للحربة المقدسة » ، التي طُعن بها جنب المُخلّص وهو على الصليب ، ملهباً لحماستهم . وكانت هذه المدن في ايدي السلاجقة . وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ وقف جيش الفرنجة المؤلف من اربعين الفاً نصفهم من الجنود المدرّبـــة ، على ابواب بيت المقدس الذي لم تزد حاميتــه المصرية الفاطمية على الف رجل . وطــاف الصليبيّون اولاً حول المدينة حفاةً ينفخون بالابواق ، وكلهم رجاء ان تسقط اسوارها كما سقطت اسوار أريحا في ايدي العبرانيين ، إلا ان الحصـــار الذي ضيّقوه عليها شهراً كان اشدّ اثراً وأنجع . وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو المدينةَ واعمل السيف في رجالها ونسائها واطفالها دونما تمييز « حتى شوهدت اكوام الرؤوس والايـدي والارجل في شوارع المدينـــة ومربعاتها » . حتى إذا سقطت أورشليم شعر كثيرون من الصليبيين ولفيف الحجاج ان نذورهم قد وفيت فأبحروا

عائدين الى اوطانهم الاوربية .

وانشأ القواد بوهيمند Bohemond وبولدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتانكرد Tancred تحت زعامة ريموند ده تولوز Raymond ، وهو اعظم نبيل افرنسي ، إمارتين ومملكة لاتينية في سورية . اولها إمارة شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي اصبحت فيما بعد مملكة ، وثالثها في طرابلس على الشاطىء اللبناني . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك. غير ان هذه الدويلات لم تعمّر طويلا لما قام فيها من منازعات وخصومات . وليس تاريخها في الواقع الا فصلاً من تاريخ اوربا لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن اهم ما يسترعي انتباهنا في هذه العجالة هو العلاقات الودية والسلمية التي قامت بين الغربيين وابناء البلاد الوطنيين .

جاء الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم ارفع منزلة من اهلها ويعتبرونهم وثنيين يعبدون محمداً إلهاً . ولكنهم ما كادوا يحكمون الصلات بالمسلمين حتى سقطت الغشاوة عن عيونهم . اما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي أسامة بقوله في « كتاب الاعتبار » انهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بد بين الجانبين في ايام السلم – وهي اطول من ايام الحرب كثيراً – ادى الى تطوّر الشعور بين الفريقين فأحكمت على اثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستأجرون صنّاعاً وفلاحين يأتمنونهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه ان تحول

واصبح على مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد وعقدوا اتفاقيات مع العرب لحماية الصيادين من الاعتداء . كذلك تحالف الفريقان على صيانة رجال السفر والتجارة فوضعوا لذلك قوانين جرى الفريقان على مراعاتها . واقلع الفرنجة عن لباسهم الاوربي واختاروا الازياء الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملاءمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا اذواقاً جديدة في الطعام فأحبّوا بخاصة الالوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة فيها نوافير للمياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير الى افراده بلفظة « بولان » (Poulains) . وبلغ اخذهم بالعقائد المحلية درجة احترموا معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يرحبون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلا كفاراً . وكذلك فعل المسلمون ، فكثيراً ما حالفوا الاقوام اللاتينية ضد اخوانهم المسلمين .

ولقد احدث احتلال المسيحيين لسورية ومعظم القطر المصري ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع به زنكي التركي سلطان الموصل وخلفهُ ابنهُ نور الدين سلطان دمشق ، وبلغ اشد درجاته في ايام الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . وُلِد صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديّين . ولا نعلم الا القليل عن طفولته ودراسته الاولى في سورية . والظاهر ان ميوله

وهو فتى انجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتى سنة ١١٦٤ اذ سار « على كره منه » على ما ذكر المؤرخ ابو شامة في صحبة عمه شِيرْكُوه القائد اللامع في خدمة نورالدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولةالفواطم فيها. وكانت لصلاح الدين امنيتان وقف حياته في سبيل تحقيقهما . اولاهما ازال السُنّة منزلة الشيعة في مصر والثانيــة مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة . وفي سنة ١١٦٩ أسندت اليه الوزارة في مصر على اثر وفاة عمه شِيرْكُوه . وبعد عامَين من ذلك قضى على خلافة الفاطميين وامر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفــة العباسي المستضيء فامتثلوا لامره .

ولتحقيق امنيّتهِ الاخرى بدأ صلاح الدين حملاته على الفرنجة. ففي اول تموز من سنة ١١٨٧ احتل طَبرِيّة بعد حصار دام ستة ايام . وعلى مقربة منها جرت معركة حِطّين . بدأ القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً مايختارهُ للجهاد فيكون يوم بؤس وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفــاً انهكهم العطش والحرّ فوقع جلّهم في قبضة جيش صلاح الدين . وكان في مقدمة الاسرى الممتازين غي دي لوسينيان Guy de Lusignan ملك اورشليم . فأحسن السلطانُ صلاح الدين الكريم النفس استقباله . اما رفيقه الملك راجينالد ده شاتيون Reginald of Chatillon موقد نار الحرب فنال معاملة اخرى . ولعل راجينالد هذا كان اشد زعماء اللاتين مغامرةً واكثرهم تعدّياً ونقضاً للعهود وأوفرهم إلماماً باللغة العربية . وحين كانت الكرك في عهدته اوقع مراراً بالقوافل الآمنة

يسلبها أمتعتها بينما كان اصحابهـــا يجتازون الطريق خلف اسوار حصنه . كل هذه الامور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وبلغ منه الكيد للمسلمين ان جهّز اسطولاً اخذ يعيث في شواطيء الحجاز فساداً وُينزل الاذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد اقسم اليمين ان يقتل بيده هذا الرجل الذي نكث العهود ولم يحترم شروط الهدنة . وها هي ذي الفرصة قد حانت للوفاء باليمين . فاحتال راجينالد للنجاة بان شرب الماء في خيمـة صلاح الدين وهو عارف بان العادات العربية تحول دون ايقاع الاذى بمن شرب ماء القوم . وإذ قد شرب الماء دون اذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره بان ضرب صلاح الدين عنقه وجمع ما عنـده من فرسان الداوية Templars والاسبتارية Hospitallers فأمر بهم فضُربت اعناقهم على مشهد من الناس .

وجاء الانتصار بحِطّين قضاء مبرماً على الفرنجة . وبعد حصار اسبوع سلّمت اورشليم في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وقد تمزّق شمل حاميتها في موقعة حِطّين . فصـــدح صوت المؤذن من على المسجد الاقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وانزل رجـــال صلاح الدين الصليبَ الذهبي من على قبة الصخرة .

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصـــلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة حمـلات باهرة سقطت اغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم إلا انطـــاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .

الإسلام والمسيحية
في الحروب الصليبية
المقياس بالأميال
١٠٠٠ ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
مسيحيون
في أوروبا اعتناق النصرانية: القرن ١١
مناطق مفتوحة منذ ١٠٥٠
مسلمون
في أوروبا اعتناق الإسلام: القرن ١١
مناطق مفتوحة منذ ١٠٥٠
المسيحية
الإسلام

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حماسة اوربا فنسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشط فردرك بربروسا Barbarossa امبراطور المانيا ورتشرد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا وفيليب اوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا الى حمل الصليب . وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم اعاظم ملوك اوربا آنئذ نهضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢) وهي اكبر الحملات عدداً . ولقد أمدت هذه الحملة التي لمعت فيها شخصية صلاح الدين وقلب الاسد الاساطيرَ والروايات الشرقية والغربية بأمتع الزاد .

وكان اول من شرع بالسير الى الحرب فردرك الذي سلك طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية فارتد معظم افراد جيشه الى مواطنهم . اما رتشرد فعرج في طريقه على قبرس فاحتلها . وقد قدّر لهذه الجزيرة ان تصبح فيما بعد آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من البلاد السورية .

وايقن اللاتين في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن المفتاح الذي يمكنهم به استعادة ما خسروه من ممتلكاتهم . فقاموا عليها بجميع قواتهم مع من تبقى من جيش فردرك وكتائب ملك فرنسا . وتزعم الهجوم الملك غي Guy الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه قبلا آخذاً عليه العهد بالا يعود لقتال المسلمين ، فلم يف به . ووصل صلاح الدين في اليوم التالي لينقذ المدينة . فنصب معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً . واحتفى الفرنجة بقدم رتشرد فتهللوا واشعلوا نيران البشرى ، وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة

الوقوع دونها مؤرخو العرب واللاتين المعاصرين . منها تبادل صلاح الدين وقلب الاسد الهدايا دلالة على اعجاب الواحد منهما بالآخر . ولكنهما لم يجتمعا قط . وكان رتشرد يكافئ بسخاء كل من زحزح حجراً من اسوار المدينة فحفز ذلك المحاربين والنساء على الاتيان باعمال باهرة من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يُعدّ من الاعمال الحربية الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ — ١٢ تموز سنة ١١٩١) . ولقد ساعد الفرنجة تفوّقُ اسطولهم ومدافعهم الحديثة . اما المسلمون فانحصرت افضليتهم في توحيد القيادة في شخص واحد . واخيراً اضطرت حامية عكا الى التسليم .

وكانت اهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مئتي الف دينار وارجاع المسلمين للصليب المقدس . واذ لم يُدفع المال بعد شهر امر رتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة . وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين ايضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة انفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء يبلغ الثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فأخلى صلاح الدين سبيلَ الف منهم نزولاً عند رغبة اخيه واطلق سراح فريقٍ آخر منهم اجابة لتوسّط البطريرك . ولما رأى صلاح الدين ان اخاهُ والبطريرك قد أدّيا الزكاة بهذه الحسنة شعر أن عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب فاطلق سراح الباقين وبينهم عددٌ من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة . وبقيت مفاوضات الصلح جارية بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع . ولما

لان رتشرد كثير الافكار الخيالية فقد اقترح زواج اخته بالملك العادل اخي صلاح الدين على ان تُعطى اورشليم هدية للزوجين فينتهي بذلك العداء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي احد الشعانين (٢٩ ايار سنة ١١٩٢) انعم برتبة الفروسية على الملك الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . واخيراً عُقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين وألاّ يتعرّض احد باذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . ولكن صلاح الدين لم يُكتَب له الا اشهر قليلة يقتطف فيها ثمرات الصلح . ففي ١٩ شباط من السنة اللاحقة اصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولايزال قبرهُ في العاصمة السورية ، ملاصقاً للجامع الأموي ، قِبلةَ الزائرين .

لم يكن صلاح الدين بطلاً وحامياً للسُنّة فقط بل كان منشطاً للعلم والعلماء ومشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً . فلقد أنشأ المدارس والمساجد وابتنى السدود واحتفر الاقنية . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي اخذ في تشييدها مع اسوار المدينة في سنة ١١٨٣ فاستخدم فيها حجارة من الاهرام الصغرى . وصلاح الدين عند العرب في مصافّ هرون الرشيد وبَيْبَرس وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامته وخاصته الى يومنا هذا . اما في اوربا فلقد اطنب في ذكراه المنشدون في العصور الوسطى وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون . وهو لا يزال يُعتبر حتى اليوم مثالَ الفروسية الكاملة .

واستمرت المناوشات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة

قاربت القرن لم يستطع خلالها اللاتين امراً سوى المحافظة على مراكزهم . ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في هذه الدولة ما يستحق الذكر .

وقد احتل هذا الملك المعروف في التاريخ بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ . حتى اذا زحف بجيشه على القاهرة قاطعاً ارضاً تكثر فيها المستنقعات وتعترضها الاقنية ، وكان النيل في اعلى ارتفاعه ، تفشى الوباء في الجيش وانقطعت عنه الامداد فهلك وأسر الملك لويس ومعظم نبلائه . وبعد شهر أطلق سراحهم مقابل ما دفعه من جزية وما رضيَ به من تسليم دمياط . وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية اخرى خاسرة على تونس ، حيث مات . ويمتاز لويس من سائر الزعماء الصليبيين بطهارة سيرته ونبل اخلاقه . قال فيه مؤرخهُ : « إن حياته كلها كانت عبارة عن صلاة ، وكان قصده الاسنى العمل بمشيئة الله » .

وجاءت دولة المماليك ، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بَيْبَرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) اولَ السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الاخيرة القاضية . ففي سنة ١٢٦٣ احتلّ الكرك وهدم كنيسة الناصرة . ولم تقوَ قَيْسارية ويافا وأنطاكية على الوقوف في وجه هجماته العنيفة ، فاضطُرت الى التسليم . وفي سنة ١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها واطفالها نحوَ مائة الف فباعهم في الاسواق ، فكان ثمن الطفل يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم . ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الأموال تكال كيلاً . ولم تستطع

انطاكية النهوض بعد هذه الكارثة الى يومنا الحاضر . وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الاكراد من ايدي الفرسان . اما المَرْقَب بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ خليفتُهُ قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك باربعة اعوام .

وهكذا لم يبقَ من مراكز الفرنجة الهامّة إلا عكا . ولقد جرى حصارها في عهد الملك الاشرف خليفةِ قلاوون . وبعد قتال دام شهراً واستخدام اثنين وتسعين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداويّة فابادوهم جميعاً . وبهذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق. وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس. وكذلك أُسْدِلَ الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية المتوسّط .

والحق انّ الحروب الصليبيّة جاءت غنيةً بالحوادث الباهرة والوقائع النادرة فقيرةً بالاثر التاريخي الذي بولغ فيه ، لا سيما في الغرب . وهو اثرٌ محصور في الفنّ والصناعة والتجارة دون العلم والادب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب معالم الدمار والخراب . ومما ورثهُ الشرق الادنى عن تلك الحروب ذكريات التعصّب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى .

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عَهْدَ الصليبيين منحطةً متداعية . وكاد نور اعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون يخبو وينطفيء . ومن هنا كانت سورية التي تمركزت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية الغربية طيلةَ القرن

الثاني عشر والثالث عشر اقلّ اهمية من اسبانيا او شمال افريقيا ، بل اقلّ اهمية من الامبراطورية البيزنطية من حيث نقلُ المؤثرات العربيّة الى الغرب . ومع ان الاسلام أثّرَ في النصرانية الاوربية عن طريق الاتصالات التجارية وعن طريق الاصطدام المباشر بالصليبيين وما احدثهُ هذا الاصطدام من تجاوب في الغرب فان آثارهُ الروحيّة والفكرية لم تكن ملحوظة . ومن جهة اخرى فأنه علينا ان نذكر ان الفرنجة في سوريّة ، فضلاً عن كون ثقافتهم دون ثقافة اعدائهم ، فقد كانوا في الغالب جماعاتٍ عسكريّة اجنبية تنزل في القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامّة الناس من فلاحين وصنّاع ، دون الطبقة الراقية المفكّرة. زد على ذلك ان التحزّبات القومية والتعصّبات الدينية والعداوات المتأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقّنونه ابناءَ البلاد . اما المقابلة بين الطبّ عند القومَين فتمثّلها النوادر الطريفة التي رواها أسامة الذي هزأ ايضاً من طرق الفرنجة القضائية إذ اعتمدوا في محاكماتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ومنذ القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع انحاء اوربا دور المعالجة والبيمارستانات واهمها تلك التي تُعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا الافتراض ان طريقة التداوي المنظم استمدت حافزها من الشرق الاسلامي . والى الشرق ايضاً يعود الفضل في ارجاع الحمامات العمومية الى اوربا . وكانت رائجة عهد الرومان الا ان المسيحية لم تحبذها .

اما في الاداب فلقد كان الاثر اوسع مــدى . ففي الاساطير المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استعملها المسيح في العشاء

الاخير عناصر لا ريب في انها سورية الاصل . وليس من شك في ان الصليبيين سمعوا قصص « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » فحملوها الى اوطانهم . وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر Chaucer قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن المصادر السماعية استمد بوكاتشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية ادخلها في كتابه « ديكامرون » Decameron . ويمكننا ان ننسب الى الصليبيين الفضل في اقبال الارساليات التبشيرية الاوربية على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

اما في ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير اكثر ظهوراً . فاستعمال القوس القذاف والدروع يلبسها الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع كلها من اصل صليبي . وفي سورية ادخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبورَ والطبل ولم يكونوا يستعملون قبلُ الا البوق والنفير . وتعلموا من اهل البلاد استخدام حمام الزاجل لحمل المعلومات الحربية ونقلوا عنهم عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء سباقات الخيل ولعب الجريد . والمقرّر ان جانباً كبيراً من مبادىء الفروسية نشأ في سهول سورية . اما سعة انتشار علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان فناتجة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد أنعشت هذه الحروبُ ايضاً فن الحصار وحسنته فسهل امر الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش (١) والمواد القابلة

---

(١) جمع كبش (بفتح الكاف) : آلة من آلات الحرب كانت تُقذف على جدران الحصون .

للاشتعال والقذائف . والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية او اوربا اللاتينية ، والرأي الاخير أرجح ، وذلك حوالى آخر هذه الحقبة . اما ادعاء الصليبيين انهم اخترعوه فلا تؤيده البيّنات . ولكن الاستعانة بقوة البارود الانفجارية لرمي القذائف اي اختراع الاسلحة النارية — وهي خطوة اشدّ خطورة — فامر لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ونحن نجد اول صفة اوربية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني .

اما في الزراعة والصناعة والتجارة فانتهى الصليبيون الى نتائج اعظم من تلك التي انتهوا اليها في العلوم . والى هذا يرجع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربية مثل السمسم والخروب والدُخن [١] والارز والليمون والبطيخ والمشمش وبصل عسقلان . ولهذه النباتات اسماء اوربية محرفة عن لغات شرقية . اما المشمش فكان الغربيون يسمونه «خوخ دمشق»

واكتسب الفرنجة إبان اقامتهم في بلاد الشرق اذواقاً جديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه الاسواق الجديدة أدت بعد إلى انعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط . فاشتهرت انواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة وماء الورد الدمشقي والروائح العطرية التي امتازت بها

(١) الدخن (بالضم) حب صغير أملس جدا كحب السمسم .

دمشق وغيرها من الزيوت والعطور الفواحة المشتهرة بها فارس . ومن العقاقير الجديدة التي تعرفوا اليها حجر الشبّ والندّ . ثم ان انواع كبش القرنفل والتوابل الزكية والفلفل والبهارات وغيرها كل اولئك درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر. ومن ذلك الوقت الى اليوم والوان الطعام لا تستقيم على مائدة دون ان يدخل بعضها التوابلُ . وفي مصر عرف الصليبيون الزنجبيل واخذوا يضيفونه الى الوان طعامهم . واهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الاوربيون لا يعرفونه من قبلُ وكانوا يستخدمون العسل لتحلية اطعمتهم . فعلى ساحل سورية ، حيث ترى الاولاد الى هذا اليوم يمصّون قصب السكر ، عرف الاوربيون هذا النبات الذي اخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الصفات الطبية . وكان السكر اول اللذائذ الفاخرة التي أدخلت الى الغرب ولم يبلغ درجتها طعامٌ آخر مما استطابته الافواه الغربية . ومع السكر دخلت الاشربة غير الكحولية والماء الذي تُخلط فيه بواسطة التقطير خصائصُ الورد والبنفسج وسواهما من الزهور . وكذلك دخلت شتى انواع الحلويات. اما الاقمشة الموصلية والدمشقية والاطلسية وسواها فقد ولجت اوربا من الشرق العربي كما تدل اسماؤها في اللغات الاوربية محرّفةً عن العربية .

وكان لظهور الاسواق الجديدة في اوربا لمنتجات الزراعة والصناعة الشرقية كما كان لحركة النقل التي قضت بها ضرورة حمل الحجاج والصليبيين ذهاباً واياباً أثر ادى الى توسيع نطاق الحركة البحرية والتجارة العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ ايام الرومان

فأخذت مرسيليا تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن ايطاليا ، واصبحت مركزاً لشحن البضائع تقاسم جنوى وبيزا والبندقية الثروة الناجمة عن ذلك . وتطلّب هذا الموقف الجديد كميات اكبر من النقد فجرى سكّها وزاد تداولها . وتولد عن ذلك ابتداع الحوالات المالية واستعمالها فظهرت شركات الصيارفة في جنوى وبيزا مع فروع لها في الشرق . وصارت الفرسان الداويّة تستعمل كتب التفويض المالية وتستلم الاموال كودائع لاصحابها وتسلّف المال بالفائدة . وكانت البوصلة (ابرة الفلاحين) من اهم الاختراعات ذات العلاقة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم اول من اكتشف ما للابرة المغنطيسية من طبيعة الاتجاه الى ناحية معينة . ولكن المسلمين الذين كان لهم في عصر باكر تجارة نشيطة ما بين الخليج الفارسي وبحار الشرق الاقصى كانوا اول من اخرج هذا الاكتشاف إلى حيّز العمل اذ استخدموا الابرة في الملاحة . وعن طريقهم تعرّف الغرب إلى هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلّص دائم وكان العقل الاسلامي يزداد تصلّباً . اما الاوربي فكان يفتح عينيه على آفاق جديدة ويستمدّ نشاطاً مما يراه امامه من عالم راقٍ متسع الارجاء . ولكن قبل ان قُضي على هذه الامبراطورية العربية بكاملها قامت دولة جديدة تحاول إنعاشها، أعني دولة المماليك السورية المصرية التي سنتكلم عليها في الفصل التالي .

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة. وقد عقبت الدولة الايوبية (١١٧١ —١٢٥٠) المنسوبة الى صلاح الدين وتألفت من أسرتين البحرية او التركية (١٢٥٠ – ١٣٨٢) والبرجية أو الجركسية (١٣٨٢ – ١٥١٧) ومن الصعب على دارس التاريخ ان يتصور في غير الاسلام إمكانية نشوء دولة كدولة المماليك وبلوغها ما بلغته من عزّ وفلاح. فالمماليك كانوا كما يدلّ اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلادٍ هم فيها غرباء. فقيامهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة. ولهذه الدولة ميزة ثانية ناتجة عما حققته بنفسها من الاعمال الباهرة. ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة ضافية في آخر

فصل من تاريخ الامبراطورية العربية .

أفلح السلاطين المماليك في إجلاء بقايا الصليبيّين عن مملكتهم السورية المصرية . وقاموا عقبة أبدية في وجه جيوش هولاكو وتيمور المرعبة التي كانت خليقة ، لولاهم ، بأن تغيّر مجرى التاريخ والثقافة في آسيا الغربية ومصر . وبذلك حالوا دون تعرّض مصر للدمار الذي نزل بسورية والعراق . فنعمت البلاد بثقافة متواصلة وأنظمة سياسية مستمرّة لم تتوفر لايّ بلاد إسلامية اخرى خارج الجزيرة العربية . فطوالَ مدة قاربت القرنين وثلاثة ارباع القرن (١٢٥٠ — ١٥١٧) سيطر المماليك على بقعة من أشد بقاع الارض اضطراباً محافظين ابداً على ميزاتهم الجنسيّة الخاصّة . ومع انهم كانوا على وجه العموم عديمي الثقافة سفّاكي دماء فان عنايتهم بالفنّ والعمارة تضاهي عناية اهم دولة متمدنة بحيث صارت القاهرة من اجمل المدن في العالم الاسلاميّ . واخيراً قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على امرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدُويلات التي نشأت على انقاض الخلافة العربيّة وتوفّرت الاسباب لقيام خلافة جديدة غير عربيّة هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في ان أعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها الحقيقيّ هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) وهو في الاصل رقيق تركيّ . وكان بَيْبَرس رجلاً طويل القامة اسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة . نشأ في حضن الدولة الايوبيّة التي اتّبعت خطة خلفاء بغداد في إدخال الارقاء الاجانب في الحرس والجيش . فما عتّم

هؤلاء الاجانب والارقّاء الذين فاقوا سادتهم في المقدرة والاقدام أن اصبحوا كما كان زملاؤهم من قبل في بغداد – امراءَ الجيش ومن ثم سلاطين الامّة . ومن هؤلاء بَيْبَرس الذي انتدبهُ السلطان الصالح الايوبيّ اولاً لقيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث ان ترقى بالعنف والبطش واهراق الدمّ الى اعلى منصب في البلاد . ولم تكن السلطة في دولة المماليك وراثية بل كانت من حق الاقوى. وقد ظل الاقوياء فيها لعدة قرون من الارقاء اصلاً ومن ذرية الارِقّاء .

فاز بيْبَرس في بدء امرهِ باكليل الظفر يوم انتصارهِ على جيش هُولاكو في عين جالوت (فلسطين) عام ١٢٦٠ . على ان شهرته تقوم في الاكثر على الحملات العديدة التي جرّدها على الصليبين ، تلك الحملات التي قصمت كما اشرنا ظهر المقاومة الفرنجية . وفي اثناء ذلك قام قوادُهُ بنشر سلطانهِ غرباً على البربر وجنوباً على النوبة التي استقرّ فيها الآن حكم السلطان المصري .

ولم يكن بَيْبَرس رجل حرب فقط ، ولم تنحصر مآتيهِ في تنظيم الجيش وتعمير الاسطول وتحصين قلاع سوريّة بل تجاوزتها الى احتفار الاقنية وتحسين الموانىء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل محطّة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان ان يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على اسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد اتقن المماليك فنّ استخدام حمام الزاجل الذي كان منذ ايام الفاطميين

مملكة المماليك
في منتصف القرن الرابع عشر
المقياس بالأميال
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
الرها
الرقة
تدمر
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
أسوان

يربّى وتحفظ أنسابهُ في سجلات خاصة . وكان بيبرس ينشط الاشغال العامة ويجمّل الجوامع ويقيم المؤسسات الدينية والخيرية . ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامعُ الكبير والمدرسة التي تحمل اسمه . اما الجامع فقد جعلهُ نابليون فيما بعد قلعة ثم اصبح مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطاني . وهو اول سلطان بمصر عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنّة الاربعة ووضع للمحمل المصري نظاماً دائماً . فلزومهُ جانب السنة وغيرتهُ الدينية والمجد الذي اكسبه اياه الجهاد كل هذه جعلت له شهرة تضاهي شهرة هرون الرشيد في نظر المسلمين . وفي التاريخ الخرافي يتألق اسمهُ فوق اسم صلاح الدين . و « سيرة بيبرس » « كسيرة عنتر » لا يزال الاقبال عليها في البلاد العربية اشدّ من الاقبال على «الف ليلة وليلة» الى اليوم.

ومن مميزات عهد بيبرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المغول وملوك اوربا . وبينها محالفة عقدها بعد تقلده السلطة مع زعيم خانات المغول في قبشاق من وادي الفولغا . كذلك امضى اتفاقيات تجارية مع تشارلس ده آنجو Charles of Anjou ملك صقلية شقيق لويس التاسع ومع جايمس ملك أراغون والفونسو ملك إشبيلية .

ولعل اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامهُ على تجديد الخلافة العباسية واحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جل قصده من ذلك جعل سلطنته شرعية ، واكساب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية ، وقمع فتن الشيعة التي كان يتطاير شررها في مصر خصوصاً منذ ايام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١

عمّ المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين ، وكان قد نجا من مذبحة بغداد . فبايع له بيبرس والناس على طبقاتهم . وكتب بيبرس الى النواحي باخذ البيعة للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر . وكان قدومه الديار المصرية من سورية صحبة جماعة من امراء العرب . فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير والعلماء والاعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وأثبت نسب الخليفة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة امام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فالبسه الخليفةُ بيده شارات السلطنة وفوّض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة اشهر توجه بيبرس من القاهرة ، ومعه الخليفة ، طامعاً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة . ولكنه لم يرافقه إلا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يصل المستنصر الى بغداد اغار عليه حاكم المغول ببغداد في الصحراء ، فكان ذلك آخر العهد به .

وتعاقب أبناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم منها إلا الاسم قانعين بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من منابر مصر وسورية . ولما انتزع السلطان سليم العثماني مصرَ في سنة ١٥١٧ من ايدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخرَ هذه الاسرة .

وهكذا استهلّ المماليك عهدهم بمصر بزعامة سلاطين ظافرين فخورين فازوا باستئصال آخر السلطة الفرنجية في سورية وتمكنوا من الحيلولة بين المغول وتدويخ العالم . وما وافت نهاية هذا العهد

الذي سادت فيه حكومة خاصة عسكرية حتى تسرّبت الحزبيات بين الجماعات المتنفّذة وزُيفّت النقود وثقلت الضرائب وُفقد الامن على الحياة والممتلكات وتعاقب الطاعون والاوبئة والمجاعات والثورات فكاد الخراب يعمّ مصر وسورية الملحقة بها . وفي وادي النيل خصوصاً راجت سوق الخرافات القديمة البالية وضروب السحر وتحالفت مع العقائد الدينية الرجعية والمحافظة فلم تترك للتقدم العلمي مجالاً . وفي أحوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة فكرية راقية . والواقع ان مطلع القرن الثالث عشر شهد جميع انحاء العالم العربي تفقد سيادتها العلمية التي كانت تتمتع بها منذ القرن الثامن . فأصبح العياء العقليّ الذي سببتهُ اجيال الجهاد ، والاسترخاء الاخلاقي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديَين في كل مكان .

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبقَ للعرب من مكانة في العلم الا في فرعين : الفلك — الرياضيات وفي جملتها علم حساب المثلّثات ، والطب ، وبخاصة طب العيون . ومن ألمع اطباء هذه الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩ ، وقد كان رئيس الطبابة في مستشفى القاهرة . وعلى الرغم من ان اكتشاف الدورة الدموية منسوب الى سيرفيتس Servetus البرتغالي فان ابن النفيس سبقهُ الى هذا بثلاثة قرون . وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية الذي نسمّيه اليوم بـ « الأدب الجنسيّ » . على ان الادب العربي كان في مراحله جميعاً طافحاً بالقصة والفكاهة والنكتة التي نحسبها

في عصرنا الحاضر من النوع البذيء .

بيد أن اغرب المحاسن التي تحلّى بها عصر المماليك ، على ما كان فيه من شأن عظيم للحروب والاهوال ، الانتاجُ الباهر في العمارة والفنّ على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ ايام البطالسة والفراعنة . وتعود مبادىء « مدرسة » المماليك في العمارة الى مؤثرات سورية – عراقية اتصلت بها عند ما اصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنّانين والصنّاع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق قبل الغزوات المغولية . وبانتهاء الحروب الصليبية انفتحت مرةً اخرى طريق الحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واستعيض بها عن الآجرّ في عمارة المآذن . واتقن البناؤون تشييد الجوامع والمدارس ذوات الشكل المصلّب وظهرت القبة في هيئة تزري بالاشكال المناظرة لها من حيث الخفة والظرافة واناقة الزخرفة . اما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الابلق للملك الفاخر المتوفى سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهو اسلوب يعود الى اصل روماني أو بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور المندلّيات السقفية في هذه الحقبة . وبروز ميزتين فائقتين اتصف بهما فنّ الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية والحروف الكوفية . اما الاشكال الحيوانية فقد كانت طيلة العصور الاسلامية اقلّ استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانيا وفارس . وانه لمن حسن الطالع ان تكون افضل نماذج العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية حتى اليوم . وهي من امتع المشاهد التي يقصدها السياح

وطلاب العلم .

حتى إذا كانت اواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد المماليك الى أن يكون من اظلم عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم بغاة سفاحين ، بل إن منهم من كان سافلاً خليعاً . في حين كان اكثرهم لا يملكون شيئاً من الكفاءة أو الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ – ١٤٢١)، الذي اشتراه السلطان بَرْقُوق من تاجر جركسي ، كان سكيراً يقترف جسام القبائح . وذاك بَرْسْبَاي (١٤٢٢ – ١٤٣٨) ، وهو كذلك من مماليك برقوق ، لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه انه امر بقطع رأسَيْ طبيبَيْه عندما تعذر عليهما شفاؤه من داء مميت . اما إينال (١٤٥٣ – ١٤٦٠) ، وهو ايضاً من مماليك برقوق ، فكان أمياً يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من تطاول عهد سلطنته فأنه لم يكن بقادر على توقيع اسمه على المناشير والمراسيم الا بعد أن يرسم له الموقّع رسماً خفياً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم. واتهم إينال هذا بحب الغلمان كما اتهم بَيْبرس من قبله . وكانت منشآت الغلمان التي اشتهر امرها في زمن العباسيين مزدهرة في ايام هؤلاء السلاطين المماليك . اما يَلْبَاي (١٤٦٧) ثالث خلفاء إينال فلم يكن أمياً فحسب ، بل معتوهاً . وأما قائِت باي (١٤٦٨ – ١٤٩٥) ، الذي كان بَرْسبَاي اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد امر بالكيماوي علي بن المرشوشي ان تُقلع عيناه ويُقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

ومما زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية

القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباي منـع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل ان ترتفع اسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها من الناس باسعار ضمنت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لـكي يؤمن لنفسه أرباحاً طائلة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة نكبت بها البلاد تكراراً ، فكثر الطلب على السكر اذ كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » **Black Death** في اوربا فانه توفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثمائة الف نسمة في العاصمة وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخاف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . وعدّ خروج النساء في الاسواق علة ذلك البلاء فمنعهن من ذلك . ثم إنه سعى الى التكفير عن سوء اعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الاموال لم يقتصر على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيّناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم الفاحش في نفقات البلاط وتشييد العمارات الكبرى الا ابـتزاز الاموال من الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين أثروا على حساب الجمهور ، أضف الى ذلك ان قبـائل البدو في الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في وادي النيل فتنهب وتتلف ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ثم ان

الجراد ، كالاوبئة ، كان يزور البلاد بين الفينة والفينة حتى أصبح الجوع ضربة مزمنة يتفاقم شرها بخاصة في سني الطاعون والجفاف الناشىء عن انخفاض الماء في النيل . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك بنحو ثلثي مجموع سكانهما .

وفي آخر هذه الحقبة اخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاسة . ففي سنة ١٤٩٧ اكتشف الملاّح البرتغالي فاسكو دا غاما Vasco de Gama طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حادث خطير كان له اثره السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية لا لأن غارات الاسطول البرتغالي وسواه من اساطيل اوربا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمياه الهندية تكاثرت بعد ذلك فحسب ، بل لان حركة تجارة التوابل و سواها من المحصولات الاستوائية التي امتازت بها الهند وبلاد العرب انتقلت من المرافىء السورية والمصرية الى غيرها . وبذلك تلاشى إلى الابد ذلك المرفق الذي كان يدرّ على القطرين عوائد كبيرة .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلّت بسورية ضربة انزلها بها رجل تتري من برابرة آسيا الوسطى كانت اشد من ضربات المماليك. ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ولد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة وزيرٍ لجنكز خان ، وإن تكن اسرته ادّعت التحدّر من جنكز نفسه . اما ابن عَربْشاه الذي ترجم لتيمور وحمل عليه فيقول : « كان ابوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلّة اندفع الى ارتكاب الجرائم . ففي بعض الليالي سرق غنمة فضربهُ الراعي في كتفهِ بسهم فأبطلها وثنّى عليه

باخرى في فخذه فأبطلها فازداد كسرهُ على فقرهِ فسمي لنك اي « أعرج » . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس اقوامهِ التتر في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها افغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغـــداد . ودوّخ ارض الرافدين . ففي تكْريت مثلاً ، مسقط رأس صلاح الدين ، انشأ هرماً من رؤوس القتلى . حتى اذا كانت سنة ١٣٩٥ حمل على أرض القبشاق واحتل موسكو فاقام بها ما فوق العام . وبعـــد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين الفاً من اهالي دلهي .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشمالية سنة ١٤٠١ اشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب اقام عساكره نحو ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء . ولقد عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الف من سكانها المسلمين أُكَيْمات (تصغير أكمة) محيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعهـا عشرة اذرع جاعلاً الوجوه بارزة إلى الخارج يراها من يمر بهـــا . وهدم أجمل ما فيها من مساجد ومدارس ، فلم يُعدْ احدٌ بناءهـا حتى الآن . وتوجه تيمور الى دمشق فاحتل في طريقه حماة وحمص وبعلبك . ولم يقوَ الجيش المصري على الصمود في وجه جيشه فانهزم هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتهـا شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهبَ والسلب والنار حتـى لم يبقَ من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق اسرع هذا الغازي السفاح راجعاً الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعض رجاله . فاعمل في المدينة السيف واخذ في التقتيل والتقطيع مُقيماً

فيها مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقره في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ واخذ السلطان بايزيد الاول اسيراً في قفص . واستولى ايضاً على عاصمته بروسه وعلى ازمير . ولحسن طالع المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه اشد رغباته واطماعه . اما خلفاؤه فقد أفنوا قواهم في المشاحنات والفتن الداخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الاشارة الى اصل الترك العثمانيين في بلاد المغول والى اختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسيا الوسطى والى نزولهم آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجياً من ابناء عمهم السلاجقة وابتلعوهم حتى اذا ما جاء مطلع القرن الرابع عشر انشأوا مملكة كُتب لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية .

وفي سنة ١٤٨١ نهضت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فأقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت المنافسة بين الجانبين تقوى وتعظم . ولقد ظهرت اول امرها في مناوشات متعاقبة بين عمالهما على حدود آسيا الصغرى وسورية . فادى ذلك تدريجياً الى نشوب الحرب ، واهم مواقعها معركة مرج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانصَوْه الغَوري (١٥٠٠ — ١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت

تجهيزات الجيش التركي بالمعدات الجديدة من المدافع والبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد تفضل معدات الجيش المصري . فكان الجيش المصري يضم لفيفاً من البدو والسوريين الذين لم تكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة . زدْ على ذلك انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن ، في حين احتفظ السوريون والمصريون بنظريتهم القائلة بأن البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال . وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به اهلها منقذاً من فظائع المماليك . وما لبثت سورية باسرها ان انتقلت الى حوزته . ومن ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ . وبذلك قضى على سلطة المماليك قضاءً مبرماً . وإذ كان الحجاز بحاضرتيه مكة والمدينة ملحقاً بالمملكة المصرية فقد اصبح الان بحكم الطبع جزءاً من السلطنة العثمانية . أما القاهرة التي كانت مركز السلطة الاسلامية في الشرق فأمست مدينةً من مدن الامصار ، يخطب الوعاظ من على منابرها قائلين :

« وانصر اللهُ السلطانَ بنَ السلطان مالك البرَّين والبحرَين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقَين ، وخادم الحرَمين الشريفَين ، الملك المظفَّر سليم شاه . اللهمَّ انصرهُ نصراً عزيزاً ، وافتح لهُ فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا ربَّ العالمين » .

وسواء أصحت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخُلفاء الاسميين أوصى بالخلافة الى السلطان العثماني ام لم تصح فالامر الواقع ان امير القسطنطينية التركي اكتسب على التدريج امتيازات

الخلافة ، ليتخذ بعد لنفسه لقبَ الخليفـــة . ومع أن بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن إلا من قبيـل التبجيل ولم يُعترف به خارج مناطق نفوذهم . واول وثيقة سياسية معروفة أشير فيها الى السلطـان العثماني بلقب الخلافة واعُترِف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا اصبح سلطانُ القسطنطينية الخليفةُ اعظمَ مـلوك الاسلام ووارثاً لخلفاء بغداد وأباطرة بيزنطيـة في وقتٍ معـاً . وبتحطيم سلطة المماليك وتوطيد أقدام الـترك على البوسفور تحوّل مركز السلطة الاسلامية غرباً . ذلك بأن مركز الحضارة العالميـة ايضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غربـاً ، وجاء اكتشاف اميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح فاتحةً لعصر جديـد . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ تاريخ سلطة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

بينا كان الاوربي يتخبط في ديجور العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبيــــة رافعة مشعال النور والعرفان. ولقد ظلت كذلك في نجوة من الظلمات التي دهمت اوربا قبلها الى ان استولى على ربوعها المماليك ثم الاتراك العثمانيون. فقد فاز هؤلاء الأتراك بتشييد امبراطورية من اعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً . وهم فضلاً عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على مجمل البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم بعــد ذاك حــتى جبال القوقاس شرقاً وأبواب فينا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣م مركزاً تحسب له دول اوربا حساباً. في هذه الحقبة عم الكسوف البـلاد العربية بحواضرها المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ، هذه الحواضر

التي كانت كل منها عاصمةً لامبراطورية ومركزاً لثقافة فأصبحت الآن مقراً لولاة يعيّنهم الباب العالي ومرابطَ لحاميات ترسلها الاستانة، تلك المدينة التي تطاولت اليها فيما مضى أعناق أبناء دمشق وبغداد غير مرّة عندما كانت الاولى عاصمة الأمويين والثانية قاعدة العباسيين.

وانتظمت الامبراطورية العثمانية عدا العنصرَ العربيّ عناصر شتى من ارمنيّة وسريانية وكردية ويونانية وبلقانية وغيرها لا تجمعها بالعنصر الحاكم ولا تجمع بعضها ببعض اية جامعة وثيقة قومية كانت أو لغوية أو دينية أو ثقافية . إنما كان يربط هذه العناصر جميعاً رابط القوة المسيطرة ليس غير . ومن هنا ساهمت كلها ، بمقادير مختلفة ، في احتمال المظالم ودفع الضرائب والخضوع لنظُم قلم المراقبة وعسف ديوان الجاسوسية . فلا غرو اذا لم نجد في القرون الاربعة التي ابتدأت عام ١٥١٧ أثراً عربياً ما يتّصف بالابداع والابتكار سواء في العلم والأدب أم في الفنّ .

ولقد قام من السلاطين مَن حاول إجراء إصلاحات في الادارة والجندية كسليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) . ولكن التنظيمات التي سنّوها لم تُنفّذ . ومثل ذلك كان نصيب الخطّ الشريف الذي نشره عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩ والخطّ الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ وتوخّى بهما إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرّعية بقطع النظر عن الدين والملّة . وما ان جاء دور عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) حتى قُضي على كلّ نزعة حرّة في المملكة وطُمس كلّ قبس من نور .

ولكنّ بعض الولايات العربية أفلتت بعض الافلات من هذا النير المخوف وتمتّعت بشيء من الحكم الذاتي . فانتهت السيادة التركية في مصر إلى ان تصبح منذ اوائل القرن التاسع عشر اسميّة فقط . وهي كانت ابداً كذلك في الجزيرة العربية باستثناء بعض المراكز البحرية أو المجاورة للبحر من أعمال الحجاز واليمن . أما الهلال العربي ، بما فيه العراق وسورية الكبرى ، فبقي مخسوفاً طيلة هذه الحقبة يئن أبناؤه من جور الحكّام الاتراك . فعمّ الفقر وخيّم الجهل وقلّ عدد السكان في هذه الديار خلا جبل لبنان الذي احتفظ ابناؤه - الدروز في الجنوب والموارنة في الشمال - بمقدار من الحرية الفردية والقومية ، والذي تمتع بنظام إقطاعيّ مستقلّ أو شبه مستقلّ ولا سيما أثناء ولاية الامير فخر الدين المَعْنيّ الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥) وولاية الامير بشير الشهابيّ الكبير (١٧٨٨ ١٨٤٠) . وبعد حوادث سنة الستّين اعترف الباب العالي باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الاوربية الخمس الكبرى .

وكانت مصر اول بلاد عربية اللسان أفاقت من سباتها وأحكمت العلاقات الحيوية مع بلدان اوربا الغربية ، وذلك ابتداء من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد أدخل نابوليون الى هذا القطر مطبعةً عربية كان غنمها من رومة وأنشأ أول هيئة علمية يمكن اعتبارها مجمعاً . وبذلك ولّد ، من حيث لم يحتسب ، شرارةً فكرية ما لبثت ان أضرمت ناراً امتدّ لهيبها . وكان في الجيش العثماني الذي ساهم في إجلاء نابوليون عن وادي النيل ضابط ألبانيّ الجنس تركيّ اللسان اسمه محمد علي وهو الذي تمكن

فيما بعد من توطيد سلطته على البلاد باسرها وتأسيس الدولة الخديوية في ظلّ الخلافة العثمانية. ومن أجلّ ما قام به محمد علي من الخدمات للشرق ولمصر بخاصة انه عرّض بلاده لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وأرسل بعثات من الطلبة المصريين الى فرنسا. وكان محمد علي يحلم بانشاء امبراطورية عربية تتمركز في عاصمته القاهرة قبل ان كان أبناء العربية على شيء من الوعي القومي او الاستعداد للانضمام الى جامعة شاملة. وبعد ان سحقت جيوشه القوات الوهابية في الجزيرة سارت عام ١٨٣١ بقيادة ابنه ابراهيم باشا الى سورية فاستخلصتها من ايدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة باسرها لولا تدخّل انكلترا وغيرها من الدول الاوربية ودعمها العرش العثماني المتداعي.

وجاء حكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ - ١٨٤٠) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد ابوابها للبعثات والارساليات الاجنبيّة، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والزائرين والسيّاح من بروتستانت وكاثوليك ومن افرنسيس وبريطانيّين واميركان. وأنشئت في البلاد على اثر ذلك مدارس ومكاتب ومطابع اجنبية ووطنية، وتشكلت جمعيات علمية وادبية، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية، وكان من نتيجة ذلك كله ان تلقحت العقلية العربية بلقاح الفكر الاوربي الحديث وان تسربت الى البلاد افكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الاراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطيّة العصرية والقومية الوطنية. والواقع ان هذه اليقظة التي تمّت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفضل المنبّهات الاوربية الغربيّة

والاميركية تماثل يقظته في القرن التاسع عندما كانت المنبهات بالاكثر يونانية وتعارض يقظة الغرب في القرن الثاني عشر التي سارت فيها المنبهات من الشرق الى اوربا.

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لهذه العوامل كما تعرّضت لها اخواتها في الشمال ، وذلك بداعي اعتزال الجزيرة الجغرافي ومحافظتها الدينية وعصبيتها الموضعية . فبقيت حضارتها من طراز العصور الوسطى ولم تصطبغ بألوان حديثة . وليست الاصلاحات التي احدثها مؤخراً ابن سعود على اهميتها لتغير كثيراً من جوهر الحال . ولقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوربية الاولى مركزاً لحركة قام بها الشريف حسين ترمي الى الوحدة العربية السياسية . وهذه هي المحاولة الثانية ، بسبيل هذه الوحدة ، بعد محاولة محمد علي ، وقد فشلت مثلها لمجيئها قبل اوانها .

وكان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربيّ ان تولدت مبادئ القومية العربية الشاملة واستمدت وحيها بالاكثر من النظريات السياسية الاميركية – بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الافرنسية . وانما كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين ، الذين تثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم ووجدوا في مصر الخديوية جواً اكثر ملاءمة لجهودهم العلمية والسياسية .

على ان النهضة العربية كانت في بادئ امرها حركة فكرية مجردة قوامها إحياء اللغة العربية ودرس آثارها والإشادة بماضي العروبة

المجيد . وما لبثت ان استوحت من الماضي ما حملها على التطلع الى المستقبل فجرّت وراءها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال الشامل والوحدة العربية . غير أن هذه النهضة القومية السياسية تطوّرت فيما بعد وتنوّعت بمقتضى الموجبات المحلية والمشاكل الموضعية التي اصطدمت بها ، فاتخذت في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة التركية وسياسة التتريك التي اعتنقها حزب تركيا الفتاة . وكذلك كان شأن فلسطين التي تولدت فيها بعد الحرب العالميّة الاولى قومية فلسطينية بفضل الاصطدام بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ، وشأن العراق الذي تمخّض بروح عراقية بسببٍ من مقاومة الانتداب البريطاني . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي الى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الاولى الثقافة والاقتصاد .

ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة انما هي بضاعة غربية استوردها العالم ، بما فيه الشرق العربي ، من اوربا الغربية . وباقتباس مبادئها سار الشرق عن قصد او عن غير قصد في سبيل التجديد واطّراح التقليد والاخذ بالعلمانية والاتجاه نحو اهداف الحضارة الغربيّة .

والواقع ان تعرّض العرب للعوامل الاوربية الغربية وما نتج عن ذلك من الوعي القومي هو اكبر حدَث في تاريخ الشرق العربي في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . واذا صحّ الاستنتاج بالقياس على الاحداث التي تلت القرن التاسع فسيتلو هذا الدورَ الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دورُ ابداع وابتكار يقوم فيه ابناء العربية بقسطهم من خدمة المدنية والانسانية .

فهرست الاعلام

آذربيجان ٦٥، ٧٤
آرين ٤٨، ١٧٩
الاباضية ٧٦، ٧٧
ابراهيم (النبي) ٤٥، ٦٧، ١٠٥
ابراهيم باشا ٢٥٥
ابراهيم الثاني ٢٠١
ابراهيم بن المهدي ١١٤
ابقراط ١١٩
الاتراك ٩، ٦١، ٨٠
الاحاطة في تاريخ غرناطة ١٧٨
احمد (القاضي الطليطلي) ١٦٦
الاحمر، البحر ١٤، ٢٥، ٥٣، ٢٤٧
اخيلا ٩١
الادرياتيكي ٢٠٢
الادريسي ٢٠٤، ٢٠٥
أذرح ٣٩، ٧٦
الاراميون ٧، ١٢، ٦١، ٧٢
أراغون ٨٨، ١٩٦، ١٩٨، ٢٤١
أربونة ٩٣، ٩٥، ١٨٨
الاردن ٦٤
ارسطو ٩، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٦
ارمياء ٢٧
ارمينية ٦٥، ٧٤، ١٠٩
ازمير ٢٤٩
الازهر ١٦٩
اسامة بن منقذ ٢٢٢
اسبانيا ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠١، ١٠٦، ١١٧، ١٣١، ١٣٣، ١٤٠، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٤٤
الاستانة ٢٥٣
استورية ٨٨
الاسرا الى مقام الاسرى ١٨٨
الاسرار (كتاب) ١٤٢
الاسكندر ٥٧، ٦٣، ٦٧
الاسكندرية ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ١٠٣، ١٣٠، ١٦٨، ١٦٩
الاسكندرية (مكتبة) ٦٧، ٦٨
الاسكوريال (مكتبة) ١٧٧
اسماعيل ٤٥
الاسماعيلية ١٩٢
اسوج ١١٤
آسيا ٧، ١٤، ١٨، ٣٦، ٤٢، ٦٥، ٦٦،

٧٧، ٨٣، ١٠٥، ١١٥، ١٢١،
١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٧،
١٦٨، ١٦٩، ١٩٢، ٢١٣، ٢١٧،
٢٣٨، ٢٤٧، ٢٤٩
اسيا الصغرى ٨٠، ٨١، ٢١٧، ٢١٨،
٢٢١، ٢٤٩
اشبيلية ٨٦، ٨٨، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٨،
١٧٩، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٥،
١٩٩، ٢٤١
الاشرف، الملك ٢٣١
الاشعري، ابو موسى ٧٥، ٧٦
الاشوريون ٧، ١٢، ٧٢
الاصفهاني، ابو الفرج ١١٣، ١٧٠
الاغالبة ٢٠١، ٢٠٢
الاغاني (كتاب) ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٧٠
الاغريق ٨
افريقيا ٧، ٢٥، ٢٦، ٤٢، ٥٣، ٦٦، ٧٦،
٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٠،
١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩،
١١٥، ١٢١، ١٣١، ١٤٧، ١٦٠،
١٦٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٧،
١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١١،
٢١٣، ٢٣٢
الافشين ١٢٧
افغانستان ٢٤٨
افلاطون ١١٩، ١٢١، ١٤٤، ١٨٤
الافلاطونية الجديدة ١١٧، ١٢١، ١٨٦
افنيون ٩٥
الاقباط ١٠١
اقليدس ١٤٤
اكسفورد ٩، ٩٤، ٢٠٧
اكوتانيا ٩٢، ٩٣
الالب، جبال ١٨٨، ٢٠٢
البرتوس ماغنوس ١٨٨
البيرة ٨٦
الف ليلة وليلة ١١٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٨،
١٢٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ٢٣٢
الفونسو العاشر ١٧٢، ١٨٠، ٢٤١
الكسيوس كومنينوس ٢١٨، ٢٢١
المانيا ١١٥، ١٦٣، ١٦٦، ١٨٨،
٢٠٥، ٢٢٧
المرية ١٦٧
اليان ٩١
الامويون ٦٢، ٦٤، ٧٩، ١٠٤، ١٠٧،
١٠٨، ١١١، ١٣٧، ١٥٩، ١٦٠
الامويون (في الاندلس) ١٦٣، ١٦٥،
١٩٣، ١٩٥
اميركا ٩، ١٠، ١٨، ١٩٦، ٢٥٦
الامين (خليفة) ١١٤، ١٢٩،
١٥٣، ١٥٢
امية، بنو ٧٧، ٨٥
انجو ٢٤١
الاندلس (وادي) ٨٤
الاندلس ٧، ١٣، ١٨، ٧٨، ٨٣، ٨٥،
٨٦، ٨٨، ٩٠، ١٠٩، ١١١،
١٢١، ١٣٥، ١٥٩، ١٦١،

١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٠ .

انطاكية ١٥٥، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣١

انطيوخوس ٦٧

انقره ٢٤٩

انكلترا ١١، ١٦٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٢٧، ٢٥٥

اوباس ٩١

اورال (جبال) ٧

اوربا ٧، ٩، ١٠، ٨٥، ٩٢، ١٠٠، ١١٥، ١١٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٤، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٥٢

اوربانوس ٢١٨

اورشليم ٢٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩ انظر بيت المقدس

اورليان ٢٦

اوستا ٢٠٢

اوغسطس ٦٧

اوغسطينوس ٨٤

ايبيرية ١٩٥

ايران ١٣، ١٤، ٣٥، ٧٤، ٨٣ انظر ايضاً فارس

ايزابيل (ملكة قشتالة) ١٩٦

ايطاليا ١١، ١٣٢، ١٦٣، ١٨١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٩، ٢٣٥

ايل خان ٢١٦

ايليا ٤٥

اينال ٢٤٥

ايوب ٢٧، ٤٥

باب المندب ٢٦

بابليون ٦٧

البابليون ٧، ١٢، ٧٢، ١٣٤

بابل ٢٢، ٢٥، ١١٧

باترنا ١٦٧

ابن باجة ١٨٢

باري ٢٠٢

باريس ٩٤، ١٦٦، ١٨٦، ٢٠٧

باسيليوس الاول ٢٠٣

باكون ، روجر ١٤٢، ١٤٤

بايزيد الاول ٢٤٩

البتراء ٢٣، ٢٦

بخارى ٨٣، ١٣١، ٢١٤

بدر (معركة) ٣٦

بدر (مولى) ١٦٠

بربروسا (فردرك) ٢٢٧

البراق ٣٥،٣٦
البرانس ٩٢،٩٣،١٦١،١٨٨
البربر ٨٤،١٠١،١٢٢،١٦١،١٦٣،
١٩٤،١٩٧،٢٣٩،٢٤٧
البرتغال ٢٠٠
برتون،برتشرد ٣٩
برسباي ٢٤٥،٢٤٦
برشلونة ١٦٦
برقة ١٣
برقوق ٢٤٥
بروسة ٢٤٩
البشكنش ١٦١
بشير (الامير) ٢٥٤
البصرة ٧٥،١٠٢،١٣٠،١٣١
البطالسة ٢٥،٦٨،٢٤٤
بطرس القنرابل ٤٤،١٨٩
بطرس الصارم ١٩٩
ابن بطوطة ١٢٦
بطليموس ١٤٠،١٤٧،١٤٨،٢٠٥
بعلبك ٢٤٨
بغداد ٢٣،٢٨،٧٨،١٠٧،١٠٩،١١١
١١٤،١١٥،١١٧،١١٨،١٢٥
١٣٠،١٣١،١٣٢،١٣٣،١٣٤
١٣٧،١٣٨،١٤٠،١٤٢،١٤٥
١٥٢،١٥٣،١٥٦،١٦٣،١٦٦،١٦٨
١٦٩،١٧٦،١٩٠،٢٠١،٢٠٦
٢١٠،٢١٣،٢١٤،٢١٥،٢٤٢
٢٤٤،٢٤٨،٢٥١،٢٥٢،٢٥٣
البغدادي ، عبداللطيف ٦٩
ابو بكر الصديق ٣٤،٦٢،٦٣،٧٢
البلاذري ٦٥
بلرم ٢٠١،٢٠٣،٢٠٤،٢٠٥،٢٠٨
بلنسية ١٦٧
بلوخستان ٨٤
البنجاب ٨٤
البنغال ١٣٥
البندقية ١٤٣،٢٠٢،٢٠٨،٢١٠،
٢١٩،٢٣٦ .
بنيامين التطيلي ١٣٧
بواتيه ٩٣،٩٤
بوران ١١٢
بوردو ٩٣
البوسفور ٢٥١
بوكاتشيو ٢٣٣
بوهمند ٢١٩،٢٢٢
بيبرس ٢١٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١ ،
٢٣٨،٢٣٩، ٢٤١،٢٤٢،٢٤٥،
بيبين ٩٣
بيت الحكمة ١١٨
بيت المقدس ٣٥،٣٦، ٣٨،٧٢،٨٩،
١٠٥، ١٥٢، ١٦٢،٢٠٥،
٢١٨،٢٢١، ٢٢٨،٢٢٩
بيروت ١٤٢،١٤٦،٢٣١
بيزا ١٨١،٢١٩،٢٣٦
بيزنطية ١١٠،١٦٣،٢٠١،٢٥١
البيزنطيون ٥٦،٦٣،٦٤،٨٠،٨٥،

١٥٤،١٥٨،١٩٩،٢٠٢
ابن البيطار ١٨٢
تانكرد ٢٢٢
التتر ٢٤٨
تحتميس الثالث ٦٧
تدمر ٢٢،٢٣،٢٦،١٤٥
ترتليانوس ٨٤
تركستان ١٠٠،١٠١،١٣٠
الترك ٥٤،٢٤٩..٢٥٠،٢٥١،٢٥٤
تركيا ٣٥،٧٧،١١٥
التروبادور ١٧٥
تشارلس (ملك انجو) ٢٤١
تشوسر ٢٣١
تكريت ٢٤٨
تنيس ١٢٧
توبولسك ٥٠
تور ٩٣،٩٤،٩٥
تولوز ٩٣،١٨٨
توما الاقويني ٢٠٧
تونس ١٢١،٢٠١،٢١١،٢٢١،٢٣٠
التيمس (نهر) ٦٧
تيمورلنك ٢٤٧،٢٤٨،٢٤٩
ثادري ٢٠٦
ثيودوشيوس ٦٩
جابر بن حيان ١٤٦،١٤٧
جالينوس ١١٧،١١٩،١٤٠،١٤٢
جايمس (ملك اراغون) ٢٠١
جبريل ٤٩
جبل طارق ٨٥،٩٤
ابن جبير ٢٠٤
الجدري والحصبة (رسالة) ١٤٣
الجربى ٣٩
الجرمان ١٦٦
الجزائر ١٢١،١٩٤
ابن الجصاص ١٣٦
جليقية ٨٨
جمال باشا ٦٧
الجمل (وقعة) ٧٥
جنديسابور ١٤٥
جنكيز خان ٢١٣،٢١٤،٢٤٧
جنوى ٢١٩،٢٣٦
الجهشياري ١٥٠
ابن جهور ١٧٤
جيان ١٦٨
جيحون ٨٣
جيرارد الكرموني ١٤٢،١٨٣
حارم ٢١٥
الحاكم ٢١٧
الحاوي (كتاب) ١٤٢
الحبشة ١٥،٣٥
حبيبة (زوج ابي بكر) ٧٢
الحثيون ١١
الحجاز ٣٣،٦٣،٦٦،٧٥،٩٠،٢٤٢،
٢٥٠،٢٥٤ .
الحر بن عبد الرحمن الثقفي ٩٣
الحريري ١٧٣

ابن حزم ١٧٢
حساب الجبر والمقابلة (كتاب) ١٤٥
الحسن بن علي ٧٤،٧٨،٧٩،٨٠
الحسين بن علي ٧٥،٧٩
الحسين (ملك) ٢٥٦
الحشاشون ١٩٢
حطين ٢٢٤،٢٢٥
حلب ٩٨،١٥٥،٢٢١،٢٤٨،٢٤٩
٢٥٠
حماه ٢٤،٢١٥،٢٤٨
الحمراء ١٦٨،١٩٤،١٩٩،٢٠٠
حمص ٣٦،٩٨،٢٤٨
حورابي ٢٣
حنين بن اسحق ١١٦،١١٨،١١٩،
١٢٠ .
الحوريون ١١
الحيرة ١١٩
حي بن يقظان ١٨٤
خالد بن الوليد ٣٨،٥٦،٦٣،٦٤،٦٧
خديجة ٣٣،٣٤،٤١
خراسان ١٥٧
الخطيب،لسان الدين بن ١٦٨،١٧٧
١٧٨
ابن خلدون ١٧٧،١٧٨،١٧٩
ابن خلكان ١١٦،١٧٢
الخوارزمي ١١٨،١٤٥،١٤٦،١٤٧
خوزستان ١٣٢
خيانس ١٩٦
دابق ، مرج ٢٤٩
دانتي ٢٨،٣٥،٤٥،١٨٨
داود (النبي) ٤٥،١٣٨
دجلة ٦٥،١٠٩،١١٤،١٣٤،١٥٧
الدردنيل ٨١
الدروز ٢٥٤
دلالة الحائرين ١٨٧
دلهي ٢٤٨
دمشق ٢٤،٢٨،٦٣،٧٢،٧٥،٨٩،٩٢
٩٥،٩٧،٩٨،١٠٦،١٢٤،١٤٥
١٥٣،١٥٥،١٥٦،١٥٩،١٦٠
١٦٧،١٦٨،١٦٩،١٨٨،٢٠٠
٢١٥،٢٢٩،٢٣٤،٢٣٥،٢٣٩
٢٤١،٢٤٢،٢٤٤،٢٤٨،٢٥٢
٢٥٣
دمياط ٢٣٠
ده لسبس ١٣١
دوزي ١٧٠
الدؤلي، ابو الاسود ١٠٢
دون كيخوته ١٧٣
ديار بكر ٢٤٢
ديقوريدس ١١٩
ديكامرون ٢٣٣
ذات الخال ١٢٩
ذات الصواري ٨٠
راجينالد ده شاتيون ٢٢٤،٢٢٥
الرازي ١٤١،١٤٢
رأس الرجاء الصالح ٣٦،٥٠،٢٤٧،٢٥١

ابن رشد ١٢١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧
الرصافة ١٦٢
الرعاة (ملوك) ١٨
رفائيل (مصور) ٢٠٢
الرقة ١٥٣
ركارد الكثلكة ٩١
روبنصن كروزو ١٨٤
روتر ، الدون ٣٩
روجار (كتاب) ٢٠٥
روجر الاول ٢٠٣، ٢٠٤
روجر الثاني ٢٠٤، ٢٠٥
روس ، اسكندر ٤٤
روسيا ١١٥، ١٤٥
الرولا ١٧
رولان ١٦١
رولان ، اغنية ١٧٥
الرومان ٧، ٨، ٢٦، ٦٣، ٧٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٦، ١٤٩، ١٥٧، ٢٠٣، ٢٣٢، ٢٣٥
رومة ٢٢، ٢٦، ١٧٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٨، ٢٥٤ .
ريتشرد قلب الاسد ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
ريموند ملك تولوز ٢٢٣
زبيدة ١١٢، ١٢٩
الزبير ٧٤، ٧٥
زرادشت ١٣٠
زنجبار ١٤٧
زنكي نور الدين ٢٢٣، ٢٤٥
زنوبيا ٢٢، ٣٦
الزهراء ١٦٤
زيدان (الشريف) ١٧٧
ابن زيدون ١٧٤
سامرا ١٥٣، ١٥٤، ١ ٥
سبتمانيا ٩٢
سبتة ٩١، ١٦١
سرابيس ٦٧
سبينوزا ١٨٨
سدوم ٤٥
سرفنيس ١٧٣
سرفيتيس ٢٤٣
سرقسطة ٨، ٩٢، ١٦١، ٢٠٣
السريان ٦١، ١٠١
سعد ، عمر بن ٧٩
ابن سعود ٨، ٢٥٩
السفاح ، ابو العباس ١٠٨
سكوت ، ميخائيل ١٨٣، ٢٠٦
سكينة ابنة الحسين ١٠٤
السلاجقة ٢١٣، ٢١٨، ٢٤٩
سلاذو ٨٦
سليم الثالث ٢٥٣
سليم العثماني ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١
سليمان الحكيم ٣٧، ٤٥
سليمان بن عبد الملك ٨٩، ٩٠
السمح بن مالك الخولاني ٩٢، ٩٣
سمرقند ٨٣، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣
سنان بن ثابت ١٤٠

سنجاز ١٤٥

السند ٨٤

السندباد ١١٥

السند هند ١٤٥

سندو ٨٤

السنغال ٥٣

السودان ٧

سورية ١٣، ١٨، ٢٤، ٤٠، ٥٣، ٥٧، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٨٣، ١٠٠، ١٠٦، ١٢١، ١٢٨، ١٤٠، ١٥٣، ١٨٣، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٥٧

سوسا ١٥٥

السويس ١٣١

سويسرا ٢٠٢

سويفي ٩٠

سيار اليوني ٥٠

سيان فو ١٣٧

سيراف ١٣٠، ١٣١

ابن سينا ١٢١، ١٤٠، ١٤٢، ٢٠٦

سيناء ٢٢، ٢٥، ٢٦

الشارات (جبل) ١٦٣

شاش ٨٣

شارل مارتل ٩٣، ٩٤

الشام ٣٦، ٥٦، ٥٧، ٧٥، ٧٨، ٨٠، ٨٤، ٨٩، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١٣٣

١٣٥، ١٥٤، ١٩٩، ٢١٥، ٢١٩

ابو شامة ٢٢٤

شرق الاردن ١٣

شرلمان ٩، ١١٠، ١١١، ١٢١، ١٦١، ٢١٧

شلمنانسر ٢٤

شهرزاد ١٥٠

الشهرستاني ٦١

شوليت ٢٧

شيراز ١٣٢

شيبان ٢١١

شيركوه ٢٢٤

الصابئة ١٣٥

الصالح (السلطان) ٢٣٩

الصقالبة ١٢٨، ١٦٤

صقلية ١٣، ١٤، ١٠٨، ١١٧، ١٤٠، ١٤٣، ١٧٧، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٤١ .

صلاح الدين ١٨٦، ٢١٠، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٨ .

الصليبية (الحروب) ١٨، ١٢٨، ١٣٣، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٤ .

الصليبيون ١٣٥، ١٥٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩ .

صور ١٣٣، ١٥٥، ٢٢٥، ٢٣١

صيدا ١٣٣، ٢٣١

الصين ٧، ٩٥، ١١٥، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٧
١٤٧، ١٥٤، ١٦٧، ١٨٣، ٢٤٩
طارق بن زياد ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩
طارنت ٢٠٣
طبرية ١٨٧، ٢٢٤
طرابلس ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣١
طرابلس الغرب ٦٩
طرسوس ٢٢١
طرطوس ٢٣١
طرواده ٢١٧
طريفة ٥/
طغرل بك ٢١٣
ابن طفيل ١٨٢، ١٨٤
طلحة ٧٤، ٧٥
طليطلة ٥/، ٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٦٧
١٧٩، ٣/١، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٩ .
الطوائف (ملوك) ١٩٤
طوران ٨٣
طورس ، جبال ٦٥
الطوطون ٥٦، ٩٠، ٢١٧
ابن طولون ١٤١، ٢١٠، ٢١١
الظلمات (بحر) ٧، ٨٥، ١٤٧
عائشة ٤١، ٦٢، ٧٥
العادل (الملك) ٢٢٩
العباد ١١٩
العباس ١٠٨
العباس ، عبد الله بن ١٠٨
العباسيون ١٠٨، ١٠٩، ١٣٤، ١٣٧
١٣٨، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٩، ١٦
٢١١، ٢٢٤ .
عبد الحميد الثاني (العثماني) ٧٧، ٢٥٣
عبد الرحمن الداخل ١٦٠، ١٦١، ١٦٥
١٧٣، ١٩٨
عبدالرحمن الغافقي ٩٣، ٩٤، ٩٥
عبدالرحمن الناصر ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤
١٦٥، ١٦٨، ١٧٧
عبدالعزيز بن موسى بن نصير ٨٨
عبد المجيد الاول ٢٥٣
عبد المجيد الثاني ٦١
العبرانيون ١٢، ٣٤، ٧٢، ١٨٤، ٢٢١
العتابي ١٣٢
عثمان بن عفان ٤٤، ٦٢، ٧٤، ٨٠
العثمانيون ١٣٤، ٢١٤، ٢٤٩، ٢٥١
٢٥٢، ٢٥٥
عدن ١٣٤
العراق ٨، ١٢، ٥٣، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٣
٦٦، ٧٥، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ١٢١
١٣٢، ١٣٤، ١٧٠، ١٨٣، ١٩٣
٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٤، ٢٥٧
ابن عربشاه ٢٤٧
ابن عربي محي الدين ١٨٨
العزيز (الملك) ١٨٦
عكا ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١
ابن العلقمي ٢١٥
علي بن ابي طالب ٣٤، ٤١، ٦١، ٦٢، ٧٤
٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩

عليّة ١١٣
عُمان ٣٩، ٧٦
عمر بن الخطاب ٢٣، ٣٥، ٣٦، ٦٢، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٤
عمر بن ابي ربيعة ١٠٤
عمر بن عبد العزيز ١٣٦
عمرو بن العاص ٣٨، ٥٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٥، ٧٦ .
العموريون ١٢
عنتر (سيرة) ٢٤١
ابن العوام ١٨١
عيسى ، علي بن ١٤١
عين جالوت ٢٣٩
غارون (نهر) ٩٣
الغال (بلاد) ٩٣
الغاليون ٩٣
غبّون ٩٤
غرناطة ٧٦، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠ .
غودفري ٢٢٢
غورز ١٨٩
غي (الملك) ٢٢٤، ٢٢٧
غيطشة ٨٦
الفاتيكان ٢٠٢
الفاخر (الملك) ٢٤٤
الفارابي ١٥٧
فارثيا ٣٨
فارس (بلاد) ٢٧، ٦٠، ٧١، ٣، ١٠٢، ١١٠، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٥، ١٥٥، ١٨٣، ٢٠١، ٢١٢، ٢١٧، ٢٣٥، ٢٤٤، ٢٤٨ .
فارس (خليج) ١٤، ٢٣٦
فاسكو دي غاما ٢٤٧
فاطمة ٤١، ٦٢، ٧٤، ٧٨
الفاطميون ٢١١، ٢١٣، ٢٢٤
فانديك ١٤٣
الفرات ٧٥، ١٠٩، ١٣٤، ١٤٥، ١٦٠
الفراعنة ١٣٤، ١٥٤، ٢١٢
فرج بن سالم ١٤٣
فردرك الثاني ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧
فرديناند (ملك اراغون) ١٩٦
الفرس ٣٦، ٥٦، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٧٢، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦، ١١٧، ١٥٤
فرنسا ٩٣، ١٣٢، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٥، ١٨٨، ١٨٩، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٥٥
الفزاري ١١٧، ١١٨
فزوفيوس ٢٠٣
الفسطاط ٦٨، ١٥٥، ٢١٢
الفصل في الملل والاهواء والنحل ١٧٢
الفصول في الطب ١٨٧
ابو فطرس ١٠٨
فلسطين ١٣، ١٨، ٣٥، ٥٧، ٦٧، ٧٦، ٧٨، ٨٩، ١٠٠، ١٢١، ١٨٧، ٢٢٢، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٥٧ .
الفندال ٩٠

فنلندا ١١٥
الفولغا ٢٤١
فيثاغورس ١٤٤
فينا ٢٥٢
فيصل (ملك العراق) ٨
فيلبس العربي ٢٢
الفيلبين ١٩٧
فيليب اوغسطس ٢٢٧
فيليب الثالث ١٧٧، ١٩٨
فيليب الثاني ١٧٧، ١٩٨
الفينقيون ١٢، ٧٢، ١٣٣
قاثت باي ٢٤٥
قانصوه الغوري ٢٤٩
القاهرة ٢٨، ٧٨، ١٣٠، ١٤٠، ١٥٦، ١٨٦
١٨٧، ١٨٩، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٩
٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٥
قبرس ٢٢٧
قبريانوس ٨٤
القبشاق (ارض) ٢٤٨
القرآن ٤٩، ٥٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٤٣
١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٧٣، ١٧٦
١٨٤؛ ١٨٩
القرامطه ١٩٣
قرطاجنه ٨٤، ٨٥، ١٦٤، ٢٠٠
قرطبة ٩، ٧٨، ٨٦، ١٦٢، ١٦٣؛ ١٦٤
١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٤
١٧٦، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦
١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠
قرقر ٣٤
قرمونة ٨٨
قريش ٣٢، ٣٦، ٣٨؛ ٦٢، ٧٤، ٧٥، ١٧٤
قزوين (بحر) ١٣١
قسطنطين السابع ١١٢
القسطنطينية ٦٦، ٨٠، ٨٤، ٩٢، ١٥٦، ١٦٣
١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ٢١٨، ٢١٩
٢٢١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢
٢٥٣
قشتالة ١٧٢، ١٧٦، ١٩٥؛ ١٩٦، ١٩٧
القفطي ١٧٢
قلورية ٢٠١، ٢٠٣
قمبيز ٦٧
القوط ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢ ١٦٣
قيدار ٣٧
قيس ١٠٨
قيسارية ٦٧، ٢٣٠
كانت ١٨٨
كانتون ٥٠
كربلاء ٧٩
الكرج (بلاد) ٦٥
كردستان ٢٤٨
الكرك ٢٢٤، ٢٣٠
كسرى ٦٥، ٦٦
الكعبة ٣٨
كلارمونت ٢١٨
الكلدانيون ٧، ١٢
كلوني ١٨٩

كليوبترة ٦٧
الكليات في الطب ١٨٥
كليلة ودمنة ١٧٢، ٢٣٣
كليكية ٢٢٧
الكناري (جزر) ١٤٨
كندة ١٧٨ الكندي ١٤٤
كوفا دونغا ١٩٥
الكوفة ٧٤، ٧٥، ١٤٦
كولمبس ١٧٩، ١٩٦
كولون ١٨٩
اللاتين ١٤٢، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١
لافونتين ١٧٢، ١٧٣
اللامبارديون ١٦٤، ٢٠١
لبنان ٨، ١٣، ١٠٨، ١٢١، ١٧٥، ٢٥٤
لذريق ٨٦
لندن ٦٧، ٩٤
لود فيكو دي فارتيا انظر فارتيا
اللورين ١٨٨، ١٨٩، ٢١٩
لوط ٤٥
اللوفر (متحف) ١٥٥
ابو لؤلؤة ٧٤
لويس التاسع ٢٣٠، ٢٤١
لياج ١٨٩
ليبريا ٥٣
ليون ٨٨، ٩٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٩٥، ١٩٧
ليوناردو فيبوناتشي ١٨١
مارتنيوس ٩٣
مارك اليوناني ٢٣٤
مارية القبطية ٤١
ابن ماسويه يوحنا ١١٩
مالابار ١٣٧
مالطه ٢٠٢، ٢٠٣
مالقة ١٦٧، ١٦٨، ١٧٦
المأمون ١١٢، ١١٨، ١٢٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٥٣،
المتوسط، البحر ١٣٥، ٢٣٤
المتوكل ١٢٠، ١٢٩، ١٣٦، ١٥٣، ١٥٤
المتوكل (مصر) ٢٤٣، ٢٥٠
محمد السادس (غرناطة) ١٧٨
محمد (الغالب) ١٩٤، ٢٠٠
محمد علي ٢٥٥، ٢٥٦
محمد (النبي) ٧، ٩، ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٩٥، ٩٩، ١٠٤، ١٠٥، ١٢١، ١٤٩، ١٥٤، ١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٢
محمد بن ابي بكر ٧٤
محمد بن يوسف ١٧٨
محمود الثاني ٢٥٣
المدائن ٦٦، ٧٢
المدجنون ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠
مدريد ١٧٧
المديانيون ١٨
المدينة ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٧٢، ١٠٤، ٢٥٠، ٢٥٢

المرابطون ١٩٤، ١٩٩
مراكش ١٠، ١٢١، ١٣١، ١٣٣، ١٦٧،
١٧٦، ١٧٧، ١٩٣
مرسيليا ١٠٨، ٢٢٦
المرشوشي، علي بن ٢٤٥
مريم (والدة المسيح) ٤٥
المستضيء ٢٣٤ المستعين ١٣٢
المستنصر ١٥٣، ٢١٢، ٢٤٣
المستنصرية ١٥٣
المسعودي ١١٤، ٢٠٥
المسيح ١٨، ٣٦، ٤٥، ٢٣٢
مصر ٨، ١٣، ٢٥؛ ٣٦، ٥٣، ٥٦، ٥٧، ٦٧،
٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٤، ٩٦، ١١٥، ١١٧،
١٢١، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧،
١٦٨، ١٨٣، ١٨٧، ٢٠٦، ٢١١، ٢١٣،
٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤١،
٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
معاوية بن أبي سفيان ٧٥، ٧٦، ٧٧،
٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٥، ١٠٨
المعتزلة ١١٨
المعتصم ١٢٧، ١٢٩، ١٤٠، ١٥٤
المعتضد (العبادي) ١٧٤
المعني، فخر الدين ٢٥٤
المغول ٩، ٨٣، ١٠٩، ١٣٠، ١٣٨، ١٥٣،
١٩٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢٤١، ٢٤٩.
المقتدر ١١٣، ١٣١، ١٤٠، ١٤١، ١٥٣
المقري ١٧٤ مقنا ٣٩

مكة ٣٥، ٣٦، ٣٨، ١٤٧، ١٦٢؛ ١٦٨، ٢٥٠
ماتان ٨٤
ملقة ٥٣، ١١٥، ١٣٥
المماليك ١٦٤، ٢١٦، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧،
٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩،
٢٥٠، ٢٥٢.
منتبليه ١٨٨
المنصور (العباسي) ١٠٩، ١٥٣، ١٦٤
المنصور، الحاجب ١٦٥، ١٩٩
المهاجرون ٣٦، ٤١
الموحدون ١٩٤، ١٩٩
موريتانيا ١٩٧
الموريسكو ١٩٧، ١٩٨
موسكو ٢٤٨
موسى (النبي) ٢٣، ٢٧، ٤٥
موزل، الوا ١٧
موسى بن نصير ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٠،
٩٣، ١٠٠
الموسيقى الكبير (كتاب) ١٥٩
الموشى ١٢٥
الموصل ١١٤، ٢٤٤
المؤيد شيخ ٢٤٥
ابن ميمون ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨
نائلة ٧٤
نابل ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧
نابليون ٥٧، ٦٧، ٢٤١، ٢٥٤، ٢٥٥
الناصرة ٢١٦، ٢٣٠
ناصري خسرو ٢١٢

نافارا ١٦٦
النجاشي ٣٥ نزوج ١١٥
نجد ٢٤
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢٠٥
النساطرة ١١٩، ١٥٤
بنو نصر ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠
النظامية ١٦٩
نفح الطيب ١٧٤ ابن النفيس ٢٤٣
نهاية الارب في فنون الادب ١٢٣
النهروان ٧٦
ابو نواس ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٢٩
النوبة ٢٣٩
النورمنديون ٢١٩
نوميديا ١٦٤
النوميديون ١٦٣
النويري ١٢٣
نيجيريا ٥٣
النيل ١٤، ٢٥، ١٣٤، ٢٠٥، ٢٠٢، ٢٣٠،
٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٥
نيويورك ٦٧
هرون الرشيد ٢٢، ١١٠، ١١١، ١١٣،
١٢٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٤٠،
١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ٢٢٩، ٢٤١ .
هرقل ٦٤
هشام (خليفة في الاندلس) ١٦٢، ١٩٨
هشام (خليفة في دمشق) ١٦٠
الهلال الخصيب ١٥، ٧١، ٧٢، ١١٨
الهمذاني ١٧٣
الهند ٧، ١١، ٢٥، ٢٦، ٦٦، ١١٥،
١١٧، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٨، ١٦٨،
٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٨ .
الهند الصينية ١٠
الهندي (محيط) ١٤
هنيبال ٥٧
هولاكو ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٨، ٢٣٩
الوشاء ١٢٥
الولايات المتحدة ٩١
ولكوكس ١٣٤
الولادة ١٧٤
الوليد ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ١٠٦
وليم الثاني ٢٠٤
يافا ١٠٨، ٢٣٠
ياقوت الحموي ١١٠
يثرب ٣٦ اليرموك ٦٤، ٦٥
يزيد بن معاوية ٧٩، ١٠٨
يزيد بن الوليد ١٠٧
يلباي ٢٤٥
اليمن ٣٩، ٥٣، ١٧٨، ٢٤٢، ٢٥٤
يوحنا الثامن ٢٠٢
يوليوس قيصر ٦٧، ٦٨
يوسف (النبي) ٤٥
يوسف، ابو الحجاج ١٧٨
اليونان ٧، ١١، ٢٩، ٦١، ٧٢، ١١٧،
١١٨، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٥٨،
١٧٦، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٧ .
يونان (النبي) ٤٥

فهرست

فاتحة	٥
١ – مكانة العرب في التاريخ	٧
٢ – العرب الاصليون : البدو	١٣
٣ – قبل فجر الاسلام	٢٤
٤ – محمد رسول الله	٣٢
٥ – القرآن والايمان	٤٣
٦ – سير الاسلام	٥٦
٧ – الخلافة	٧١
٨ – فتح الاندلس	٨٣
٩ – بدء الحياة الثقافية والاجتماعية	٩٧
١٠ – بغداد في اوج مجدها	١٠٧
١١ – مناحي حياة العامة	١٢٢
١٢ – العلوم والآداب	١٣٩
١٣ – الفنون الجميلة	١٥٢
١٤ – قرطبة جوهرة العالم	١٥٩
١٥ – فضل العرب على المدنية الغربية	١٧١
١٦ – أفول نجم العروبة في الشرق والغرب	١٩٠
١٧ – الحروب الصليبية	٢١٧
١٨ – المماليك البحرية	٢٣٧
١٩ – العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة	٢٥٢
فهرست الأعلام	٢٥٩

ثمن النسخة :

في سورية ولبنان : اربع ليرات

في سائر العالم العربي : ٤٥٠ فلساً او مليماً او ملاً

مطبعة الكشاف بيروت